خواطر وأحاديث للأبناء

عبدالله بن عبدالمحسن بن محمد الماضي

الطبعة الثانية ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

خواطر.. وأحاديث للأبناء

عبدالله بن عبدالمحسن بن محمد الماضي

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

الطبعة الثانية
١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢م

ⓒ عبدالله بن عبدالمحسن بن محمد الماضي، ١٤٣٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الماضي، عبدالله بن عبدالمحسن

خواطر وأحاديث للأبناء. / عبدالله بن عبدالمحسن الماضي. - الرياض، ١٤٣٠هـ

٢٥٤ ص ١٧×٢٤ سم

ردمك: ٨-٣٦٧٣-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

١- الآباء والأبناء - الجوانب التربوية ٢- التربية الإسلامية

أ. العنوان

ديوي ١, ٣٧٧ ١٤٣٠/٦٩٧٤

رقم الإيداع: ١٤٣٠/٦٩٧٤

ردمك: ٨-٣٦٧٣-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

يسمح بالاقتباس مع ذكر المرجع

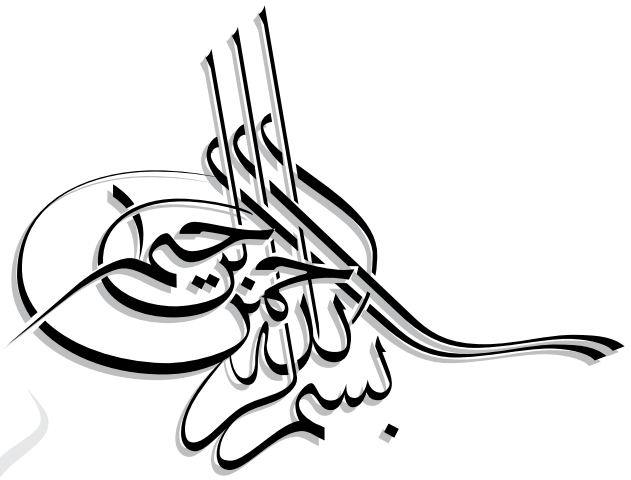
بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

أحمد الله وأشكره على أن يسَّر لي ومكنني خلال مرحلة التقاعد من إعداد هذه الكتب:

- ذاكرة من الزمن.
- خواطر وأحاديث للأبناء.
- نشأة الإخوان ونشأة الأرطاوية.
- التوثيق الأسري.
- رسائل احتفظت بها.
- مركز حرمة وشيء من المستندات.

وقد كان لهذه الخواطر والأحاديث وقع في النفس حين إعدادها وإفرازها شيئاً من الشجون، وما كنت أنوي نشرها لكن تتابعها وظهورها بهذا الحجم دفعني لجمعها بهذا الإصدار في طبعته الأولى عام ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م، حيث لاقت الاستحسان من عدد من القراء الكرام من خلال رسائل وكتابات صحفية، ومن ثم فقد رأيت إعادة طباعتها مع قليل من الزيادة مؤملاً أن تجد قبولاً.

والله الموفق،،،

المؤلف

إهداء..

أُهدي هذه المقتطفات من (خواطر وأحاديث للأبناء).. إلى كل نفس طاهرة زكية.. تواقة لفعل الخير.. ممارسة لفضيلة التسامح.. مترفعة عن ساقط القول، وسفاسف الأمور.. متسامية عن الغل والشحناء.

المؤلف

تقديـــم

إعادة اكتشاف: عبدالله الماضي

قبل أن أقرأ هذا الكتاب.. كنت أظن أني أعرف/ عبدالله بن عبدالمحسن الماضي واكتشفت بعد قراءته أني أعرف «أبا عبدالمحسن» القريب والصديق العزيز فحسب، لكني عرفت الآن أنه «السيد الحكيم» و«المثقف الأديب»، تلك صفتان كبيرتان هامتان يجدهما القارئ من صفات المؤلف حين يقرأ هذا الكتاب.

أما الأولى: السيادة والحكمة.. فتعج بها صفحات الكتاب بل هي موضوعه ولبه الذي تدور عليه رحاه، فالكتاب في موضوعه كتاب قيم وأخلاق ومبادئ شبت عليها شخصية المؤلف بما قُدر له أن يعيشه في يتم طفولته وحرمان صباه وشقاء شبابه ومكابدة كهولته، وما توفر لديه من حسٍ وتمييز لأخلاق الرجال الذين عايشهم خلال تلك العقود من الكرب والشدة، وما رأى في طبائعهم من تباين بين الخير والشر والعدل والظلم والمروءة والوفاء والغدر، وبين هذا التباين والتناقض في الطباع تنشَّأ صاحبنا وذاق وكابد، فعرف حلاوة الصدق والمروءة والوفاء، وذاق مرارة اللؤم والخِسَّة والنفاق، ولأنه كان ذا عقل صحيح سليم ونفس طيبة سوية فقد اختار طريق الخير والمروءة، وكَرَّسَ حياته الراشدة لنشر قِيَم الحق والخير في علاقاته ومجتمعه، وجاهد واجتهد أن تقوم تعاملات الناس ومعايشهم على أساس من تلك المبادئ والقِيَم، وتَرفَّع عن الصغائر وعن حمل الضغائن والأحقاد تجاه من أحسن إليهم وأساؤوا إليه فكان «كمن يسفّهم الملّ»، وهو في هذه الخواطر

يدعو الأجيال إلى سلوك هذا المسلك في تعاملاتهم مع الناس، تلك هي الصفة الأولى وما استحق به أن يوصف بالسيد في قومه «ولولا المشقةُ ساد الناسُ كلهمُ»، وأنه الرجل الحكيم ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾[١].

وأما الثانية، من الصفات التي اكتشفتها مؤخراً في أخي وصديقي المؤلف فهي القدرة الأدبية والثقافة الراقية التي تتبدى للقارئ في ثنايا (الدروس) التي أسماها المؤلف (خواطر) وأنا أسميها دروساً من الخبرة والحكمة.. فالكتابُ – أدبياً – محشود بحِكَم مأثورة وأشعار منثورة تجمّل الخطاب وتؤنس المخاطَب، فكانت تلك الدروس الحكيمة مع جمال اللغة والأدب كالوجبة الشهية في الطبق الأنيق، أو كالصبية الجميلة في الحلية التي تزيدها جمالاً وبهاء.

ولهذين الأمرين (الحكمة والأدب) اللذَين لم أعرفهما في المؤلف فيما سبق رغم القرابة والصداقة أسميتُ تلك الحالة «إعادة اكتشاف عبدالله الماضي».

وبعد: فهذه الخواطر ليست كلاماً إنشائياً متخيلاً.. كلا، بل هي درر ثمينة ورؤى اجتماعية وفكرية بلغت الغاية في نضوجها العقلي وسمو أهدافها ومقاصدها الإنسانية الفاضلة، والتي يتمنى كل إنسان أن يكون هو من يتصف بها في حياته مع أهله ومجتمعه، ملتزماً قيمه العليا ديناً وخلقاً ومعاملة إنسانية مثلى.

---

(١) سورة البقرة آية (٢٦٩).

الكتاب وإن أسماه مؤلفه «خواطر وأحاديث للأبناء» فهذا من التواضع المحمود، إلا أني أراه صالحاً لكل فئات المجتمع، إلا فئتين ربما: الأطفال الذين لم يميزوا بعد، والشيوخ الذين بلغوا أرذل العمر وفقدوا التمييز!.. ما عدا هؤلاء فالكل محتاج لهذا الكتاب ومستفيد منه، فالشاب الذي في العشرين والثلاثين إذا قرأه فإنه يعرف ما سيواجهه ويعانيه في مستقبله القريب، والكهل في الأربعين والخمسين سيجد أنه يقرأ عن أمور يعايشها ويكابدها كل يوم، والشيخ في السبعين والثمانين سيصدق الكاتب فيما كتب ويقول للشباب والكهول: صدق صاحبكم فاسمعوا له وأطيعوا.

وأنصح قارئ هذه الخواطر لا يطوي صفحات هذا الكتاب حتى يأتي على آخر سطر منه فيكون قد رُوي من هذا الغدق وأخضلت نفسه على ربواته. والله الموفق، ، ،

عبدالله بن عبدالعزيز بن إدريس
رئيس النادي الأدبي بالرياض سابقاً

تمهيد

كثيراً ما يخلو الإنسان بنفسه ليُعمل فكره في أمور ذات أبعاد هامة، وشأن اجتماعي يتعلق بشخصه أو أبنائه أو إخوانه أو عائلته أو أسرته، وتتداح أفكاره وتتسع دائرتها لتشمل مجتمعه ووطنه، ويسعى جاهداً ليحقق طموحاً ما، ويسترسل به التفكير متصوراً ما قد يصطدم به من معوقات وكيف يتجاوز أخريات، وهكذا سُنن الحياة.

هذا النوع من التفكير غير موجود في مخيلة الجميع.. بل اختص به نفر يدركون أبعاد ما يموج من إشكالات داخل المجتمعات، وما يُحيط بالأمة من فتن ومخاطر، وما يؤدي إلى مسلك شاق لا يدركه كثير من الناس لأنه يقتضي حالاً من التبصر والفهم العميق للتعامل مع المستجدات والمتغيرات والاستعداد لمواجهتها مع الحفاظ على الثوابت والأصالة.

إن العمل الاجتماعي، والنشاط الأسري، والسعي التطوعي.. أنشطة جليلة ومساعٍ خيِّرة لا تتحقق إلا بجهد جماعي، وإنفاق مال، وعلاقات منتقاة.. وصبر واحتمال، وتنازل وتسامح، وتآلف وود، ومسايرة ومثابرة مع طول زمن.

تَذكَّرَ صاحبنا أقواماً سلفت، وأمماً رحلت.. سادت ثم بادت.. كانت لها تجارب خلال رحلة الحياة تمخضت عن سعي لبناء كيان، أو استعادة لمكانة فقدت، أو نشاط اجتماعي، وإنشاءات ومرافق وخدمات ولمّ شمل، أو شيء من المثل والمواقف الإنسانية، وكرم النفس مع بذل وعطاء وإصلاح.

كما تذكر أن كل ذلك البناء التاريخي، والعمل الإنساني قد تعرض لصنوف من الهدم والتقويض، والقَدْح والتشويه، ولكن ممن؟!.. من جماعة ومعارف وأقارب هجروا وقاطعوا ثم.. جابهوا فطمسوا خيراً وأذاعوا شراً.

وتساءل صاحبنا: هل الجحود والنكران شأن يتعرض له كل من يعمل لتحقيق مطامح إنسانية ومقاصد خيّرة؟! وتجيء الإجابة سريعاً بالإيجاب!!، وأن ما يحدث من صراعات هي ضريبة يتحملها سُعاة الخير نحو كل أمر مروم ومقام محمود.. ومع هذا لم يثن ذلك من العزم على إكمال المسيرة بالصبر والتصميم حتى ولو كثر الأذى.

وبعد هذا المسار ماذا كان: انطوت أيام، وذهبت أحلام، وتداعت أوهام، وتكثفت غيوم، وساء مقام.. ثم أزف الرحيل.

وماذا بعد الرحيل؟ هل يتوقف العطاء، وتنقطع الصلة، وتزداد الفرقة، ويصير الحديث عبر المجالس خبراً يروى وذكراً يبقى، وقد يتساءل متسائل: هل من امتداد لخير أولئك الأقوام ذوي المكارم والأخلاق؟.. ويتصور صاحبنا جواباً من شقين: أولهما: حسرة وأسى على حال من التشرذم بعد وحدة، وعلى بُعدٍ بَعد قرب، وعلى شتات بعد اجتماع واتحاد.. ثم يردد قول الشاعر:

هل من مُجيب إنْ دعوت ورائـى ... ويَعي الخطَابَ، وأَيْنَ مِنِّي الواعي
ذَهَبَ الرِّجَالُ وخَلَّفُوا أبناءهـم ... والماء يَخْلُفُهُ سـراب القـاعِ
كم ذا أُنـادي غيرْ مَسْمُوع النِّدَا ... وأحُـثُ للإصـلاح غيـرَ مطـاعِ
يا أمَّةً ذَهَبَ الخُمُـول بمجدِهَـا ... هل بَعْدَ ذا الإخفاق ذكر سـاعِ

وثانيهما: مساع حثيثة صادقة تُجدد الموروث وتبني فوقه وتحافظ على المجد التليد، وهذا أمل يُراود الباني الأول فيدعو الله أن يحققه، وسنة الحياة تقضي بأن لكل زمان دولة ورجالٌ.

إلا أنه مهما قرأ الإنسان واطلع ورأى من المواقف والعبر، وسمع أحداثاً، وقصصاً تروى، وشاهد مواقف جائرة ومنكرة لجميل، وجَاحِدة لعطاء، وساعية لفرقة وشحناء.. ومع العجب من هذه المتناقضات المتباينة والمواقف السلبية المؤلمة.. إلا أنه يخشى أن يتعزز الشق الأول من الجواب فيكون الهدم ومن بعده الانقراض!! لا سمح الله.

قصدت من هذه الخواطر والأحاديث للأبناء أن أبيّن بعض المواقف المؤسفة والمؤلمة والمخزية التي تطعن الفضيلة وتُعزز الرذيلة.. فيتجنبها من وهبه الله إخلاصاً ووعياً، كما هدفت إلى بيان مواقف أخرى نبيلة وشريفة تفعل عكس الأولى بما لها من أثر فعال في طعن الرذيلة وتعزيز الفضيلة ليتمسك بها المخلص الواعي.

وقبل أن أختم هذا (التمهيد) أتساءل منكراً لا مستفسراً: هل يستوي من شأنه الشقاق والدعوة إلى الفرقة وتعميق الجروح ومعارضة مشاريع النفع العام.. كتعبيد طريق أو بناء مستشفى أو إنشاء جمعية خيرية أو..... مع من ديدنه الخير والبناء والعطاء؟!!

لا يستويان مثلاً، نعم وألف نعم لا يستويان، فالغلبة للساعي إلى الخير والانهزام لداعي الشر بإذن الله.

هذا اجتهاد والله من وراء القصد.

مقدمة.. خواطر، وأحاديث للأبناء

تمر بالمرء موجات من الأفكار السعيدة والرؤى الحالمة.. يقابلها تيارات من المعاناة والهموم.. مكونة جداول لمسارات اعتاد السير فوقها.. فإذا هي خواطر جياشة، وعواطف حارة تلفح بوهجها النفس وتلذع القلب، وتتراقص أحرفها متناثرة هنا وهناك.. تبحث عن مُنَظِّر يُعيد ترتيبها.. ليزدان رونقها وتنفتح أبواب أحلامها.. لتسرح وتمرح بمخيلتها نحو آفاق من الطموح والآمال، أو تتقلب بين الأوجاع والأسقام، وهيهات أن يدوم لها الصفاء! من خلال أوهام وأمنيات.. في ظل حياة مفعمة بهمومها وتقلبات ظروفها، وما يعتريها من متناقضات وأسباب ومسببات، وما يقتضيه حال سيرها، وما يواجه المرء من متغيرات تتطلب الصبر والاحتمال، وكل بحسب توفيقه وقدراته.. تنظيراً وتخطيطاً ومعالجةً مع أن الإنسان الكريم يمضي في حياته قدماً لا يثني عزمه معوّق ولا يوقفه مؤرق.. مطمئناً إلى ما قدره الله مردداً قول الشاعر:

دع الأيـــام تـفـعـل مـا تـشـاءُ وطِـبْ نفساً إذا حـكم القضاءُ

غير ملتفت إلى الشطر الثاني من قول المعري:

تـعـب كـلـهـا الحـيـاة فـمـا أعـ جـبُ إلا مـن راغـبٍ في ازديـادِ

مقراً بأن الحياة بعضها لا كلها تعب، آخذاً نصيبه من بناء أمجاد بفعل الخير بازدياد، فلا سرف في الخير، ولا خير في السرف.

لقد مررت خلال رحلتي الطويلة مع الحياة بظروف متباينة منها تعاسة طفولة وصبا، وكفاح شباب، ومعاناة كهولة.. نعمت بعد ذلك باستقرار ورضاء ولله الحمد.

وفي مرحلة الشيخوخة كما هو مألوف واجهتُ عوارض صحية، اضطرتني إلى إجراء فحوص طبية وتلقّي علاج، وتوصيات أخذت من اهتمامي، واستجابة لنصيحة الأبناء والمحبين.. حزمت أمتعتي بعدما اتخذت قراراً بالسفر إلى خارج الوطن بحثاً عن علاج ناجع للنازلة التي ألمت بي.. تاركاً ورائي حملاً ثقيلاً وقلقاً شديداً على الأهل والولد.. الأمر الذي ضاعف همومي وزاد أرقي، وتلك عوارض الدهر وتقلباته، ومجريات الحياة وشعثها، والتي صار لي فيها مسارات ما بين شظف عيش وثبور وسرور وحبور.

فترة قصيرة أثارت الشجن والشجون، إنها ثلاثة أسابيع فقط.. قمت خلالها برحلة إلى (هيوستن) بالولايات المتحدة الأمريكية للحصول على استشارة طبية بعد مرور عام على مواصلة العلاج بمستشفى الملك فيصل التخصصي بالرياض. الرحلة بدأت في ١٤٢٦/٧/٢٦هـ وانتهت في ١٤٢٦/٨/١٧هـ، وكانت حافلة بفحوصات وتحاليل وأشعة، ومقابلات طبية، وقد ولدّت في ذهني الكثير من الخواطر والذكريات التي عادةً ما تتكاثر في مخيلة المسافر البعيد عن الوطن والأهل والولد، وتُعيد له ذكريات، وتُثير جملة ثرية من أشجان وخواطر يُعايشها في ليله ونهاره.

كان لمبعث هذه الخواطر بعض الافرازات لسلسلة من الأحداث والمنعطفات.. منها: أن تزوجت الأبنة (نورة) وسافرت مع زوجها في اليوم الأول من أحداث هذه السلسلة، وفي اليوم الثاني سافر الابن نايف إلى بريطانيا للدراسة، وفي اليوم الثالث غادرتُ إلى الولايات المتحدة.

ولك أخي القارئ أن تتصور موقف الأم والزوجة (أم نايف) وما عانته من هموم وأحزان لفراق ثلاثة:

البنت، والابن، والزوج.. غادروا خلال ثلاثة أيام متتالية.. ثم تصوراتي أنا كأب لواقع مُضنٍ.. فما كان من لسان الحال وأنا على متن الطائرة من نيويورك إلى مدينة هيوستن إلا تدوين الخاطرة الأولى (خاطرة أُم).. تلتها خمس خواطر أثناء الرحلة فرضها واقع حال غربة، وبُعد ووحدة.. ثم عززتها بجملة من الخواطر والأحاديث المتناثرة بعد العودة.. كلها تحكي رؤى شخصية تحتمل الخطأ والصواب.

ولَعَلّي بذلك أكون قد أرضيت عاطفتي، مع أنني ربما أثقلت على قارئي الكريم الذي أرجو أن يجد لي عذراً فيما قُلت وأفضيت، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

المؤلف
ص.ب: ٧٦٣٢ الرياض: ١١٤٧٢
ت: ٤٧٧٠٠٣٣ ف: ٤٧٩٢٣٥٠

٢٦/ ٧/ ١٤٢٦هـ

(١) خاطرة أم.. وفراق أحبة

الخواطر جملة من التخيلات والرؤى.. تشغل ذهن المرء، وتذهب به رَوْحَةً وغدوة، وتأخذه جيئة وذهاباً، مُخلِّفةً أحزاناً وقلقاً وتيارات من المعاناة والسهر، ومكونة خلجاتٍ وهموماً في النفس، وآهاتٍ تعتلج في الصدر، ومشاعر وأحاسيس، وأحلاماً ذات وساوس، وتلك هي معاناتي التي أفرزها عامل المرض المضاف إليه بُعد وفراق.. لأب وولي أمر مثقل بالواجبات والمسؤوليات.

كثيرة هي الخواطر بأوهامها وآلامها وجراحها، والإنسان سارح في دوامة بين غفلةٍ ورغبةٍ وآمال وتطلعات، وما هي إلا أمور تسري برضى، وأقدار تجري وفق القضاء، وليس للإنسان من خيار غير ما كُتب في اللوح وانقضى..

يقول الشاعر:

ثمانية لا بد منها على الفتى ولا بد أن تأتي عليه الثمانيه
سرورٌ، وهمٌ، واجتماعٌ، وفرقةٌ وعسرٌ، ويسرٌ، واعتلال، وعافيه

فهل من وازعٍ يقظٍ يهدي إلى رُشد ويُعَمّق إيماناً، وهل من ذِكْر وتذكير يؤديان إلى صبر وجَلَد واحتساب، وتسليم لإرادة المولى. أرجو الله أن يهبني قوة الصبر والاحتمال ويمنحني عفوه وجزيل منّه وكرمه.

هي الدنيا كما شاهدتها: تُضحك وتُبكي بحلوها ومرها.. تجمع وتفرق، وتباعد بين الأحبة وذوي القربى.. لتبقى القلوب معلقة بأُم مكلومة، وبنت شغوفة، وابن طموح يتطلع لمستقبل واعد، وأب حائر بين صراع الأيام، وعبث القوم، وجنايات الهوى، وتيارات من المتناقضات المؤلمة الموجعة التي استعصى علاجها ولكن الشاعر خفف من وطأتها بقوله:

وطِّن النفس على مُـرِّ القضـا واصطبر إن مَسَّكَ الدهر المريب

ما قبل أمس: سافرت البنت.

وأمس: سافر الابن.

واليوم: يَعِزُّ علينا فراق الأب.

نعم بعد سفر الابن والبنت.. يّعِزُّ علينا فراق الأب.. ذلك الفراق الذي لم يكن لسياحة ممتعة، أو مهمة تجارية، وإنما هي رحلة علاجية مشحونة بترقباتها من آلام وآمال.. مُخَلفة جملة من حوادث الزمن ومجرياته، ومؤونة الاحتمال والعلاج، ومسايرة ركب القوافل ومعطياتها، وتباين في المفاهيم ورواسبها.

تُرى ما هي مشاعر الأم أمام صغارها (مشاعل، ناصر، نوف) الذين يتذكرون والدهم صباح مساء، ويتساءلون عنه وعن صحته وعن موعد عودته.. وعيونهم تفيض بالدمع، ونفوسهم يعصرها الألم والحزن، وأنا أبادلهم أحاسيس الفرقة والحرقة، وأُخفي عَبَرات وآهات تكاد تمزق الأحشاء.. ثم أذهب فراراً إلى غرفتي لأذرف دمعاً حاراً وأرسل زفرات تفرغ مخزوناً يتزايد نموه في الصدر حرارة ولهيباً،

وما تلك إلا مشاعر الخوف والأمل، ونظرات لواقع تيارات من الرؤى.. تتوارد على مخيلتي مُحْدِثة فزعاً وقلقاً.. أثقل كاهلي وهدَّ قواي.

إنها ثلاثة آلام موجعة: لوعة فراق، وحُزن خيَّم بصمته، وهمٌّ يخنق الأنفاس. فهل لنا من ترويض النفس على احتمال ما جرى، والرضى والقبول بما قضى، والشكر لله على ما ارتضى؟

يقول الشاعر:

اصبر قليلاً فبعد العسر تيسيرُ فما أصابك خَطَّته المقادير

إنها آمال ترتجى.. من ربٍ كريم رحيم واسع العطاء.. له الشكر والحمد والثناء، ومنه العفو المرتجى. أرجو الله أن يجمعني بهم جميعاً بوافر من الصحة والسعادة والأمن والأمان.. إنه سميع مجيب الدعاء، والحمد لله رب العالمين

١٤٢٦/ ٨/١ هـ

(٢) المجهول يعود بالذاكرة

صولات وجولات وصراع، ومفارقات، وذكريات تتوارد، وما هي إلا مسارات الأيام تتعاقب بتعاقب الشهور والأعوام، وما يمر بالمرء في أيام الطفولة والصبا والشباب.. من أحداث وأوجاع وأمراض ومشاكسات.. في غمرة من المراهقة والعبث والذهول، وعدم الإدراك لعواقب الأمور.

تعقبها مرحلة شعور الإنسان بالمسؤولية ودخوله معترك الحياة والإحساس بالرجولة وواجباتها، وما تقتضيه الحال والظروف.. من سعي لتحقيق معيشة أفضل ومكانة اجتماعية أرقى، ورعاية وتربية للأبناء.

وبعد طي عشرات من السنين الحافلة بسلسلة من الأحداث، وصراعات من أمواج مدٍّ وجزرٍ خلال كفاح طويل.. تجيء مرحلة الشيخوخة ببواعثها وأوجاعها وهمومها، وتراكمات من مخزون الأيام.. ثم تؤول الحال إلى نذر الهزال والعجز والهرم وتداعيات الأمراض، وهنا في هذه المحطة يطيب للإنسان أن يردد أبياتاً من الشعر متناغمة مع واقعه الذي وصل إليه.

يقول الشاعر بدر عمر:

هذا الزمان تزاحمتْ أيامُهُ ... فَدَنَتْ نهايتُهُ وغاب المطلعُ
كم ليلة جارت عليك شجونُها ... فشكت من الهم المرير الأضلعُ
نَادَيْتُ: أين العمر؟ أين شبابه؟ ... أين الطفولة والزمان الأروعُ

ويقول عبدالله بن المعتز:

نسير إلى الآجال في كل ساعة وأيامنا تُطوى وهن مراحلُ
ولم نر مثل الموت حقاً كأنه إذا ما تخطته الأمانيُّ باطلُ
فما أقبح التفريط في زمن الصِّبا فكيف به والشيب في الرأس نازلُ
ترحَّل عن الدنيا بزادٍ من التقى فعُمرُك أيامٌ تُعَدُّ قلائلُ

ومن هنا تنتاب هذا الإنسان بين الفينة والأخرى.. خواطر ونزعات، وأوهام وشجون، ومتاهات تتساءل حائرة.. تبحث عن جواب يروي ظمأً ويشفي سقماً، ولن تجد غير سراب الأمل، وتأملات المستقبل في ظلام المجهول.

وتعود الذاكرة إلى سنوات وعقود مضت، وذكريات خلت.. مستيقظةً على مسار طويل حافل بكثير من الوقفات المؤلمة وتَدنِّي ظروف المعيشة ومقوماتها التي كابدها وتعايش معها بحيطة وحذر.. تحوطه عناية الباري بكرمه ومَنِّه، وتراه قد شارف السبعين خريفاً يفتش عمَّا دوَّنه خلالها في دفاتره من نزق الشباب وغرة الحداثة.. ليحمد الله على سراها، ويشكره على عقباها.

ولا يقف في مناجاته لنفسه عند حد الشكر والحمد لله.. بل يتذكر ما مُرّ به من أشعار تنسجم وحاله فيردد مع الشاعر قوله:

ذهب الشباب فما له من رجعةٍ وأتى المشيبُ فأين منه المهربُ
دع عنك ما قد كان في زمن الصبا واذكر ذنوبكَ وابكها يا مُذْنِبُ

كما يردد قول الآخر:

إذا عاش الفتى ستين عاماً فنصف العمر تمحقه الليالي
ونصف النصف يذهب ليس يدري لغفلتِهِ يميناً عن شمالِ
وثلث النصف آمال وحرص وشغل بالمكاسب والعيالِ
وباقي العمر أسقام وشيبٌ وَهَمٌّ بارتحال وانتقال

تلك سِيرٌ تتعاقب من خلال أزمنة وعصور.. تختلف نوعاً وحجماً وموضوعاً حسب منظور متعاطيها، وما ذلك إلا قدر الإنسان، وحسب ما خُطّ له باللوح المحفوظ، ولذلك يكرر ترديد ما حفظ لعله يواسي نفسه بها لكنها في النهاية لا تجدي.

فها هو اليوم بعد إعادته لحسابات في ذكريات سلفت وأحداث طويت.. يقف مطلاً من خلال نافذة المستقبل.. مستقبل الأبناء والأحفاد.. متطلعاً لكل أمر مفيد، وصيانة لتاريخ مجيد، وإضافة بناء جديد.. من الأخلاق والطموح والسير الحميدة.

هي أحلام يرجوها، وآمال تعلقت على جدار ذاكرته، وتسلقت أغصان قلبه.. فلعل ما زرعه وتَبَنَّى رعايته كان في أرض خصبة.. يزدان رونقها، ويشتدّ عودها، ويرجو الله ألا تكون تربتها مغايرة لما تمناه، وألا تخيب آمال رسمها.

(بوادر الخير تطمئنه، وحذرُ المجهول يُخيفه، والحيرة تطارده، ولا مفر من أمر مكتوب).

عدد من الأبناء، وأعداد من الأحفاد، ورؤى تتباين، ورغبات تتعارض، أفرزها هذا العصر بمتغيراته ومستجداته، وصراعات في خِضَمِّ أمواج هائلة، ومنحدرات تنذر بمخاطر وسوء عاقبة.. لموروثات من الطهارة والنقاء والمحبة والإيثار.

والإنسان حائر على مفترق طرق شائكة كلها تنبئ بمخاطر وشواهد نذر.. هائم لا يدري ماذا يفعل، وكيف؟ وأي طريق وعر يسلك؟

اللهم يا رب الطف وارحم، واجمع الشمل وحقق الوئام يا ذا الجلال والإكرام.

١٤٢٦/ ٨/٣ هـ

(٣) شوارد الذهـن

الخواطر تترى، والمشاعر تطغى، والهموم تتتابع.. ليس تعلقاً بالبقاء أو حرصاً على الدنيا وحباً في زخرفها.. بقدر ما هي خلجات في النفس، ورؤى متناثرة هنا وهناك.. تتزاحم في المخيلة مفرزةً صراعات، وجداول من القنوات المتشابكة المتعاكسة الاتجاهات.. عبر خطوط واهية ضيقة المسالك.. مذهلة للعقول ومحيرة للتفكير.. إلى جانب ما يفاجأ به الإنسان بين الفينة والأخرى.. من مواقف سلبية، وتتبُّعٍ لسقطات، واختلاق لتهم وهفوات، وقذف وافتراءات.. الخ.

شوارد الذهن

عنوان يوحي بهموم آنية وذكريات بائسة لها امتدادها، وما من شاردةٍ ولا واردةٍ إلا لها مبعثها من المحفزات والتبعات المؤلمة والموجعة التي تعذر علاجها.

إن معايشة المرء في حياته اليومية لأطياف من البشر: مع زُملاء، ومعارف، وأصدقاء، وخصوم، ومتنافسين، وأصحاب أهواء، وذوي جنوح للاستعداء، وما يواجه من بعضهم من متناقضات جاء ت نتاج أمراض وأحقاد وأغراض ابتُليت بها نفوس فاتها الركب وأصبحت من الخوالف.. بدخولها في دوامة من الأرق والقلق.. لانشغالها بما حققه أقرانها، وصارت مشحونة بالعدوانية.. مُصَوِّبةً سلاحها ومستنهضةً

قواها.. لعلها تُصيب مقتلاً أو تحدث إعاقة.. مما يجعلك تشفق عليها.. لشقائها وشذوذ منطلقاتها، ووقوعك في حيرة من أمرها، وما تلك الشوارد إلا إفرازات وسقطات من سخط سفهاء القوم.. مع ميول النفس وهواها، وماذا يفعل المرء بأُناس وصفهم شاعر بقوله:

وشـــر أخٍ لـــك مـــن لـــم يـــزل يعاتب طـوراً وطـــوراً يـــــذمْ
يُريك النصيحة عند اللقـــاء ويبريك في السر بـرْيَ القلـــمْ

كما أن (الحمداني) أجاد في نعت هذا النوع من البشر، وفي بيان موقف كرام الناس منه!!

ويـجـيء، طـوراً، ضُـرَّه في نفعه جـهـلاً وطـوراً، نفعه في ضُـــرِّه
فصبرت لم أقطع حبـال وداده وسترت منه ما استطعت ستره

ويضيق المقام فيحاول المرء أن يستعين بمن يثق به بعدالله فيركن إلى صديق يبثّه همومه ويناجيه: ماذا ترى يا صاحبي، أشر عليّ؟ ماذا لديك من مقترحات ورؤى تُعين وتُرشد إلى طريق سليم من الأشواك ولدغات العقارب وشواذ البشر. أظنك أنت الآخر لديك من شوارد الذهن والتفكير ومقارعة الخصوم.. ما لديَّ ولدى آخرين.

هي الدنيا كما ترى بمراحلها وتذبذب موجاتها.. شاملة بأفراحها وأتراحها، وما مرحلة العمر المتقدمة للإنسان إلا مدعاة لتزايد الهموم والانشغال بأمور الحياة والأهل، وكلما تقدمت به السن زادت رغبته في تحقيق مطامحه، وتضاعفت مخاوف يخشى عواقبها، وما تلك إلاَّ عوارض زمن، وتبعات من مجريات التعامل والمسايرة وغض الطرف والتأكد من تبدل الأحوال بمتغيرات غير مرغوبة.

قال الرندي:

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يُغَرُّ بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهْدُتها دولٌ من سَّرهُ زمن ساءته أزمانُ

وقال آخر:

وما يدريك أنَّ غداً سيأتي بما لا تستطيع له غلابا

عفواً.. إنها خاطرة ليل وزائرة مساء.. جاءت تمشي الهوينى.. تداني خطوها.. وتجرّ رداءها تبحث عن مجهول في قاع الأوهام.

ذلك المجهول هو مبتغاها ومنتهى أحلامها وآمالها، وماذا عساي أن أفعل لو كنتُ مرشداً ودالاً على أقصر الطرق ومختزلاً لها المسافة.. كي تنعم زائرتي ببريق أمل ونشوة سعادة بعدما أضناها عناء السفر وأجهدها طول الطريق للبحث عن ضالتها، وهي أحوج ما تكون للخلود وإلى الراحة.. يغشاها النعاس لِيُغْرِقَها بأحلام من سراب الخيال، وحصاد سابق ليومها.

فهل لها أن تستريح.. لتشقى بيوم غدها الجديد.. لتواصل المسير بخطوات مثقلة وجسم هزيل.. عبر جداول ومسارات تخترق مجاهل الفيافي وبريق السراب نحو آفاق بعيدة المنال.

وما هذا الإقدام.. إلا دليل طموح وإصرار على تجاوز العقبات وتسلق المرتقى.. شأنها في ذلك شأن كل متطلع لغد جميل.. بذوره تشع نقاء وتُقى، وحصاده بإذن الله فوز وعطا وعفو ورضا.

وما أحلى قول شوقي:

وما استعصى على قوم منال إذا الإقدام كان لهم ركابا

وهكذا تمر الأيام والسنون والمرء شاغل ومشغول، وما على هذه الأرض مستريح. نسأل الله التوفيق وحسن الختام.. إنه ولي ذلك والقادر عليه.

٦/ ٨/ ١٤٢٦ هـ

(٤) نفوس أضناها الشقاء

طارق باب، وهاتف ليل، وسؤال يبحث عن جواب، وتطلعات تكتنفها آمال وآلام، وذاكرة تتسع وتضيق لهموم وأشجان، ومسار طويل، ومخزون من التجارب والمواقف والعناء والهموم، وكيد ومكيدة، وطوفان من نواقص القول وعجرفة اللسان.. يُقابلها حلم وصبر وإعداد للنفس وتوطئة أكناف، ومجاملات ومداراة، ومراعاة خواطر.

يقول الشاعر:

فإن كان حلم القادرين مذلةٌ فإني ذليل غير أني مُكَرَّمُ

الحكاية أنّ رجلاً نشأ في كنف والده الشيخ الوقور معلم الكتاب وكاتب العقود وإمام الجماعة.. أضفى عليه هذا الوالد شيئاً من العناية والحرص راجياً أن يسلك مسلكه.. إلا أن متغيرات العصر جعلت مطامح الشاب تتسع فاشتغل بالتجارة ونال منها قسطاً وافراً إلى جانب توسع علاقاته التي جعلته مميزاً في جماعته وبين أقرانه.. فكثر حساده ونقاده، وصار له معارضون رغم ما كان يبذله لهم من جهد معنوي وعطاء مادي، وأخيراً ألجأته حِدّة غلوهم في العداء إلى أن رحل عن بلدته إلى بلدة أُخرى.. سعياً للحفاظ على قيم موروثة وعلاقات طيبة.. فاتسعت تجارته وارتفع شأنه وتضاعفت مساعيه الحميدة في مختلف النشاطات الخيرية والتطوعية.. فما كان من بُغاة

الشر إلا مطاردته.. فتألم لكنه لم يتبرم وأخذ يتساءل عن سر الهجوم ويُوطن نفسه ملتمساً لهم العذر وداعياً لهم بالعفو والغفران.. مستأنساً بقول الشاعر:

لا تيأسن لكون قومك أصبحوا فئتين منهم مخلص ومعادي
واصبر فمرجعهم إليك وإنما مجرى الشعاب إلى مسيل الوادي

شكوى مُرّة تزداد في كثير من المجتمعات.. تتباين فصولها من معاناة إلى أُخرى، وكما يقول المثل: (كل ذي نعمةٍ محسود)، وهذا التباين في المعاناة يكاد يكون شاملاً لعيِّنات من كل الطوائف والفِرَق، وما هذه إلا ظواهر طبيعية ومُسَلَّمات، وأقدار سُجِّلت في اللوح المحفوظ.

إنها نفوس أضناها الشقاء بسعادة الآخرين، ترسل سهاماً طائشة خطيرة تصول وتجول عبثاً لزرع نباتات الفرقة والخلافات والشقاق.

تطلعاته تقوده إلى تشييد بناء، وسعي إلى العلا.. من خلال خطط رسمها في مخيلته، وصروح شيدها بعقله.. راغباً هو وفضلاء قومه في وضعها على أرض الواقع.. أمام عارض ومعارض، وراغب في هدمٍ وتقويضٍ، ونقدٍ وتحريض.. غير عابئ بقيم موروثة ومساعي خير مبذولة.

يقول الشاعر عثمان الزناتي:

أرِقْتُ وأصحابي خليونُ نـوَّمُ وما أنا ذو ثأرٍ ولا أنا مُغْرَمُ
وما أنا ممن يغلب الجهلُ حِلْمَهُ وينزو على الأعراض أو يتهجَّمُ
ولم أر في الدنيا شقيّاً بأهلِهِ كبانٍ لهم مجداً إذا تمَّ هدَّموا

تراه ونظراءه من عقلاء قومه يقابلون هذا وذاك بطول نَفَس وصبر واحتمال.. مبعدين اليأس، وراغبين في مواصلة السير عبر مسالك يسعون لتمهيدها، ومعابر يبحثون عن فتحاتها.. يواصلون المسير برتابة لجمع شتات رؤى متناثرة.. لعلهم يصلون إلى غاية ويحققون طموحاً، وقد منّ الله عليهم فأنالهم بغيةً أو بعض بغية.

لكن الطريق طويل والأمد بعيد، وواقع الحال يقتضي البحث عن أكثر من رديف.. من القادرين على مواصلة السير وتجاوز العقبات، وذلك مما يؤمل وجوده من الجيل الصاعد، وما انشغال الجميع بمستجدات البناء الذاتي، وظروف المعيشة ومتطلبات الأهل والأبناء.. إلا نذير بمخاطر التوقف، والفرقة والتفكك، وهذا ما يؤرق كل متطلع لغد جميل لأجيال قادمة تنتظر المزيد من العطاء والتشييد والبناء.. من أبناء الوطن الساعين للخير، والمتطوعين لبذل الجهد والوقت والمال.

ولنستمع إلى قول الشاعر وهو يصنف الرجل الإيجابي الدافع للملمات الباذل للمعروف الذي لا يبخل بجاه، كما يصنف الآخر السلبي.

إذا كنت لا تُرْجى لدفع ملمة ... ولم يكُ في المعروف عندك مَطْمَعُ
ولا أنت ممن يستعان بجاهه ... ولا أنت يوم الحشر ممن يُشفَّعُ
فعيشك في الدنيا وموتك واحدٌ ... وَعُودُ خِلالٍ من وِصالِكَ أنفعُ

نعم ما هي القيمة المعنوية للإنسان.. الذي لا يُرْجَى منه دفع ملمة، ولا يُستعان بجاهه.. إلا أن يكون معول هدم وتقويض، وساع لنقدٍ وتضليل، ومصدر نقص وإزعاج. نسأل الله الحماية والهداية.

إن الأمل في الله عز وجل ثم في أبناء وبنات الوطن من الأجيال القادمة التي ترنوا بتفاؤل لغد مشرق منير، وإلى الرغبة في مواصلة المسير بعزمٍ وحزمٍ إن شاء الله.

أسأل الله تعالى أن يأخذ بيد الجميع وأن يحقق لهم المزيد من التعاون. إنه ولي ذلك، وهو المستعان.

١٤٢٦/ ٨/١٢ هـ

(٥) هيوستن

يقول الشاعر:

والنفس ترجو أموراً ليس تدركها والموت دون الذي ترجو سيأتيها

أمور تُرجى وخطط تُرسم، ثم موتٌ آت ولا شك، وبينهما أمد قريب، وتلك حال البشر ما بين مد وجزر وما فيهما من قسوة الحياة وكدرها، وصفوها ومَلَذَّات مشاربها، وهكذا الدنيا نزول وارتحال.

فما الغربة والفراق.. إلا شدة وامتحان، واختبار لآلف ومألوف، وعاشق ومعشوق، وما هي إلا تربة وتربية، وأمور ترسخت في الأعماق.. مفرزة الكثير من الخواطر.. فخاطرة اليوم غير خاطرة الأمس.. جاءت من بلد بعيد بلون جديد.. تسحب ساقيها مثقلةٌ هزلى.. تتأرجح بخطاها، وتنظر بأبعاد رؤاها.. تتساءل بلسان العارف، ولهجة الخائف.. ماذا عن الوجود بهذا المكان، وتحديداً في هذا الزمان؟ أهي رحلة استشفاء.. أم سفرةُ استرخاء؟

سؤال يبحث عن جواب.. لِمُغْرَمة شغفها حب متابعة أخبار الآخرين من ذوي المطالب والحاجات.. ممن تعرضوا لنوائب الدهر.. من أمراض وعلل.. لعلها تسهم برأي ومشورة، أو مشاركة بمواساة أو تسلية.. هذا شأنها مع الجميع.

قلت بماذا ترين أن أُجيب، وكيف تكون وقد صارت حتمية الوقوع.. يفرضها واقع حال المرض والبحث عن مصادر علاجه، وما تمليه ظروف الحياة وأشجانها، وتقتضيه مسبباتها من عناء البعد والغربة.. عن الأهل والولد والأحبة.. في وقت كانت حاجة الأبناء للوجود بينهم ماسَّة لرعاية شؤونهم وتفقد أحوالهم في مستهل عام دراسي جديد، وتبعات من مقتضيات العصر ومتطلباته.. لقد كان ما كان بقدرة المولى المتكفّل بعباده، وبرضاء وقبول، وبما يبشر بالخير والطمأنينة.

نعم إنها رحلة استرخاء واستشفاء، وترويح عن النفس وترويض لها، ومهما اعتراها من آلام بُعد وفراق، وشدة ارتحال.. فقد زينتها مرافقة ابن بار، وإخوة تعرفنا عليهم من أفاضل الرجال، ومدينة حباها الله جمال الطبيعة ومظاهر الحياة، ومستجدات في الأنظمة والتعاملات، ووسائل الترفيه والراحة النفسية.. إلاّ أنه مهما كان من متع ومغريات.. فإن للوطن نكهة، وله شوق وتوق، وتعلق وارث بموروث.

ولله درك يا شوقي فأنت الذي قلت:

وطني لو شُغلتُ بالخلْدِ عنه نازعتني إليه في الخُلْد نفسي

وما هي إلاَّ سويعات وأيام سريعة الانتهاء، ونعود عوداً حميداً بإذن الله إلى أرض الوطن.. لتسعد الحال وتقر الأعين بمشاهدة الأنجال، ورؤية محبين وأصدقاء، وليبقى ذكرها حديثاً يؤنس وخبراً يروى، وتاريخاً للأحفاد يُدَّون.

إنها خاطرة لها تجربتها.. تسعى جاهدةً لتواسي وتخفف من معاناة، وتُسهم برأي ومشورة، وتلك حال عشاق العمل الإنساني التطوعي.

شاكراً وقائلاً لها.. أحمد الله على جزيل نعمه التي لا تحصى، وله الشكر والامتنان.. إنه غفور جواد كريم.

١٤٢٦/ ٨/١٤ هـ

(٦) حيرة وإبحار

وإن أوجعتني من أعاديَّ شيمة لقيت من الأحباب أدهى وأوجعا

شمس مشرقة، وحرارة تلفح الوجوه، وعرق يلجم الأفواه، وسعي حثيث، وعراك ومساجلات، وأخذ وعطاء، وتواصل وتراحم، وتنافر وتدابر، ومسار يتجدد، وهكذا تسير الأيام بغدوٍ ورواح، والكل غارق في أوهام وأحلام، ومتغيرات من المفاجآت والأحداث.

تتجاذب الإنسان من حين إلى آخر جملة من المشاعر والأفكار والرؤى، واستقراء لمستجدات المستقبل، ومفاجآت من المتغيرات بسلبياتها وإيجابياتها، ودوران في حلقة مفرغة.. تجعل المتتبع للأحداث على مفترق طرق وحيرةٍ من أمره.. فتتكالب عليه تلك الأفكار والرؤى.. ليبحر في أمواج تتقاذفه يمنة ويسرة، وهو غارق في أحلام وسراب وتأملات مليئة بالمخاوف والمخاطر، وبين حيرة وإبحار، وطوفان من الأفكار.. ليتخذ قراراً عسى أن يكون مناسباً يرسي سفينته إلى بر الأمان.. فهل إلى خروج من سبيل؟

- أبناء ذوو متطلبات جائرة شائكة، وعوامل تربية، ومتابعة دراسة، ومراقبة مسارات، وإحاطة منزل، وتطلعات لمستقبل واعد.. يصحبها خوف ووجل، وصبر وجلد.

- وأقارب لهم رؤى متباينة، وأفكار متباعدة، ومفارقات في التوجه، وميول النفس ورغباتها، ومداراة ومجاملات ومسايرة، وأحلام وتطلعات.
- وجماعات ومجتمع.. لهم توجهات قاسية موجعة، وتيارات من الرؤى والنوازع، وشوارد هنا وهناك.. لا يقر لها قرار، ولا يُعرف لها مرام، وواقع حال ومسلمات.. صيَّرت المرء في كَبَدٍ ونكد، وسعي لسبر أغوار يكتنفها غموض ونفور.

يقول شاعر:

صبرنا لسخطك، صبر الكرام فهذا رضاك، فهل من نوال؟
وذقنا مرارة كأس الصدود فأين حلاوة كأس الوصال؟

ويقول حكيم: إذا أراد الله بعبدٍ خيراً.. جعله معترفاً بذنبه.. ممسكاً عن ذنوب غيره.. جواداً بما عنده.. زاهداً فيما عند غيره.. محتملاً أذى سواه، وإذا أراد به شراً عكس ذلك عليه.

نماذج كثيرة ممن تحروا رشداً، ومنهم من تراه مجبراً على تسخير قدراته وقواه.. لتحقيق شيء من الرغبات والطموحات.. متناسياً ما كان، ومتغافلاً عما يجري.. سابحاً في فضاء الكون يُصارع تيارات من الرياح والعواصف، ولسان حاله يردد عبارات الأمل والتفاؤل، وما هي إلاَّ سير لشريحة من البشر.. صار ذلك قدرهم في هذه الحياة، وكلٌّ بحسب قدراته والظروف المحيطة به، وبما يواجه من نجاح ومعوقات.. لكنَّه رافضٌ للاستسلام لأهواء الناس، ومستسلمٌ لقضاء الله وحُكْمه.. سائلاً المولى أن يأخذ بيده ويرشده للتزود من الحسنى، وأن يَدُلَّه على فعل الخير قولاً وعملاً.

ما أحسن قول القائل:

تزود من الحسنى بـــما أنت قادر عليه ولا تقبل سوى العقل مرشدا
وأحسن إلى من قد أســاء تكرماً وإن زاد بالإحسان منك تمردا
وحِبَّ الذي عاداك إن رمــت قتله فإني رأيت الفضل أقتل للعدا

يدعو هذا الشاعر إلى فضيلة عظيمة وهي مقابلة الإساءة بالإحسان مستمداً هذا المعنى الكريم من قول الله عز وجل:

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[٢].

أود أن أختم هذه الخاطرة بأقوال جميلة قيمة:

ما كان في ذمتك من قرض فاقضه، وما كان لك من خصم على وجه الأرض فارضه.

أفضل الأعمال ما أكرهت نفسك عليه- فلعل من معتبر وآخذٍ بأسباب الخير والتحلي بالصبر والحكمة والصفح والعفو.

والله الهادي إلى سواء السبيل.

(٢) سورة فصلت الآية (٣٤).

١٤٢٦/١٠/٨ هـ

(٧) هـوايـة وهـوى

الهواية في اللغة عمل محبوب يُشغف به المرء ويقضي أوقات فراغه في مزاولته دون أن يحترفه، وأقصد بها هنا هواية خير يزاولها الإنسان ويحترفها.. أما الهوى فهو الميل ويكون في الخير والشر، ويكثر في ميل النفس إلى الشهوة والشر، وفي التنزيل ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ [٣] وبعد هذا البيان اللغوي أصبح العنوان.. يجمع بين الجميل المألوف، والسلوك الشاطح المنبوذ، وبين ميول الخير ونزاعات الشر، وما هي إلا صفات تفرزها رغبات وميول، وفي الغالب هي طباع وسلوكيات تنشأ مع المرء.. يألفها وتسيطر على مشاعره.

جاء في محكم التنزيل:

﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى(٤١) ﴾ [٤].

الخيرون يُرَوِّضون النفس على الحلم والأناة، وفعل الخير، والتواضع والتسامح والتماس العذر للآخرين، وما أجمل أن تُشَرِّه ولا تَشْرَه، وتُعطي ولا تنتظر المكافأة، وتبذل الجاه، وتُحسن التعامل، وتكسب الصداقات والمعارف.

(٣) سورة الفرقان الآية (٤٣).

(٤) سورة النازعات الآيات (٣٧-٤١).

وصدق الحطيئة حيث قال:

من يفعل الخير لا يَعْدَمْ جوازِيَهُ لا يذهبُ العُرْفُ بين الله والناس

والشاعر الشعبي يحدد هوايته بقوله:

ما همّني يا سمير زين الغنادير او لا ولَّعنِّي جاليات الثماني
أنا هواي مرافقي للمناعير او كسب الجماله بين قاصي وداني

ما أجمل هذه الهواية وما أرقاها، إنها جامعة للمكارم ورانية إلى أشرف الأمور، وقد تضمنت الحسنيين: (ذكر يبقى، وخير تلقى).. إنها صور ناصعة، وحكم نيِّرة، ومواقف نبيلة يحتذى بها.

أمَّا أصحاب الشر فهم من أصابهم الشقاء من بروز الآخرين، وصار النفور مسلكهم، والغيرة من مفرزات شرورهم، والسعي جهدهم لإيذاء من حولهم.. مفتعلين المبررات والأعذار.. لنفث سمومهم وإشعال نيران الفتن والفرقة.. ليسعدوا من خلال شقاء الآخرين.. أعاذنا الله وعافانا.

إن البوْن بين الصنفين شاسع، والانطباع عنهما متباين.. فإنسان الخير دائم الرضا.. كثير الشكر والثناء.. قرير العين والهناء.. تحوطه الطمأنينة والابتهاج.

أما إنسان الشر: فإنه شَقِيٌّ في نفسه.. دائُم التَشَكِّي.. جاحدٌ لنعم الله.. يظل مغرماً بمتابعة أخطاء الآخرين.. ملقياً اللوم والعتب عليهم.. مزكياً لنفسه.. مدعياً المُثل.. سارحاً في غوغائيته.. سائراً في جحوده.

يقول الشاعر:

القوم هَمُّهُمُ الرُقي، وهَمُّنا في فُرقة وقطيعة ونزاعِ
يا خاطب الْعَلْيَاءِ إن صداقها صَعْبُ المَنَالِ على قصير الباعِ

وما أحرانا أن نتعظ بقول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما:

(إن للحسنة نوراً في القلب، وزينة في الوجه، وقوة في البدن، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الخَلْق.

وإن للسيئة ظلمة في القلب، وشيناً في الوجه، ووهناً في البدن، ونقصاً في الرزق، وبغضاً في قلوب الخلق).

وهذا الزلامي يواسي فاعل الخير ويحثه على الارتفاع فيقول:

يسبك اللي عاجز عن دروبك لا فاعل فعلك ولا هو مجنبك

ومواسياً ثان ويقول:

يمناه عن فعل الخير مقصورة لا سر ربعه ولا صد المعادين

هذه خاطرة مسافر ذهبت به أفكاره تنظيراً بين رقي وهبوط.. فأراد أن يقارن بين صنفين من البشر.. متضادين في نهجهما ومسار حياتهما.. هذا له رأي، ولك أنت رأي، وللآخرين آراء.

إنها سلوكيات متباينة لأطياف من البشر منها: طوائف لها مسالك الأسوياء وتطلعات العقلاء، وطوائف أخرى مغمورة.. معششة داخل المجتمعات.. مُشَكِّلة أَمراضاً اجتماعية وسلوكا مغايراً.. يقتضي الأمر علاجها والتخلص من أوبائها.. فهل من سعي في الخير وعودة لتعاليم ديننا الإسلامي الحنيف وسماحة شريعتنا، ودعوة للأخذ بأسباب الفلاح والنجاح؟

كلنا أمل ورجاء في الله وتوفيقه.. إنه سميع مجيب.

١٤٢٦/١٠/٢٥ هـ

(٨) عناء الطفولة، ومتاعب الشيخوخة

شيخ كبير وصفَ أسلافه: بالكثير من المآثر والإطراء وحال من اليسر والفضل ومقام كريم.. إلا أن تبدلات الزمن يُسَيِّرها رب العباد والبلاد فتبدو التحولات ويصير الشتات وتتوالى الأحداث.. فكان للطفل من اليتم الأبوي وفقد الأعمام والبعد عن حضانة الأم، والفراق، وصنوف من العنت والجفاء والمعاناة.. ألقت بظلالها على مسار طفولته وفصولها.. عاش بعيداً عن الأهل والبلد.. في هَجْرة باديةٍ حديثة الاستيطان.. قاسى من صروف الدهر وجفافه ومعوقاته، وحالٍ من نظرة الإقلال والتهميش المعنوي.

إن شعوره المتنامي بوضعه وفقدانه حنان الأبوة ومتع الطفولة، وما يراه من ارتفاع معنوي لأقرانه ونظرائه.. كل ذلك زاد من حرقة الحرمان والانكسار المعنوي الذي كان يتجدد بمرور الأيام والليالي.. مع حكايات وخواطر تحكي واقع حال لمسار مشبع بالعتمة وتدني الرؤى.

نهار بقسوته، وليل مدلهم بوحشته وظلمته.. يمزقهما وميض برق وصوت رعد، ووحدة مخيفة، وأحداث تروى وقصص ذعر عن (ملاطفة الجن والعفاريت، وعن الوحوش، والذئاب، والعقارب والهوام والقوارض وغيرها من سوء تصرفات شواذ البشر ...الخ) هي حديث السهرة.. كانت ترويها العجائز.. يتبعها أحلام وأوهام وتخيلات.. تقضُّ المضجع وتضاعف الأرق والقلق.

كل ليلة كانت كأُختها مظلمة.. كان يقضيها منفرداً داخل غرفة متهالكة من بناء الطين.. مفترشاً بساطاً من الصوف على أرض ترابية صلبة.. هي عشه ومكان راحته وخلوته.. تمضي على هذا الفراش أيام وشهور.. دون أن يجد يداً حانية تنظفه.. أو تُعرِّضه للشمس ليجف من بول اعتاد ذلك الطفل الصغير إفراغه من مثانته ليلاً.. مُهْمَلاً من العناية الصحية.. مصارعاً اليتم وفراق الأم.. لينهض كل صباح على عادته بثوبه الخَلِقْ الذي لم يفارق جسده منذ شهور.. مسرعاً ممتطياً قدميه الحافيتين إلى مدرسة الكتَّاب.. حاملا لوحاً من الخشب.. هو حقيبته وجملة كتبه ودفاتره.. لينتظم على أرض ترابية ضمن عدد من الطلبة الذين يُشَكِّلون نصف دائرة أمام دكان مطوع الكتَّاب.. الذي يجمع بين مهمة التدريس، ومزاولة البيع والشراء في متجره.. حتى قرب زوال الشمس.. ليأخذ الجميع فسحة طويلة.. حيث يذهبون إلى منازلهم لتناول شيء من الغذاء، وليتناول هو شيئاً من التمر وبقية من جراد أو أقط، ومن ثم الرجوع ظهراً للدراسة حتى أذان العصر.. ليأتي دور حضوره للسوق التجاري المتواضع حتى قرب الغروب.. فالعودة للمنزل لتناول طعام العشاء.. ثم المشاركة في إحضار الغنم العائدة من المرعى (عنز وشاة) يزيد العدد وينقص حسب فصول السنة.

وبعد صلاة العشاء يحين وقت الخلود للراحة والنوم مع مسار تلك الأحلام التي اعتادها على ذلك الفراش الذي كان مقر حضانته ومكان استرخائه (لقد كانت رعايته من قِبَلِ ولي أمره– أخيه لأمه– رعاية أبوية حانية.. أسهمت في توجيهه وتربيته.. إلا أن الطفولة بحاجة لحنان وعطف أُمٍ، أو من يقوم مقامها).

لقد كان له في هذا المسار مشوار طويل مرَّ بمختلف الظروف خلال سنوات الطفولة والصبا.. من يُتْم، وبُعْد، وفقد لوعي ثقافي، وغياب عناية صحية، وتعرّض لعدد من الأمراض المزمنة.. منها:

مرض الجدري الذي عمّ كافة الجسم بالقروح والإفرازات وملازمة الفراش، والعلاجات البدائية (الحمية، والكي، وأنواع من أدوية المخلطات العشبية، وما يُسَمّى بالحماية من مضاعفات المرض «الذوائق» وهي نماذج من الأطعمة السائدة آنذاك.. تُعطى في بداية المرض كي لا يستنكرها الجسم فيما لو تناول المريض شيئاً منها خلال مدة المرض) إلى جانب ما يستجد من نصائح النسوة واستطباباتهن.. هذا المرض المروّع الذي حصد الكثير من الأرواح، وسلب الكثيرين حاسة البصر، وخلّف آثاراً في الوجه وسائر البدن.

تلا ذلك مرض الحصبة الذي يأتي في المرحلة الثانية لمرض الجدري من حيث الخطورة ومراحل العلاج.. ذلك العلاج الذي لم يبن على تحاليل ومختبرات ووصفات طبية.

مجرد وصفات واجتهادات تطرح على عواهنها من عامة الناس.. لا تخلو عند التطبيق من البكتريا والملوثات المضاعفة للمرض.

ثم التعرض لموجة من البرد الشديد التي هي في حال من عدم وجود احتياطات وقائية وملابس واقية.. الأمر الذي أدى إلى مرضه وملازمته الفراش عدداً من الشهور.. جاء مع ذلك استئناف علاجات الكي والحمية، وما يطرح على والدته رحمها الله من ألسنة العامة من مقترحات علاجية واستشهادات وتجارب عن فلان وعلان.. الخ.. تلك كانت حال المجتمع في الستينيات من القرن الرابع عشر الهجري وما قبله.

إن شعور الطفل بوحدته، وإحساسه بغربته.. جعلاه يميل إلى الانطواء على نفسه بين أقرانه، وقَلَّلَ ذلك من لهوه ومشاركته الأقران في اللعب والترويح الطفولي عن النفس.. الأمر الذي ولَّدَ لديه ميولاً لمجالسة المسنين، ولعل ذلك أكسبه شيئاً من المعارف وزاد من عزوفه عن إشباع الرغبات النفسية من أنس واستمتاع.. إلى النظر في واقع الحال وما يُخبئه الدهر، وكيف له مجاراة زمن طويل دون مناصرة ومساندة لخوض غمار حياة توحي له بشظف وخوف ووجل.

وتمر الأيام وتمضي الشهور على هذا المنوال.. يتخللها فترات فراغ يؤدي فيها بعض المهمات التي تتناسب مع قدراته.

حتى إذا شبَّ عن الطوق وبَلغَ الخامسة عشرة.. غادر هذا العش مسافراً وساعياً لطلب الرزق والمعيشة.. في عصر يُعاني من ندرة السيارات وقسوة المواصلات، وانعدام وسائل الاتصالات، وفقدان مقومات الحياة، مستقبلاً مرارة الغربة، والبعد والشدة، والكد والكفاح في الغدو والرواح.. ليبدأ مرحلة جديدة من خلال مزاولة عمل شاق وحرفة من أعمال البناء، ودوام يُحدده طلوع الشمس وينتهي بغروبها، ومشواراً طويلاً مليئاً بالمتاعب والمخاوف والمفاجآت، ومروراً بتجربة وخبرة وتفتق للذهن، وسعياً لتطوير الذات من خلال دراسة ليلية، ودورات تدريبية، وتدرجات في أنواع العمل..يقابل ذلك صراعات الحياة بين كيد ومكيدة وتنافس وتنافر وخلافات.. هي شأنٌ يواجهه كل متطلع لغدٍ واعد، وساعٍ لمكانة اجتماعية بين قومه وعشيرته.. من خلال طريق اختطه لنفسه، وكان يُوَطِّن نفسه على قبول مرارة الذَمّ وسذاجة النقد، وسقط القول والأذى، ويصفح عن أخطاء وتطاول الآخرين.

ويتغنى بقول الشاعر:

يا من أتانا، بظهر الغيب، قولُهم لو شِئتُ غاظتْكُمُ منا الأقاويـلُ
لكنْ أرى أن في الأقـوال منقصة ما لم يكن لجميل القول تفعيـلُ

ومتمثلاً بقول الشاعر بشّار بن بُرْد:

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت، وأي الناس تصفو مشاربه

وتقول الحكمة: من أراد السلامة فليوطن نفسه على الصعاب.

إن سبل الحياة لم تكن ممهدة لهذا الفتى.. بل كانت ممتلئة بالمعوقات والتحديات التي لا حصر لها من سوانح: ثقافية، وعرقية، ودينية، ونعرات قبلية، وتباين في طرق العيش وإدارة الحياة، ولعل الإرادة المفعمة بالإيمان هي عماد الرحلة.

لقد سارت أموره برتابة من حسن إلى أحسن.. باذلاً قصارى جهده لمسايرة عوارض الزمن وتقلباته من أحداث وحوادث ومواجهات وإفرازات الحياة ومتغيراتها، والبعد عن مواطن الزلل وشطحات من ميول الأنفس الأمّارة بالسوء.. مهتماً بمسار حياته مقللاً من سعيه وراء متعة زائلة، وأُنس وملذّات.. لإيمانه بأن هناك التزامات وواجبات هي الأولى بالعناية والمتابعة (ذاتية وعائلية وأسرية واجتماعية).. صارعها لعقود من الزمن.

وتمضي السنون والأعوام والحياة بين مدٍّ وجزر..

ثم تجيء مواجهة أعراض عشر السبعين وتبعاتها وما أفرزه مرض الحصر وإجراء عملية لإزالة البروستات.. يليها خُرَّاج خارجي يُلزم

الفراش بعد إجراء عملية ناجحة ولله الحمد.. يعقب ذلك مرض غدد اللمفومة وإجراء الفحوصات بعدد من المستشفيات، وأخيراً المعالجة بالمستشفى التخصصي، ومرحلة تناول العلاج التي أوجدت شيئاً من الضجر والمعاناة، والاستسلام لقضاء الله، ومستأنفاً العلاج بعد رحلة استشارية خارج الوطن.. وما ذلك إلا شأن يمر به الكثير من خلق الله وقد تحقق له الشفاء ولله الحمد.. ويرجو الله أن يُحسن خاتمته.

وما أجمل قول أبي العتاهية:

إنا لنفرح بالأيام نقطعها وكل يوم مضى يُدني من الأجلِ
فاعمل لنفسك قبل الموت مجتهداً وغاية الربح والخسران في العملِ

هكذا هي الحياة وما يصاحب مساراتها من أعراض ونتوءات:

قارئي الكريم: هذه هي الحياة.. فيها العاقل ذو الرأي السديد، فاعل الخير والمعروف، جالب السرور للناس كل الناس، وفيها على العكس الجاهل ذو الرأي القاصر والشاذ، وهذا الصنف من الناس شوك مبعثر في الطرقات لتعطيل المسيرة وتعكير الأمزجة وجلب الشقاء للآخرين.

بالإيمان والعمل يصل المرء ويحقق مبتغاه وكل إنسان سيردد في النهاية مع الشاعر قوله:

مشيناها خُطى كتبت علينا ومن كُتبت عليه خُطى مشاها

وتلك أحداث وخُطى كُتبت وَسِيَر تتباين فصولها بين قوم وقوم، وإنسان وآخر، وهذه سنة الله في خلقه، ولَعَلَّهُ مع هذا المسار حقق شيئاً مما كان يتطلع إليه.. حامداً وشاكراً الله على كرمه وجزيل عطائه.

١٤٢٦/١٠/٢٧هـ

(٩) سيرة ومسيرة

المجدُ بالرقَّـــةِ مجمـــوع والفضـل مرئي ومسـمـــوع

المكارم صفة شريفة شاملة لكرم الأخلاق والبشاشة وحسن التعامل، والبذل والعطاء والتسامح والتنازل، والبعد عن مواطن الزلل وسَقْط الأمور.

والدنيا معبر بين طرفين -خروج من رحم، وولوج في لحد- والحياة والموت رحلة كل كائن حي على هذه الأرض، وقد مَيَّزَ الله بني البشر وخصهم بعقول وعلوم ورسالات.. فمنهم شقي مُتَّبع لهواه، ومنهم سعيد مصلح في دنياه، وعامل لآخرته، والفائز من جمع بين الفضيلتين في حياته وبعد الممات.. قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[٥].

معلوم أن العمل النبيل كفاح ورؤى، وجهد وبناء، ومشورة ونصيحة تهدى، وسلوك سوي يُقتدى، وما ذلك إلا نهج تربوي وتوجيه رباني.. يعشقهما ذوو الأرواح الطيبة وأصحاب القلوب الرحيمة، وهذا مسلك يهبه الله عز وجل لمن ارتضى من خلقه.. ممن منحهم الله كرم الطبع والمروءة، والصبر والفداء، وتحمل الأذى.. ليصبح ما يلاقونه من واقع مألوف سبيلاً إلى احتمالٍ للقذائف من خلف الصفوف، وتلك قيمة التميز، ولكل نجاح ثمن.

(٥) سورة آل عمران الآية (١٣٤).

زارني ذات مساء رجل قادم من الشمال نأت به الغربة خارج الوطن ردحاً من الزمن.. كانت لي معه خلالها علاقة معرفة وتواصل، وأخذ يشكو ويتبرم من معاناة ذوي قربى ومعارف ورفقة، ويسرد مواقف إنسانية له في مختلف الأوجه مادية ومعنوية.. إلا أنني لم أكن على بينة من أمره.. غير أن معلوماتي عنه تؤكد حسن سيرته وتواضعه وحكمته وصبره.

أخذت أستمع إليه.. مشجعاً له ليفضي ما في مخزونه من آلام موجعة، ولم يكن لي من مشاطرة إلا قول الشاعر:

أوليته مني السكوت، وربما كان السكوت عن الجوابِ جوابا

وما شكواه.. إلا شأن مألوف لكثير من البشر، وابتلاء وامتحان لذوي المكارم الإنسانية.. ممن تهون عليهم في المعالي نفوسهم.

شاءت إرادة الله أن ينتقل إلى العاصمة مدينة الرياض في ظل ظروف صعبة تحملها بصبر وجَلد، وصار له فيها تحصيل علمي وكفاح عملي.. حتى احتل منصباً مرموقاً.. ثم عين ممثلاً لبلاده خارج الوطن، وقد كثر خطاب وده، وتوسعة علاقاته وشاع ذكره، وأصبح له استمتاع بمروياته التاريخية، وهكذا هي السِّير لنخبة من الفضلاء ممن رَوَّضوا النفس وتقبلوا الأخطاء، وتلمسوا العذر لمناوئيهم في أسباب السخط والنفور.

وقد يتساءل متسائل: لماذا هذا النفور، وكيف يكون الصبر على الأذى.. لقاء ما يبذل من جهد تطوعي وعطاء؟

سؤال بريء طاهر، وتقول التجربة: إنها سِيَر درجت عليها شريحة من أمم سلفت، وأجيال خلت، ومآثر تروى هنا وهناك، وشواهد أثبتها التاريخ.. لذا على سعاة الخير أن يلتمسوا لغير الأسوياء من البشر العذر لواقع حالهم، وقصر تفكيرهم، وغلبة الهوى على أمرهم، ويسايروا بعضهم، ويتجاوزوا عن هفوات البعض الآخر.

يقول الشاعر:

فما قتل السفاهة مثل حلم يعود به على الجهل الحليمُ
فلا تسفه ولا تفحش بغيظٍ على أحد فإن الفحش لومُ
ولا تقطع أخاك لأي ذنبٍ فإن الذنب يغفره الكريمُ

إن بناء المجتمعات والشعوب.. لا يتم إلا بالعمل الدؤوب، وبالفكر والعطاء، وبالتسامح والتنازل، وبالوحدة والاتحاد، وبالترابط والتعاون، وقيام كل بواجبه وحسب قدراته وإمكاناته، وما الفرد والأسرة.. إلا لبنة من لَبِنات المجتمع الذي يشد بعضه بعضاً، وتلك حال الغالبية من الأمم في التحصيل والبناء والتطلع لغدٍ مشرقٍ جميل.

وبإلقاء نظرة فاحصة على واقع حال مجتمعنا في المملكة العربية السعودية.. نجد ولله الحمد: الجمعيات الخيرية، والمؤسسات التعاونية، والأعمال الإنسانية التطوعية، والمنتديات التوجيهية، وإن كان لكل مجتمع شواذ.. فإن أهل الخير كثر، والساعين إليه أكثر والغلبة لأهل الخير بإذن الله.

نشكر الله على نعمة الأمن والأمان، ورغد العيش والاستقرار.. اللهم اجعلنا من الشاكرين الذاكرين (فبالشكر تدوم النعم).

و صلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

١٤٢٦/١٢/٧هـ

(١٠) شـــــكوى

لِمَ تشتكي وتقول إنــك مُـعْدمُ والأرضُ مِلكَ والسما والأنجمُ
ولك الحقول وزهرها وأريجها ونسيمها والبــلبل المتــرنم
والمـاء حــولك فضـةٌ رقـــراقـةٌ والشمس فوقك عسجد يتضــرمُ
انظر فما زالت تطل من الثرى صــورٌ تكــاد لحسنها تتكــلَّمُ

إيليا أبو ماضي

كنت في زيارة لصديق امتدت صداقته منذ الصبا، وكانت لي معه ذكريات ومواقف، ووجدته في حال من الضجر والتبرم من وضعه ووضع أبنائه، وشكواه التي لا تنقطع على ما هم عليه من شطحات وسهر وتباين في الرؤى، وتقصير في أداء واجب، وقلة في التحصيل العلمي، ووقوعهم في أحداث وحوادث.. الخ.

فما كان مني إلاّ تهدئته والتخفيف من روعه، وضرب أمثلة له من هنا وهناك، وبعد توديعي له أخذت أستعيد شريطاً من مَسَارٍ كان لي وله ولزملاء كله حافل بمعطيات وسِيَر جميلة.. رغم ما يعتورهما من معوقات، وما دافعه من شكواه إلا قول الشاعر:

ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة يواسيك أو يُسْليك أو يتوجــعُ

وتذكرت أن دوافع الجزع والفزع، والتشكي من حوادث الزمن وتقلباته.. أمورٌ تُنافي أخلاقيات الإسلام، وتعارض التسليم لقضاء الله، وأن التوجع لا يُغير واقع حال ولا يجلب إلاّ الشماتة وسوء العاقبة.

وما الثبات عند نوائب الدهر ووقوع المصائب، والكوارث، والمفاجآت المحزنة والمؤلمة.. إلا من قوة الإيمان، ورباطة الجأش.. يهبها الله لمن شاء من خلقه.

إن التشكي من عوارض جارحة، أو فوات مصلحة مادية، أو تبرم من معاناة عوائق طموح، أو الخوف من البقاء خلف الصفوف.. إثر نومة غافل، أو رغبة جاهل، أو غفوة شاب سارح، أو إشباع رغبات زائلة.. كل ذلك جحود ونكران لفضائل لا تحصى.. فلا شكوى إلا لله، ولا شكوى مع الأمن والأمان والصحة في الأبدان.. بل الشكر لله عز شأنه والحمد له على كل حال.

فهل لنا أن نسعى لحسن تربية وتوجيه، ونُوَطِّن أنفسنا ونروضها، ونتقبَّل أي حدث، ونتحلى بالصبر والرضا، والشكر والثناء، ونأخذ بالحكمة ومروياتها.

ومن أقوال الشعراء في ذلك:

أيها الشاكي وما بك داءٌ كن جميلاً ترى الوجود جميلاً

❖❖❖❖❖❖❖

أُعلل النفس بالآمال أرقبها ما أضيق العيش لولا فسحة الأملِ

❖❖❖❖❖❖❖

إن الحياة لثوب سوف تخلعه وكل ثوب إذا ما رثَّ ينخَلِعُ

❖❖❖❖❖❖❖

ولا خير فيمن لا يُوَطِّن نفسه على نائبات الدهر حين تنوبُ

❖❖❖❖❖❖❖

قد عشت في الدنيا على طرق شتَّى وقاسيت فيها اللينَ والفظعا

مَن منا من يتعظ ويُعد العدَّة ويُراقب الله في حركاته وسكناته؟ ألا نرى ما يدور حولنا من حوادث، وجرائم، وفضائح، وسجون، وأمراض، وجنوح إلى الشر وحاجة إلى لقمة عيش، أو مأوى يستظل به، أو كساء يستر عورة، وعائلة فقدت معيلها وأخرى فقدت مورد عيشها، وثالثة تراكمت عليها الديون، وما إلى ذلك من حوادث القتل والهدم والتشريد، وحوادث المخدرات والانزلاقات؟

لنحمد الله، ونداوم على شكره.. لجزيل فضائله وجوده وكرمه، ونبتهل إليه أن يديم نعمه علينا.. إنه ولي ذلك والقادر عليه.

١٤٢٦/١٢/١٠هـ

(١١) نكران وجحود

جار الزمان وعزَّ المطلبُ، وجاشت خواطر وعَظُمَ الخطبُ، وتداعت نفوس بنكران وجحود.. مُعلنةً بوقاحة.. سخطاً وقنوطاً، ومشهرةً سلاح الشر والعداء.. دون خجل أو حياء.. مرسلة سهاماً وشهباً، وقذائف من كل حدب وصوب.. منقادة وراء ضغائنها.. فصار لها صولات وجولات.

يساندها أعوان شر وسوء.. يتوارون وراء السراب وخلف الحجب، ويتظاهرون بلباس وأثواب مستعارة.. يدفعون بتلك النفوس إلى متاهات من الظلم والظلمات.. متجاهلين فضلاً احتواهم، وفيض كرم رعاهم من أمن وأمان، ورغد عيش وكيان، وعدل وتعليم، وصحة وبناء، وما يُقابلون به من سماحة وتجاوز.

أما كان الأحرى بهذه النفوس أن تشكر وتحمد الله على ما آتاها وترعوي وتنأى بنفسها، وتربأ بحالها، وتوفر جهداً تبذله في مضايقة، وسعياً في ذم وقدح وجناية.. لتستر عورتها، وتغطي خَبَثَ إفرازاتها.

ولعل الشاعر أصاب بقوله:

وكم من لئيم ود أني شتمته ... ولو أنَّ شتمي فيه صابٌ وعلقمُ
ولَلكَفُّ عن شتم اللئيم تكرماً ... أضر له من شتمه حين يشتمُ

ويقول آخر:

قل ما بدا لك من زور ومن كذبٍ ... حلمي أصمٌ وما أُذني بِصمَّاءِ

يا سبحان الله.. ما هذا العبث من هذه النفوس الشريرة وماذا دهاها؟ وما الذي يجعلها تتخذ هذا المنحنى، وتسعى لتكسير مجاديفها، وتتفانى في سبيل الهدم والتقويض، والقطيعة والبغض الشديد، وتصبح معول هدم وتخريب لكيانها، وعامل تشتيت لمجرى حياتها.. دون خجل أو حياء، أو مخافة من الله بنذر سخط وسوء عاقبة.

وقديماً قيل:

وأَسوأ أيام الفتى يوم لا يرى له أحداً يُزري عليه ويُنكِر

إن غريزة الشر تستحكم لدى بعض البشر كسلطان جائر.. يَعمي الأبصار ويسيطر على المشاعر والأحاسيس، ويجعل المرء مرتعاً لدوامة من المعاناة النفسية القاسية فيتخذ سلوكاً منحرفاً وطريقاً مغايراً.. يتنافى مع أخلاقيات قومه وعشيرته، وهذه حال الدنيا التي هي دار ابتلاء.

قال الشاعر:

قد يبتلى المرء في أيام محنته حتى يرى حسناً ما ليس بالحَسَنِ

لكن المصيبة هي أن تصطنع معروفاً وتسديه إلى شخص تحسبه من أهل الخير فإذا هو لئيم حاقد يجازي بالإساءة على الإحسان، كنت تحسبه خلاً خليلاً فإذا به خائن غادر.. لا تجد قبالة هذه الحالة إلا أن تردد مع الشاعر قوله:

ولا خير في خِلٍّ يخون خليله ويلقاه من بعد المَوَدَّةِ بالجفا
ويُنكر عيشاً قد تقادم عهده ويُظهر سراً كان بالأمس قد خفا

رحم الله الشافعي عندما قال: أصل كل عداوة.. اصطناع المعروف إلى اللئام.

ومواساةً للنفس وتعزية لها دعني أيها القارئ أُسُّر ببعض ما قيل في الحقد والحاقد:

(الحقد: طاقة آخذة في الاستشراء والتمدد.. تقضي على ما تبقى من جسد الحاقد - روحه، عقله، حالته النفسية.

الحاقد: يأكل هدأة نفسه، واطمئنانه، وراحته، ورضاه.. فيضطرب كيمياء المخ لديه حتى تتداعى صحته.. فيعتريه القلق والأرق، ولا يجد في الفراش دفئاً ولا للطعام لذَّة ولا للشراب رواء.

ترى الحاقد في محيط عمله ينظر إلى زميله وهو في حركة دائبة، ونشاط مستمر، وعطاء لا ينضب، ولأنه ليس كذلك يعتري قلبه الحقد، ويتولد عنده الحسد.. فيصل ليله بنهاره لا يفكر إلا بتدبير المكايد بأنواعها ولا يشفى غليله إلا أن يرى هذا الزميل منتكساً).

١٤٢٦/١٢/١٨هـ

(١٢) الغيرة والحسد

أمر طبيعي وطبيعي جداً أن ترى بين الناس الصالح والطالح، والمحسن والمسيء، والخيّر والشرير، ولو خُيِّر الإنسان العاقل.. لاختار لنفسه أن يكون من الصالحين المحسنين الخيّرين، وأن يبتعد عن الطالحين المسيئين الشريرين.. وأنّى يتيسر للمرء أن تتحقق أمانيه في كل فترة من زمان حياته وفي كل موقع ترمي به الحياة في مختلف الظروف.

لا شك أن الحسد والغيرة ظاهرتان موجودتان منذ الأزل في جميع المجتمعات، والّا لما كانت هاتان اللفظتان مكتوبتان في قواميس الأمم المختلفة لُغاتها، والسؤال المطروح: لماذا الأفاضل كل الأفاضل يكرهون الحسد والغيرة؟ ولماذا تعتبر هاتان الظاهرتان من إفرازات الشر التي يُبْتلى بها الصالحون في كل زمان ومكان؟!

إن النفوس البشرية مجبولة على الخير وفيها شر أو بعض شر.. والإنسان الصالح هو الذي يحاول دائماً أن يصقل نفسه وأن يصفيّها من براثن الشر، ولكن هل يستطيع نبذ الشر دائماً أو أحياناً أم يعجز هنا ويقصر باعه هناك؟ الأمور نسبية.

المؤكد أن بعض ضعاف النفوس، ضعاف الإيمان ممن تغلي في صدورهم وتتصارع معارك الغيرة والحسد.. موجودون منذ عهد أبي

البشر آدم عليه السلام عندما قتل قابيل هابيل بسبب الحسد والغيرة ولذا قيل: (وقديماً كان في الناس الحسد).

وفي التنزيل الكريم قال تعالى:
﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾[٦].

يطيب لي أن أذكر أن التنافس في الخير لا يسمى حسداً فقد قال جل شأنه:
﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾[٧].

التنافس في الحكمة جميل وتعلم الحكمة جميل أيضاً، والتنافس في الإنفاق طيب، وطيب جداً، ولقد اتفق البخاري ومسلم على نص الحديث الآتي: (لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلّطه على هَلَكَته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها) والمراد بالحسد هنا الغبطة وهي تمنّي المثل.. لا زوال النعمة عن الآخر.

وقد يسأل سائل: ماذا نفعل بالحسود المتمني الشر للمحسود، فنقول للمحسود: أصبر ولا تجزع وننصحه بأن يردد قول القائل:

أصبر على حسد الحسودِ فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

لعليَّ ما أطيل على القارئ أيضاً أن أذكر الأبيات التالية ففيها إضافة على الفائدة متعة ومسلاة ومواساة للمحسود وللقارئ سواء بسواء، وتنسب هذه الأبيات للطغرائي:

---

(٦) سورة النساء آية (٥٤).
(٧) سورة المطففين آية (٢٦).

جَامِلْ عَدوَّكَ مَا اسْتَطَعْتَ فإنَّهُ بالرِّفقِ يُطْمَعُ في صَلاحِ الفَاسِدِ
واحْذَرْ حَسُودَكَ ما اسْتَطعْتَ فإنَّهُ إنْ نِمْتَ عنهُ فليسَ عَنْكَ بَرَاقِدِ
إنَّ الحَسُودَ وإنْ أرَاكَ تَوَدداً منْه أضَرُّ منَ العَدُوِّ الحاقِدِ
ولَرُبَّمَا رَضِيَ العَدُوُّ إذا رَأَى منكَ الجَميلَ فصَارَ غَيْرَ مُعَانِدِ
ورِضَا الحَسُودِ زَوَالُ نِعْمَتِكَ التي أُوتيَتَها منْ طَارِفٍ أوْ تَالِدِ
فاصْبِرْ عَلى غَيْظِ الحَسودِ فَنَارُهُ تَرْمِي حَشاهُ بِالعَذَابِ الخَالِدِ
تَضفُو عَلى المَحْسُودِ نعمةُ ربِّهِ ويذوبُ من كمَدٍ فُؤادُ الحَاسِدِ

هذه حال الخيرين من بني البشر تتفاعل نفوسهم لدوافع الخير، وتعلو أصواتهم وتصفو أفكارهم، وتتكاثر الأفكار.. مزدحمة في المخيلة.. محدثة صخباً وضجيجاً، وجميلاً من التأملات والأماني.. مُحَلِّقةً في الآفاق.. لِتَرْسم خططاً اجتماعية من التطلعات والأحلام.. التي يستحسنها ويباركها أهل الخير، وما هي إلا أشواط من الخطوات الموزونة.. حتى تصطدم كل هذه الأمور الطيبة بواقع مرير.. أبطاله ذوو نفور وشرور.

مفرزة تخاذلاً وتراجعاً، وانزلاقاً لمنحدرات من الهبوط، والحجج الواهية والمغالطات، وتسفيه آراء الآخرين.. بعناد وإصرار ومكابرة، وتزكية للنفس وأفعالها، وجعل الأطراف الأخرى شماعة لأخطائهم وتجاوزاتهم.. الخ.

وقديماً قال امرؤ القيس:

ومهما تكن عند امرئٍ من خليقةٍ وإن خالها تخفى على الناس تُعلمِ

إنهم فئات من البشر عشعشت في نفوسهم رذيلة الغيرة والحسد، خبط عشواء.. دون إدراك لمحذور ولا لبواطن أمور، ولما سيحصدونه من هم وغم وخسران، متجاهلين نظرات المجتمع التي ستلاحقهم منذرة محذرة من سفاهاتهم.

واسمحوا لي أن أختم هذه الخاطرة ببعض مأثورات وردت عن الأقدمين فيها من الفائدة والحكمة الشيء الكثير:

قيل لكسرى: أي الناس أحب إليك أن يكون عاقلاً. قال: عدوي. قيل ولمَ. قال لأنه إذا كان عاقلاً كنت منه في عافية وأمن. وقال آخر: كونوا من المرء المدغل أخوف من الكاشح المعلن.. فإن مداراة أهل العلل الظاهرة أهون من مداراة ما خفي وبطن. وقال ثالث: إيَّاك أن تعادي من إذا شاء طرح ثيابه، ودخل مع الوالي في لحافه.

أما أبو العتاهية فربما اعتبر الحسود عدواً وطلب إليك أن تكيد له قبل أن يحيك لك كل كيد مع أنه نصحك بتجنب القبيح وأن تزيد من فعالك الحسنة:

تنح عن القبيح ولا تَرِدْهُ ومن أوليته حسناً فَزِدْهُ
ستلقى من عدوك كل كيد إذا كاد العدو ولم تَكِدْهُ

ويقول شاعر آخر:

ومن ذا الذي يدري بما فيه من جهلِ يرى الناس ضلالاً وليس بمهتدي

وآخر يقول:

لا تعذليه فإن العذل يولعه قد قلتِ حقاً ولكن ليس يسمعه

نعم.. العذل يولعهم، والحق لن يسمعوه.. كيف بهم وقد تأصلت فيهم هذه الغريزة والصفة الشريرة، وأصبحوا رهن أحقاد.. مكشرين عن الأنياب.. شغلهم الشاغل نقد هدام، وإرسال قذائف السخط التي تنم عن جهل وعن عدم رضا.. وصدق القائل: (ومن ذا الذي يرضى أو يدري بما فيه من جهل).

دعوة صادقة من أعماق القلب إليه سبحانه أن يصلح الحال وأن يهدي النفوس الشاردة التي لم تتعظ بقول رسولنا عليه السلام (إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية).. ونداء بعد نداء إلى هؤلاء للسعي لجمع الكلمة ووحدة الصف والهدف، والسمو بالخلق، وحسن التعامل، واحترام الآخر ومساعدة الضعفاء بكل الإمكانيات المتاحة، والالتزام بالواجب ليصبح المجتمع أقوى تلاحماً وتراحماً بعيداً عن كل إسفاف متجنباً السقوط في الوحل، وبذلك تتحقق السمعة الطيبة للفرد والمجتمع وتخلد ذكرى الأفذاذ من بني وطني وسيصبحون القدوة الصالحة لقادم الأجيال إن شاء الله.

١٤٢٦/١٢/٣٠هـ

(١٣) عصامية تحقق أهدافاً

الحياة ميدان عيش ومتاع، وسباق في التحصيل، وشقاء وسعادة، وصحة واعتلال، وفقر وغنى، وطموح وخمول، وتنافر وتقارب، وودٌ وكره، وأمنٌ وخوف، وسِلْمٌ وحرب، واختلاف ووفاق.. فيها من التماثل والتضاد ما يحيّر الألباب.. أدرك صاحبنا كل هذا فنظر واعتبر.

احتضنته الصحراء بِحَرِّها وبردها، وعواصفها وهدوئها، وحِلّها وترحالها.. تحيط به الأودية والجبال.. يتعامل مع الماشية في غدوه ورواحه. يسعد في ليله بأم شغوف حنون، ويشقى في نهاره بأب فظ حريص عجول، وهذا ديدنه في شتائه وصيفه وفي باقي فصول السنة.

شاقه خَبَرُ المدينة.. بعمارتها وتَحَضُّرها، ومفاتنها البراقة.. فقرر الفرار إليها وقد ساعده على ذلك أحد أقرانه.. فشاهد ما يُذكر من مظاهر تختلف عن حياة البادية القاسية التي مارس فيها شظف العيش والفقر والتعب الجسمي لحد الإنهاك. سَرَّهُ منظر النخيل والأشجار وجداول المياه والتجارة والراحة البدنية ومتعة العيش.. الخ.. إلا أنه وجد في المدينة الكدر والضجر والمعاناة النفسية، وغموضاً ورموزاً تُحكى ومشاحنات وشيئاً من همٍّ وغمٍّ.. فصار يتذكر المربى بما فيه من صفاء ونقاء، وأهازيجه الجميلة في الصحراء فيحن قلبه وتتوق نفسه وتتلهف شوقاً إلى أرض تقبلها الشمس في أول الشروق قبل أن تمس غيرها من الأرضين حيث البادية تفاخر الحاضرة بقولها:

لنا قبلة الشمس عند البزوغ وللحضر القبلة الثانية

ولكنه في الوقت نفسه كان يناجي نفسه ويقول:

مالك وللأحلام لأن من تحقيق الغاية في المدينة حيث تزاحم الأقدام.

تلك كانت أمانيه وشغله الشاغل.. رغم ما يواجه في سبيلها من صعوبات ومعوقات.. فكان له أن التحق بوظيفة مستخدم وانضمَّ للدراسة الليلية مثابراً ومكافحاً، فمحا أمية وحصَّل علماً ثم ارتقى وظيفياً، بقي كذلك.. إلى أن احتل مكانة اجتماعية أهلته لتحقيق شيء من المراد وقضاء حوائج القصاد.

ما كان له أن يصل إلى ما وصل إليه إلا بكفاح وجد واجتهاد وتعب ما بعده تعب وشقاء، وليت الأمر اقتصر على التعب البدني، لكن بعض الأقارب والأصدقاء والمعارف كانوا يوجهون إليه أقذع وأنفذ سهام النقد الهدام فيقول: ما أهون إبر النحل وما أسهل لدغ العقارب والأفاعي أمام ظلم ذوي القربى.

مع هذا لم يحقد على أحد بل بقي مغمضاً عينيه عن السقطات مترفعاً عن الغلطات متجاوزاً الهفوات ما كبر منها وما صغر، متسامحاً بكل شجاعة وبراءة وطهارة مردداً قوله سبحانه:
﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[٨].

إن إيمانه هذا ساعده على تحمل المعاناة وعلى تقبل صنوف الآلام المادية منها والمعنوية، كما ساعده على التغلب على معظم العوائق، وعلى التكيف مع المطالب والمخاوف من مستجدات الحياة كلما تقدمت

(٨) سورة آل عمران الآية (١٣٤).

به الأيام، ولا يخفى أن تلك المتطلبات كانت تتفاوت حجماً ونوعاً وموضوعاً، ورغم هذا كان يتقبل قدره ويتكيف مع ظروفه مطمئناً وراضياً عما يفعل متمثلاً بقول البارودي:

ومن تكنِ العلياءُ همةَ نفسِهِ فكل الذي يلقاه فيها مُحبَّبُ
وإنْ أنَا لم أُعط المكارم حقها فلا عزني خال ولا ضمني أبُ

إن الرقي وصعود القمم ليس أمراً سهلاً ولا متيسراً.. إلا لمن يَسَّره الله له.. ممن شأنهم السعي والكفاح، والتطلع إلى تحقيق مكانة اجتماعية لائقة.. بعمل وبناء، وصبر وجلد ومثابرة، وحكمة وأناة الطامح الصاعد.. يسير غير عابئ بما يعترضه من معوقات ومتطلبات، لا تهمه الترهات ولا توقفه معارضات المفسدين ومثيري الفتن، بل يواصل السير رافعاً رأسه ويقول: القافلة تسير.. نعم الطامح الصاعد لا يتقهقر ولا يتراجع لأن من يسعى بنور ربه يحدو قافلته ويصل إلى غايته متجاوزاً العقبات والصعاب.. تتحطم السهام الطائشة أمام قدميه من غير أن تؤذيه بإذن الله.. وهكذا كان شأن صاحبنا العصامي.

وبالطبع لم ينس باديته ورفاقه فيها ذاكراً قول الشاعر:

إن الكِرام إذا ما أيسروا ذكروا من كان يألفهم في المنزل الخشن

ومن هذا المواقف وهذه السير، يُستشهد بها ويُعتبر منها، وما أحرى شبابنا إلّا خير معتبر ومقتدي.

أدلنا الله على طريق الحق وجعلنا هداة مهتدين.

١٤٢٧/١/٥هـ

(١٤) ركــوب حمــار كان أُمنية

أقـول وقـد ناحت بقـربي حمامةٌ أيـا جارتـا، هـل تشعرين بحالي؟

السبعون وما أدراك ما السبعون.. عدد من السنين المتباينة بمراحلها وتقلباتها بنزول وارتحال.. خلَّفها وراء ظهره بحلوها ومرها وسرورها ونكدها.. شاكراً الله وحامداً على مرورها بوافر من الصحة والهناء، والأمن والأمان.

إنها حمل ثقيل ومؤونة تخطاها مستوراً مرزوقاً.. مشحونة بالمتناقضات: سرور وأشجان، وصعود ونزول، ومتقلبات في الأحوال والأموال.. متخذاً طريقاً مريحاً ومنهجاً جديداً من الدعة والاستمتاع وساعياً في مناكبها.. يحمد الله على سراها ويشكره على عقباها.

بعد أن قضى ليلة هادئة، ومخلداً للراحة، هانئاً بالنوم.. غارقاً بالأحلام في ظل أمن وأمان وطاعة للرحمن.. تراه يستيقظ قبل أذان الفجر لُيهيئ نفسه للذهاب إلى المسجد كعادته.. لأداء صلاة الفجر جماعة، وفي العودة للمنزل يكرر ورده.. يحمد الله على ما أضفاه عليه من نعم شتى.. سابحاً بخياله مستعرضاً شريطاً طويلاً للطفولة ولما عايشه خلال مسيرة حياته.. من أحداث ومتغيرات وتطورات في مختلف المناحي.

ينظر حوله فيرى في داره عدداً من السيارات داخل منزله.. تجاوزت العشر، ويجول بخياله خارج الدار فتزوده ذاكرته بأكثر من عشر سيارات أخرى للأبناء في منازلهم.. هَزَّهُ هذا العدد وارتعد جسمه، فتضرع إلى الله بالشكر يحمده ويثني عليه ويخشى تحول هذه النعم لا سمح الله.

حال من الحاضر الماثل يعيشه ويرى الكثيرين ممن يعرف يتمتعون بما وصف وربما بأكثر فيبتهل إلى الله سبحانه بالشكر ويتمنى لآخرين لم يسعفهم الحظ بأن يركبوا ركب النماء والرفاه لتعم النعم على الجميع مردداً قول المعري:

فلا هطلت عليّ ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلادا

إنه يرجو الخير للجميع ويسأل النفع للجميع.. لكنه يثوب إلى نفسه مؤمناً بأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين وهو وحده الذي يرزق من يشاء بما يشاء.. ومع هذا فإنه يعود ليستعرض شريط الماضي.

هذا الشريط الزمني منذ ما يزيد على ستة عقود مضت (أي منذ العقد السابع للقرن الرابع عشر الهجري) حينما كان يمشي على قدميه الحافيتين، وعندما كانت ظروف المعيشة متدنية، وفي وقت الانكسار المعنوي الذي كان يعاني منه في ذلك الزمن الذي امتاز بالطهارة والنقاء وبالقيم الجليلة والأعراف النبيلة.. كان الزمن آنذاك لا يكاد يُطْمِعُ في امتلاك فرس أو ذلول.. ولعل أكبر أمانيه آنذاك أن يركب حماراً.. وسعيد هو من امتطى حماراً واختال على ظهره في شوارع القرية..يُباهي به أقراناً يغبطونه على مثل هذا المركب، وقديماً قيل: (يغبطك على الحمار من لا حمار له).

تلك كانت حال المجتمع في ذلك الوقت السابق لاقتناء السيارات والتمتع بنعمة الكهرباء والماء داخل البيوت ومظاهر الحضارة الأخرى التي ما عرفناها إلا بآلاء الله والتي أنعم بها على بلادنا العزيزة بعد رحيل الكثيرين من الآباء والأجداد الذين عاش أغلبهم في ضيق ذات اليد.

إن ركوب حمار والمباهاة على ظهره أمام النظراء كان إحدى أمنيات ذلك الطفل اليتيم الذي لم يسعد بحنان الأبوين وعطفهما، ويالها من سعادة وفخر لو امتلك ركوباً أو تيسر له امتطاء دابة بين وقت وآخر.. ليشبع غروراً ويحقق بهرجة وزخرفاً.

يتذكر الماضي القاسي حتى بخياله الأشد قسوة فيحمد الله على النعم ويشكره خاصة عندما يواجهه الأبناء بمتطلبات من الكماليات المختلفة كامتلاك سيارات فارهة ذات موديلات حديثة، ولا يكتفون بذلك بل يصنعون إليها ملحقات للزينة لا تؤدي غرضاً وتكلف المزيد من المبالغ ناهيك عن طلبات أخرى لا تنتهي.

إنَّ تلك النقلة الشاملة لمناشط الحياة الحضارية كافة: من تنمية، وارتفاع لمصادر الدخل، وتعليم وصحة، ونهضة عمرانية واقتصادية واجتماعية.. صار لها من المؤثرات الإيجابية على أبناء الوطن الشيء الكثير ولله الحمد الأمر الذي لم يقابل من الكثيرين بالشكر والامتنان وحسن الرعاية.. وهذا شيء ينذر بمخاطر وسوء عاقبة.. حمانا الله من ذلك.

وها نحن اليوم نرى مستجدات من مختلف الصنوف مما لذّ وطاب أنعم الله بها على سكان جزيرة العرب عموماً.. حيث تمّ اكتشاف الثروات الطبيعية التي قَلَبت الموازين، وجعلت بلادنا مقصد

كُلِ طامع وطامح في حصد مكاسب.. من خلال خبرة وتجارب نافسوا بها المواطنين.. في ظل ضلوع كثير من الشباب.. في لهو وإشباع رغبات وأنس وملذات.

حقاً لن تعود الأيام وسنتذكَّرها ونذكرها.. فهل لنا أن نستيقظ ونتدارك ما بقى من أيام، ونرسم خططاً لأجيال قادمة.. نتطلع إلى ذلك بعون من رب العباد، والله الهادي إلى سواء السبيل.

أقول حلال على من يقدم خبرات وخدمات أن يشاركنا فيما أنعم الله به علينا، ولكني في الوقت نفسه أؤكد على نقطة هامة وهي أن على شبابنا أن يصحو من غفوته ويهجر ملذاته وأن يتقن ما تحتاج إليه بلادنا من خدمات تكنولوجية وغيرها ليقوم المجتمع بكل فئاته على قدمين صلبتين بعيدتين عن أي انزلاق أو انحراف.. مع هذا فإني لا أقول إن الدولة مسؤولة عن كل شيء ولكن أصحاب العقول النيّرة في هذا البلد عليهم واجب وطني لا بد من أدائه من خلال حملات توعوية تنوّر أذهان الشباب فيتم الحفاظ على مكتسبات البلاد.. وأود التنويه على أن التربية الوطنية تبدأ من المنزل حيث الوالدان ثم يأتي دور المدرسة والمجتمع وبتضافر الجهود يتحقق المطلوب بإذن الله.

يقول أحدهم:

إذا هبّت رياحك فاغتنمها فإن لكل ذارية سكون

ويقول آخر:

فلا تُضَيِّع إذا ما كُنْتَ ذَا رَشَدٍ بغفلةٍ منك أياماً هي السلوى
فلن تعود لك الأيام ثانيةً فإن تكن عاقلاً حاذر بها السهوى

١٤٢٧/١/٦هـ

(١٥) رسـالة ذات شجون

ذات يوم بعد عصرٍ مصحوب بنسمات وهواء عليل.. أخذت به أفكاره نحو أفلاك من الرؤى والأحلام، وأراد أن يُدَوِّن خاطرة وردت في ذهنه للتو.. فأخذ مكاناً قصياً بفناء منزله.. قاطعته صغيرته بقولها: يا أبتِ لماذا تنتحي في بعض أيامك بعيداً عن مجلسنا تداعب قلماً وورقة.. كأنك ترسم خطوطاً أو كلمات متقاطعة.. أهذه سلوتك وهوايتك؟

أخذت به تساؤلات ابنته مأخذها، وثارت في نفسه عاطفة الأبوة، تغالبها الرغبة والبقاء مع ورقته وقلمه لتدوين ما خامر ذهنه من أفكار وخواطر.

أعتذر من ابنته بعد أن طيّب خاطرها وأعطاها ما يرضيها ثم أخذ يعمل فكره متسائلاً: ما ذا عساه أن يقدم من نصائح وتوجيهات لأولاده ولشباب المستقبل من أبناء الوطن؟ وتزاحمت الخواطر فارتأى أن يسجل أنّ للشباب حقوقاً وعليهم واجبات وأنّ العقل يقضي بأن يؤدي المرء ما عليه من واجبات وألاّ يلح في طلب الحقوق.. نعم، الواجب يؤدى بلا تردد وطلب الحق يكون بالرفق دائماً.

والنقطة الثانية التي قفزت إلى الذهن هي أنّ المرء مكلّف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلى الشباب الناشئ القيام بهذه المهمة

بالحكمة والموعظة الحسنة فإن هاتين الدعامتين من الأسس المتينة التي يقوم عليها المجتمع الصالح.

ونقطة ثالثة هي غرس روح الطاعة في الشباب لأولياء أمورهم الذين يُسَدون كل النصح لهم ويتمنون لهم تحقيق الخير في الدنيا والآخرة مع إعلامهم أن هؤلاء الشباب الذين يتلقون التربية من ذويهم ومعلميهم اليوم، سيصبحون عما قريب هم المربون وهم المعلمون.

وأنا أقول للأبناء والشباب: إن الطموحات كثيرة والأفكار متباينة والرغبات طاغية، والهوى أعمى ويُعمي ولكن لا يصح إلا الصحيح فالجنة محفوفة بالمكارة والنار محفوفة بالشهوات وعلى الشباب أن يعي أين تذهب به طموحاته وأين تشط به رغائبه، وأعترف لأبنائي أيضاً أن مدافعة الشهوات ليست سهلة بل تحتاج إلى إرادة وصبر واحتمال وتطلع للأفضل الأمثل، والإنسان العاقل هو الذي يختار لنفسه الموضع الأحسن والأجمل.

يقول الشاعر:

واعمُرْ حياتك في خير تفوز به ولا تكن بسِفاف الأمر منشغلاً

ويقول آخر:

من ليس يهتم في علمٍ ومعرفةٍ كفاقد العقل يأبى النصح والرَّشدا

نعم: العاقل يمارس الفضائل ويطعن الرذائل ويتمسك بالأسمى، ويترفع عن السفاسف والصغائر.. فالحياة طويلة بالأعمال الجليلة قصيرة بدناياها.. من لي بشباب متطلع إلى مستقبل واعد من خلال

مسار طويل.. زاخر بالقيم ومفعم بالأخلاق والانضباط، والسعي لتحقيق طموحات؟ ماذا يُضِير الشاب لو جمع بين فضيلتين: التحصيل العلمي، والسعي لتحقيق مجد مبكر؟ أم أن رؤى الشباب للمجد والسعادة لا تكون إلا من خلال جلباب مطرز، وعمامة مميزة، وسيارة فاخرة، وشلة سهرة، وأكلة مطعم معلنة؟

وهكذا كثير من ناشئة اليوم يسعون وراء مستجدات الموضة.. مهملين كل ما له صلة بغذاء العقل والروح وطموحات المستقبل.. منحصرةً أفكارهم بغرائز ورغبات، واشتغال بملهيات تنشرها هابط الفضائيات وسوء استعمال لوسائل الاتصالات.

فليعلم الناشئة أن السعادة هي في إسعاد الآخرين من ذوي القربى والضعفاء وأصحاب الحاجات ممن نعرف ومن لا نعرف.. متى ما تيسر ذلك، وأن بناء الذات يكمن في ممارسة التعليم: قراءة وكتابة ومجالسة ومصاحبة ذوي المعرفة والسؤدد، وتَجَنُّب مواطن الزلل ومواقع الشبهات، وليس أجمل من أن يكون العبد في عون أخيه فذاك هو المجد وذاك هو السؤدد.

يقول الشاعر:

كأنَّما المجَّد لم يخطر بخاطره فيَحْسَبُ العُمْرَ قد أُعْطي له هَمَلاَ

إن المجد مرتقى صعب لا يتحقق إلا بعزم وتصميم وبوضع خطط لمسار جاد يبني علاقات اجتماعية زاخرة بالتضحيات التي تعطي وتعطي وقليلاً ما تأخذ.. علاقات ترعى الأخوة وتتعهدها بعد أن تساند الوالدين

والأقربين.. علاقات حضارية راقية ترنو إلى الأعلى وتترفع عن الدنايا.. وفي هذا ما فيه من المشقة التي لولاها لأصبح الناس كلهم في منزلة الفضلاء ولكن هيهات هيهات، ورحم الله المتنبي حيث قال:

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والإقدام قتّال

نعم: إن تسلق مرتقى المجد صعب، وصعود السلم شاق لكن الوقوف بأدنى درجاته مذلة، والسقوط منه كارثة، والطريق محفوف بالأشواك والأوحال.. لكن ليس للإنسان إلا ما سعى، وصدق من قال:

بقدر الكد تُكْتَسَبُ المعالي ومن طلب العلا سهر الليالي
ومن رام العلا من غير كدٍ أضاع العمر في طلب المحالِ

ألا فانهض أيها الشباب الناشئ وانفض عن العين الكرى.. الأمل فيك كبير والأمل أن تسمع نصيحة محب أكبر.. وفقك الله ورعاك.

بعد أن أفرغت هذه الشحنات من الخاطرات عدت لصغيرتي ألاعبها وأشمها محاولاً رسم الابتسامة على شفتيها، وتذكرت حينئذ قول البدوية وهي تلاعب وليدها وتشمه:

يا حبذا ريح الولدْ ريح الخزامى في البلدْ
أهكذا كل ولدْ أم لم يلد قبلي أحدْ

١٤٢٧/١/٢٠هـ

(١٦) عاطفة الأبوة

سيرة ومسيرة، ومعركة حياة، وطول زمن، وتباين في تقلبات الأيام والشهور، والسنين، وتجارب تمرّ، ومد وجزر، وصعود ونزول، وارتحال واستقرار، وهكذا حياة كل إنسان مع تباين في المسار ولكلٍ نهج ومنهاج.

لقد كان له ولقومه مساع حثيثة للوحدة ولمّ الشمل والبناء من خلال سلوك طُرق وعرة مليئة بالأشواك والتعرجات والمتناقضات، وما أشق الطريق وما أصعب المرتقى.. لكن ما أهون المبذول في سبيل تحقيق الغاية النبيلة:

وأصبر، ما لم يُحسب الصبر ذلة وألبس، للمذموم حلة حامدِ

وبَعْد العناء، والكد والشح والكفاح، وتجاوز مراحل التأسيس.. تحط بهم الرحال، ويطيب لهم المقام، ويُمتَّع القوم بأمن وأمان، ورخاء واستقرار.. أمور تتطلب شكر البارئ على ما أنعم وصدق الله حيث قال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[٩].

فالبعض تأخذه مغريات الحياة ورغد العيش والملذات.. فتُدْخلهم في سكرات الأحلام وإشباع الرغبات.. متناسين صحةً يرفلون فيها، ونِعَماً يستمتعون بها.. متغافلين عن مفاجآت، ومخاوف وسوء عاقبة.. حمانا الله ووقانا الشرور.

(٩) سورة سبأ آية (١٣).

هكذا الناس بين عاقل شاكر متأمل، وجاهل طائش متعجل، وغافل سارح متطفل، والكل يتغنى بالطموح والعلا وارتقاء السلم، وما هي إلا أمنيات وتطلعات.. دون إدراك لأبعاد مخاطر وبعد مسافات، وتبعات لمساع من مقتضيات السلوك والنهج القويم.. لا يسلكها إلا من يتمتع بحلم وصبر وجَلَد، وإنفاق مال وبذل جهد ووقت، مع فطنة وتغافل، ومد جسور مع القريب والبعيد والصغير والكبير.. يتوج هذا وذاك طيب الكلمة، وحسن التعامل، وتحمل الأذى وتفادي الأخطاء، وعدم الانفعال، وممارسة فضيلة التسامح.

لماذا لا نتمثل قول الشاعر:

وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى وجادل ولكن بالتي هي أحسنُ

ولماذا لا نعي حِكم الحكماء: من علت همته كثرت همومه، ومهلكة المرء حدة طبعه، والمورد العذب كثير الزحام، ومنقبة الإنسان تحت لسانه، وما ندم من سكت.

جاشت أفكاره وثارت مخاوفه وتطلع إلى آفاق بعيدة مسترجعاً موروثات من القيم والمواقف النبيلة وأضدادها مثل سقطات الفكر وسوء المعاملة والأخلاق.. فخامرته الوساوس واهتمّ لولده كيف سيكون مساره في هذا البحر اللجي.. فكتب اليه العجالة التالية:

الابن العزيز: ما أكثر الحِكم والعِبر، ولكن ما أقل الاعتبار.. لقد هدانا الله عز وجل لفعل كل خير يحقق مصالحنا الروحية والاجتماعية وحذرنا من الاقتراب من الشرور والآثام، وكذلك موروثاتنا الحميدة حثّت على فعل الجميل وترك القبيح، ومن تمسك بهذا وذاك حصد من الثمار ألذّها وأطيبها واكتسى بهاءً وجمالاً ومارس جليل الأعمال التي تخلد ذكره.

إن عمق تجارب مَنْ سبق تُعطي خبرة ومعرفة لمن لحق.. ممن يرغب في الاستفادة من تجارب أب، وعم، وخال، وأخ أكبر، ومن مفكرين مارسوا التجارب ففاضت نفوسهم حكمةً ومعرفة.. فهل لنا أن نرتوي من معين الخبرة، ونهر التجربة؟

يقول أبو الفتح:

عليك بالنفس فاستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسانُ

اعلم يا بني أن أكبر خسارة للإنسان هي: فقدان احترام الذات، وأن أسوأ ما يشوّه الشخصية هي: الأنانية وحب الذات، وأن أكثر الأعمال بعثاً على الرضا هي: مساعدة الآخرين والجود من الموجود، وأن أفضل ما يحقق الرضا عن النفس هو راحة الضمير، وأن أكثر أسباب الفشل هي: انتحال الأعذار، وأن أكبر مشكلة نحتاج التغلب عليها هي: الخوف وعدم الثقة بالنفس، وأن أكبر خسارة تلم بالإنسان هي: فقدان الأمل.. ﴿وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ﴾[10]، ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾[11] وأن أعظم مصادر القوة هي: الإيمان بالله سبحانه وتعالى، وما أجمل قول أحمد أمين لابنه: (يا بني.. آمن ولو ألحد الناس، ووثّق صلتك بالله ولو قطعها الناس).

ولتعلم أيضاً أن الطفيليين الأكثر شروراً والأضرّ بمجتمعنا هم ناقلو الإشاعات.. أولئك هم مدمرو العلاقات بين الأقارب والأحباب.. إن أسوأ الأسلحة تدميراً هو اللسان.. فلسانك حصانك، وان أسوأ المشاعر هي: رثاء الذات، (وهل يكب الناس في النار إلا حصائد السنتهم).

(١٠) سورة يوسف آية (٨٧).

(١١) سورة الزمر آية (٥٣).

إن توجيه اللوم للآخرين، أو تشويه صورتهم.. ما هو إلا نزوع للدفاع عن النفس الممتلئة بمركبات النقص التي تنبتها الأرض السبخة وأنت يا بنيَّ سوف تتعرض لانتقادات تصدر عن مثل هؤلاء.. فعاملهم كمرضى يحتاجون إلى علاج وعلاجهم الصفح والتسامح.

يقول الشاعر:

سأُلزم نفسي الصفح عن كل مذنبٍ وإن عظمت منه عليَّ الجرائم

أيها الابن المؤمل فيه: نصيحتي أن تقرأ هذه السطور وما بينها، وأن تسعى لإضافة كل جديد مفيد، وأنت العارف المدرك لما في نفس والدك. كما أنك المعروف لدى الأقارب والمعارف بما حباك الله من خُلق وصِلَة رحم، وبذل للجهد والنفس لمن عوَّل عليك.. وأطلب منك مزيد صبر وتضحية وجلد.

فمن كانت بغيته بناء مجد ذاتي أو أسري أو وطني لذَّت عنده التضحيات، فالارتفاع للأعلى والسمو نحو الأسمى يحتاجان إلى جناحي صقر قادرين على التحليق أما جناحا الفراشة فلا يحملان حتى الهباء.

وفقك الله يا بنيّ وأعانك على إكمال المسيرة النبيلة التي تتطلب الفأل الحسن لأن اليأس كفران وجحود، وحدة الطبع والغضب قتل لفضائل النفس، والحقد تشويه لجمال الطبيعة والخلقة.

وصدق حافظ إبراهيم حيث قال:

لا تحسبنَّ العلم ينفع وحده ما لم يتوج ربه بخلاق

١٤٢٧/٣/١٩هـ

(١٧) هــمــوم وأفكار

تداعت هواجس، وهاجت أشجان.. تلتها مشاعر أقَّضَت مضجعه، وأثارت همومه التي دفعت به إلى أن ينفرد بنفسه، مستعيداً ذكريات سلفت، ومفتشاً عن مواقف دُفنت، وعمّا بثّه بالأمس زميله في العمل من شكوى معاناته من أبنائه، وخروجهم عن سيطرته.. تساءل في نفسه: هل أنا أفضل حالاً من هذا الزميل الشاكي؟ ثم انتحى زاوية من المنزل.. بعيداً عن ضوضاء الأبناء وصوت التلفاز، أمسك بالقلم وأمامه قصاصة من الورق.. فوقف حائراً على مفترق من الطرق أيها يسلك، وقديماً قال الشاعر الشَعْبي:

أو يحتار من يختار بين الأَمَّرين إمَّا الدهر والا سيوف ازملانا

فإذا هو أمام ذكريات أعادته لسنوات خلت.. بين بؤس طفولة، ومعاناة تربية، وشظف عيش، وغياب وعي صحي وثقافي، ومراهقة وتمرد ونفور.. مروراً بشدة وعسرة.. ثم شيء من اليقظة جعلته يبحث عن مصادر العيش في ظروف صعبة.. أمام شح في الموارد، وقلة في فرص العمل.. إلى جانب قسوة الغربة والفراق، والشدة والارتحال.. عبر عقود من الزمن.. تخللتها تطلعات وطموحات.. أرَّقت راحته وشحنت ذهنه.. مُفرزةً الرغبة في تجاوز بعض العقبات والولوج عبر قنوات رسمها لخطط مستقبلية لربط (حسب قديم.. بإقامة حسب جديد).

شأنٌ يمر به كل راغب في البناء والتشييد، وكل طامح لإضافة شيء مفيد، وناظر للدخول من بوابة تاريخ أي تاريخ، وعلى الله قصد السبيل.

إن الطموح ليس حكراً على زمنٍ مُتعثر، أو زمن توافرت فيه وسائل العيش والرفاه، وإنما عشَّاقه صفوة من خلق الله.. ممن يؤثرون على أنفسهم، ويبذلون من الجهد والوقت والعطاء.. متجافين عن لَذَّةٍ زائلة أو متعةٍ رخيصة أو راحة جسدية يستعذبُها الخاملون.

لقد أقلقه وأزعجه وضع الأبناء والأحفاد الذين من بينهم مُقل في التحصيل العلمي، أو متغافلٍ عن مستقبل منظور، أو راغب في متع الدنيا، أو جانح للخلود والراحة، أو ساع لمظهر من خلال سيارة فارهة، أو قَصَّة شَعَر مبتكرة، وإهمال لمتطلبات منزل، وإغفال لخدمة والِدَيْن، وتقصير في واجبات، ولحاق بأقران سوء من الشباب، وغياب وسهر.. الخ.

نعم أزعجه ما دار في مخيلته من مشاهدته لأحداث، وقصص تروى من هنا وهناك.. فذرفت عيناه دمعة حارّة من ألمٍ وحسرة، وأخذ يشكو ويبث أحزانه إلى الله تبارك وتعالى.. وديدنه الدعاء لهم بالصلاح والفلاح.. ما كان يدري أن إحدى بناته كانت ترقبه، وكانت تتقطع عليه حسرات لهفاً وخوفاً عليه، فاستأذنته بالجلوس إلى جانبه وأخذت تلقي عليه أسئلة علَّها تهدئ من روعه.. فبادرته قائلة: لا تُحمِّل نفسك فوق طاقتها وقد أخذت منك الشيخوخة ما هدَّ قواك.. لقد بذلت جهدك في تربية ورعاية وتوجيه وتعليم، وقد أديت واجبك تجاه أبنائك، ولم يبق عليك إلا الدعاء.. فهل بقي عليك مسؤولية بعد بلوغهم سن الرشد يا أبي العزيز؟

انتظر طويلاً ثم أجاب: حسناً يا ابنتي لولا ما أرى من تقصير في واجبات دينية وأخرى سلوكية لما أتعبت نفسي في متابعة ومناصحة، وللأسف إن ما رأيتموه مني من اهتمام اعتبرتموه إزعاجاً، وما حيلتي في هذا وذاك إلا أن أغلق سمعي وبصري.

قام من زاويته بخطى مثقلة، وحرارة تغشى جسده.. بعد أن تعثر قلمه وأعجم لسانه، ثم رفع بصره إلى السماء ويداه ضارعتان ترجفان، ودعا ربه أن يصلح الحال، لكنه أضاف لشيخوخته بواعث قلق وشَجَن، وأعباء من تراكمات الزمن، ومشاغل زادت من همومه.. علاوة على ما هو فيه، وما يشاهده من تيارات وتباين في السلوكيات، ومخاطر متغيرات منتظرة.. لمستقبل تشوبه الحيرة والمتناقضات.

اللهم أصلح النية والذرية إنك على كل شيء قدير.

١٤٢٧/٣/٢٢هـ

(١٨) تجربة مُرِّة.. ورؤى ثاقبة لشيخ وقور[١٢]

الحياة بتجاربها من خلال أيامها وشهورها وسنواتها.. ممرّ واختبار، ومحك واعتبار، وإبراز لمعارف ومهارات، وبيان لنجاحات وإخفاقات.

ذات صباح يوم الجمعة، وبعد قراءة للجريدة اليومية.. خرج إلى فناء المنزل وجلس قرب زاوية من الحديقة، وبعد تناول فنجان الشاي.. سبح خياله مستيقظاً على ذكريات ومواقف درست، وأحاديث رويت وتروى.. شده منها معاناة شيخ وقور.. لديه من التجارب والمواقف دروس وعبر.

في الثمانينيات من القرن الرابع عشر الهجري تكونت له علاقة جيدة مع ذلك الشيخ الوقور، فلسطيني الجنسية.. رحمه الله، صارت هذه العلاقة سبباً للّقاء المتكرر الذي يتجدد بين حين وآخر، لقد سمع منه الكثير أثناء تجاذبه أطراف الأحاديث التي كان خلالها يصغي ويسمع أكثر مما يتكلم، ولِمَ لا فالشيخ هو العارف الذي عركته السنون.

(١٢) الشيخ: حسين حسونة.. فلسطيني.

مرض وقلة ذات يد:

حَدَّثه عن مرض أصابه في مطلع شبابه.. اضطره للسفر بالقطار إلى مدينة مجاورة طلباً للعلاج إذْ لم يكن في بلدته (اللد) طبيب في ذلك الوقت.. وبعدما فحصه الطبيب وشخَّص العلَّة كتب له وصفة دواء ليشتريها.. خاطب الطبيب بصوت خافت: هل تظن أن معي ثمن الدواء؟ وماذا يحصل إذا لم أتناول العلاج؟ فتعجب الطبيب وسكت مشدوهاً.. ثم أعطاه بعضاً من عينات الأدوية التي تقدمها الشركات دعاية لمستحضراتها الطبية، وطلب منه مواصلة العلاج بالبريد.. المريض يشرح حاله كتابةً والطبيب يوجه مريضه كتابة أيضاً.

تخلي ذوي القربى أشد مضاضة:

مضى الشيخ في حديثه عن مرضه المزمن، وعن معاناته لآلام المرض وصبره على الفقر والعوز.. فسأله صاحبنا: أين أهلك يا شيخ؟ أليس لك إخوة يساعدونك؟ فانتفض الشيخ غاضباً من السؤال الذي أزعجه، وقال قولاً فيه ردع وزجر وأسف وحزن: إخوتي!! إخوتي!! ثم خرج من المجلس وهو ينتحب فتبعه إلى مدخل الدار.. فإذا هو يخفي زفراته الحارّة ويمسح دمعته الساخنة، واساه وأعاده إلى المجلس، وعلم أنه ما كان له أن يثير أحزان الشجيّ بطرح أسئلة تنبش مخزون ذاكرته المتألمة.

هجرة صعبة:

قبل نكبة فلسطين كان للرجل أملاك وبساتين برتقال.. لكنه كالكثيرين غيره ترك أملاكه غير المنقولة بعد النكبة (١٩٤٨م)، وهاجر إلى بلد عربي مجاور وجيبه خاوي الوفاض من أية سيولة نقدية.

حَدَّثه عن مرارة النكبة وصعوبة الهجرة وقسوة الغربة.. الأمور التي اضطرته إلى ترحيل زوجته القبرصية إلى قبرص ومعها ثلاثة أولاد صغار وبنت، أما هو فقد بقي في دمشق.. ثم وجد فرصة عمل في المملكة العربية السعودية فجاء معلماً إلى مدينة المجمعة عام ١٣٦٩هـ حيث سكن بيتاً من الطين.. زوده بقربة ماء (ثلاجة تلك الأيام) كان يشرب منها.. أمَّا طعامه فكان خبزاً من تميس (إن وجد) يفته في محلول بودرة حليب (كليم) أو (نيدو) أو يغمسه في الشاي، وأحياناً ينام طاوياً ليستيقظ صباحاً ويغدو على طلابه يُعلمهم ما شاء الله أن يُعلمهم.

كانت الرواتب شحيحة في ذلك الوقت.. فقد كان ينفق جزءاً من راتبه الزهيد في شراء احتياجاته، ويرسل الباقي لأطفاله في قبرص، الذين هم أيضاً تجرعوا ذلّ الفقر ومرارة العوز، والبعد عن رعاية والدهم وولي أمرهم.

استقدام الأولاد والتضحية:

لم يَعْتَد الشيخ لبس الثوب.. بل داوم على لبس البنطال مع قميص فضفاض يغطي وركيه.. الأمر الذي جعل أهل المجمعة يقبلونه حيناً ويرفضونه أحياناً.. لكن وبعد مدة تهيأ له رجل فاضل[١٣] احتضنه وساعده على استقدام أولاده الذين قدموا عام ١٣٧٤هـ ليشرف على تعليمهم وتربيتهم.. وأهل المجمعة يعرفون الكثير عن ذلك الشيخ وعن حاله وعن طريقة خدمته لأولاده، كما يعرفون جيداً الرجل الأريحي الذي احتضن الشيخ وأولاده وقدم له كل المساعدات المادية والمعنوية.. جزى الله المحسنين كل خير.

كان الشيخ في يوم كل خميس يأمر أولاده بمراجعة دروسهم ويعكف هو على تنظيف وغسيل ثيابهم الداخلية والخارجية، ويُعدُّ لهم في معظم الأيام ما يتيسر من الطعام ليأكلوا دونما تعب.. مركزين جُلَّ وقتهم على الدراسة.

بقي الحال كذلك حتى حصلوا على الشهادة الثانوية، فالتحق اثنان منهم بكلية الطب في القاهرة وتخرجا طبيبين، أما الثالث فتخرج من كلية الهندسة بالرياض وأصبح مهندساً ناجحاً.. يعمل بإحدى الشركات الكبرى.

(١٣) معالي الشيخ: عبدالعزيز بن عبدالمحسن التويجري.

فلسـفة حياة:

أعود إلى عنوان الخاطرة (ورؤى ثاقبة) لقد قال شيخنا لصاحبنا: إنه يعتبر اثنين من أولاده ناجحين ويعتبر الثالث فاشلاً.

فكرر السؤال: هل تعنى أن المهندس فاشل؟ قال نعم. قال له صاحبنا: لماذا؟ قال: كانت لي أملاك وعقارات في فلسطين، وعندما وقعت النكبة تركتها وخرجت.. أما الطبيبان فلكل منهما مصدر رزق لا يحول ولا يزول من دماغه يفيد منه دائماً في البر أو البحر أو الجو، في الحرب أو في السلم.. أما المهندس فقل لي أنت: ماذا ينفعه فرجاره إذا تعرض لظروف طارئة قاهرة.. أطرق صاحبنا ملياً ثم فكّر وقال: ما أكثر العبر وأقل الاعتبار.. هذه رؤى الشيخ، ولكل رؤاه.. تمليها ظروفه واعتباراته.

تلك هي رؤى الشيخ الثاقبة التي ترى النجاح كما وصفه هو، أما النجاح في نظري فهو الذي يملأ القلب نوراً ينبثق منه كل فرع من فروع الخير وتتعلق به ثمار المعروف.. النجاح هو الذي يودع الطمأنينة في النفس ويسعدها، وهذا بالطبع لا يتحقق إلا بتحقق الطموح ذي الهدف السامي في الدنيا والدين.

عرض صاحبنا على ابنه الصغير رؤى ذلك الشيخ الوقور لعله يستفيد من تلك التجارب، فقاطعه الابن بكل براءة.. وأخذ بطرح أسئلة سياسية وأخرى اجتماعية وعائلية.. أثارت أسئلته أشجان والده وعقدت لسانه وجعلته يغادر المكان متشاغلاً.. لعله يخفي خواطر جياشة مثيرة لكوامن ذكريات سلفت، ومواقف موجعة، ومشاعر

لازمته منذ الطفولة وعبر سنوات العمر.. التي عاصر ورأى خلالها مختلف الفئات التي ظهر منها شواذ مُلئت نفوسهم بالضغائن وحُقنت بالأحقاد والتناقضات في الطرح والتحول في الآراء وعبث القول.. مما جعله ينزوي بغرفته ليفرغ شيئاً من مكنونه.. ويردد قول الشاعر:

ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة يواسيكَ أو يُسْليكَ أو يتوجعُ

نعم لا بد من شكوى أولاً إلى الله عز شأنه.. ثم إلى ذي مروءة وربما عزَّ ذلك فإن لم تجد فعُد إلى قلمك: قلمك الذي يؤنسك في خلوتك وراحتك، ويعطيك مساحة من السلوى والتوجع، والاستسلام لواقع الحال.. من خلال تسطيرك لأشجان تتدافع في مخيلتك.. لتفرغها على الورق.. متنفساً الصُعداء، وما هي إلا أقدار كُتبت، وحكمة إلهيّة وجبت واقتضت.. فأين المهرب.

نسأل الله الهداية والوقاية.

١٤٢٧/٣/٢٥هـ

(١٩) شيء من النجاح.. يقابله مقت واستهجان

(من أطاع هواه باع دينه بدنياه.. عِظ المسيء بحسن أفعالك، ودُلَّ على الجميل بجميل خلالك)

السيرة الحميدة، والسلوك الحسن والتعامل الجيد.. أخلاقيات مكتسبة، وممارسات يستقيها الإنسان عبر تربية ومخالطة، ويقول الحديث الشريف: العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم.

ثمة قول كثيراً ما يتردد على المسامع وتثبته الشواهد وهو أن للنجاح ثمناً وللتميز أعداء.. وهذا بلا شك يستحق الوقوف عنده، والتبصر بأبعاده، وكثيراً ما يقرأ المرء ويسمع من التشكي والتبرم من سخطٍ ونقد يُلقى على عواهنه، وتصيّد زلات وهفوات وعيوب وسقطات تهز المشاعر وتخنق الأنفاس.. الخ.

ويقول حكيم (من كظم غيظه فقد حلم، ومن حلم فقد صبر، ومن صبر فقد ظفر)

وما مسببات هذا العداء إلاَّ نزعة فطرية.. جُبل عليها ذوو النفوس الضعيفة وأصحاب النظرة الضيقة، ومعلوم أنه لا كمال للإنسان.. بل الكمال لله وحده، والعصمة لأنبيائه، ولهذا لا يخلو البشر من عيوب، وصدق بشّار بن برد حينما قال:

ومن ذا الذي تُرضي سجاياه كلها كفى المرء نبلاً أن تُعدَّ معايبه

ما من شك أن للنجاح والتميز ضريبة، وعلى صاحبهما حقوق وواجبات، وعليه أن يرعاهما ويعترف بقصوره وتقصيره.. كما أن عليه التماس العذر للآخرين على تطاولهم عليه، وتجاوزهم حقه، وألا يترك التواصل معهم وألا يذكرهم إلا بخير.. شاكراً لأنعم الله.. صابراً محتسباً.

يقول الشاعر العربي:

إذا أنا كافأت الجهول بطيشه فهل أنا إلا مثله إذ أحاوره
ولكنْ إذا ما طاش بالجهل طائش عليَّ فإني بالتحلم قاهره

النجاح والتميز نعمتان من نعم الله، وكل ذي نعمة محسود، لذلك لا غرابة أن نرى جنوح فئة من البشر لزرع بذور الفتنة والشقاق، والانشغال بمعوقات الآخرين وأذيتهم.. فهذه أمراض منها الموروث الذي يُروى سيِّئُه للناس بصورة مثيرة تُنمي لديهم بذور الخلاف والتباعد، ومنها المكتسب الذي تُشحن بسقطه الأنفس بالتحريض والتقويض، وما ذلك إلا فيض من رواسب شواذ البشر وغرائزهم التي أصبحت هِواية للاستمتاع وليت أوقاتهم تذهب هدراً لكنهم يملؤونها بالإساءات والإفساد.

يقول الشاعر:

صبرت على ما كان بيني وبينه وما تستوي حرب الأقارب والسِّلمُ
فيشتم عرضي في المغيَّب جاهداً وليس له عندي هوان ولا شتمُ
وصبري على أشياء منه تريبني وكظمي على غيظي، وقد ينفع الكظم

ما أكثر ما يواجه المرء في حياته اليومية من المتناقضات في القول وإطلاق السهام الطائشة التي يسمع بها في غيابه، ويراها في حضوره.. قد يمتعض منها زيد.. لكن عمراً يستقبلها بروح رياضية لقناعته بأنها كاشفة لواقع حال طرفين، ومحققة للانطباع الذي سَيَأخذ به الطرف الثالث.

تُرى كيف ستكون المعادلة بين صورة ناقد حاقد.. أي بين من يريد (تشويه صورة - حصيلته منها- خسران محقق)، وبين صورة منقود مسالم (له ذِكْرٍ حسن ورصيد يُخلَّد).. يا لها من فروقات بين غياب عقل وحضور ذهن.

نسأل الله العصمة والهداية، وسلوك الطريق المستقيم.. اللهم آمين.

١٤٢٧/٣/٢٧هـ

(٢٠) نجابة ابن.. وتجارب أب

نعم الإله على العباد كثيرة وأجَلُّهُنَّ نَجَابَة الأولاد

هو في سن المراهقة.. لكنه يتمتع بنظرة عاقل مجرب، وَتَطَلَع لغدٍ مشرق جميل.. كثيراً ما يطرح على والده أسئلة لافتة للنظر.. يرى الأب أنها كبيرة قياساً مع سنه الذي لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره.

السؤال الذي أرَّق والده وأثار كوامن النفس.. هو: ما هي قواعد النجاح الاجتماعي وسلوكياته يا أبي، وما هي كيفية علاج نزع فتيل الخلاف إن وجد؟

سؤال حَرَّكَ بداخله مخزوناً من تراكمات الأيام والسنين، وسلسلة من المعاناة والهموم.. مما جعله يُعيد النظر في حساباته.. أخذ يتململ في مكانه وينظر إلى ساعته.. ثم استنشق نسمة من الهواء المشبع برذاذ تطاير من زخات المكيف الصحراوي.. ليتنفس الصُّعَدَاء مُتحفِّزاً لصياغة إجابة متحفظة.. يروي بها ظمأ ابنه اليافع.. وبعد تفكر وتدبر قال:

إن النجاح والفشل وما بينهما من تجاذبات.. أمور تشغل بال كل مُتطلع لمكانة اجتماعية.. سواء كانت قبلية أو أسرية، أو عائلية، أو فردية، والتاريخ شأن مهم لأجيال فانية طواها النسيان، وأمم حاضرة

ساعية لتحقيق مجد ورُقي، وأبناء وأحفاد قادمة.. تبحث عن موروث من الأخلاق والقيم والمآثر.. ليتواصل العطاء والبناء، ويستمر العمل بالتعاون والتدارس، ورسم خطط استراتيجية يتبناها شخص أو أشخاص، يحملون على عواتقهم الهم العام ويصبحون القدوة الحسنة بين جماعتهم..

إن تباين الرؤى والمفاهيم المختلفة للإصلاح هي ظواهر من المسلمات الطبيعية التي يجب أن نعترف بها وألا تعوق المسيرة.. بل يجب الأخذ بمكمن الخطورة من الإخفاق في كيفية المعالجة التي تحتاج إلى تشخيص الحالة.. ثم تأتي الوصفة الطبية بعد تطبيق الخطوط العريضة والتي منها:

- الدعوة للحوار والمجادلة بالحسنى.
- نكران الذات، والتواضع الجم.
- قبول النقد في التقصير والأخطاء.
- التواصل والصلة، والثناء والرضا.
- معالجة دواعي التكتل والنفور.
- الاحتواء ما أمكن للكبير والصغير، والإخوان والأخوات، وحث من حولنا لتقديم الانطباع الحسن.
- التنازل والتسامح والعفو والصفح.
- استشراف معالي الأمور والترفع عن سفاسفها.

أنصت وحيد والديه للجواب وكله شوق لسماع المزيد.. ثم بادر بسؤال آخر: وكيف لنا بمجموعة وصايا، وعدد ممن ينبغي احتواؤهم؟ فكانت إجابة الوالد بعد أنَّة مصحوبة بزفرة حارّة أن تمثل بقول الشاعر:

ما زلت أبحث عن خلٍ يواسيني فما وجدت سوى الآلام تنتظر
يلوح في أفق الأيام طيف ندى يَبُل هادي الحشا والقلب يعتكر

وبقول الآخر:

وما كل فعَّالٍ يجازى بفعله ولا كل قوَّالٍ لديّ يجابُ
ورُبّ كلام مرَّ فوق مسامعي كما طنّ في لوح الهجير ذبابُ

الأدهى من ذلك يا بني: مسايرة إفرازات زمن طويل هو عمر الإنسان وهمومه، وماذا سيأتي بعد؟ ومن سيرفع الراية ويرعاها، ويأخذ بأسباب مسيرة القافلة.. لن يتحقق ذلك إلاَّ باتخاذ خطوات محسوبة فيها من الجهد والصبر والسخاء ما يساعد على تجاوز العقبات.

إن الحلم والصبر والاحتمال، والبذل والعطاء والتضحية والتسامح.. هي مسالك الشرفاء وطرق النبلاء.. غير أنها وسائل باهظة الثمن صعبة المنال إلا لمن يسرها الله له.. ثم أين نحن من قول المقنع الكندي:

ولا أحمل الحقد القديم عليهمُ وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا
لهم جُلُّ مالي إن تتابع لي غنى وإن قلَّ مالي لم أكلِّفْهُمُ رِفْدا

ذاك هو الترفع عن الضغائن والسمو نحو الفضائل، وتلك هي التضحية النفيسة بالمال النفيس، ولعل ما استشهدت به وقلته يزودك يا بني ببعض الوصايا التي تحتوي بها القاصين والشاردين.

ولعل فيما أسلفت جزالة معنى وصواب رأي وحسن توجيه، وما أكثر الوصايا والحكم والعبر، لكن المهم الاعتبار، ويا ليتنا نرتوي من هذا المعين ونقتفي آثار الندرة من أسلافنا، ونحافظ على موروثنا ومكتسباتنا التاريخية المليئة بالمفاخر والإيثار. إن البدء بمحاسبة النفس وتطهيرها من دنس الأهواء ودرن الأحقاد.. هو طريق مؤكد لتحقيق السعادة وجني الثمار.

اللهم ارزقنا سلامة النية ونبل المقاصد.. إنك سميع مجيب.

١٤٢٧/٤/٦هـ

(٢١) طغيان.. ونكران

ألا.. ليت شعري.. ماذا أقول والأفكار تتناثر، والخواطر تتوارد، وأنا حيران بين مُشَرِّق ومُغَرِّب، وتيارات من الأهواء وميول النفس وأكدارها.. المشحونة بملوثات الجو ونفايات القوم، وبمن زُيِّنَ لهم سوء أعمالهم فرأوها حسنة.. ذلك الكدر الذي تراكمت رواسبه، وتعكر صفوه.. أمام وارد بمواشيه، ومرتوٍ لأهله وقومه، وعابر سبيل.

هكذا الحياة لا تصفو مشاربها ولا تستقر على حال.. كانت له القيادة والرئاسة في قومه.. ورثها كابراً عن كابر.. اتصف بالحكمة والعدل والإيثار، وقد أعطاه الله بسطة في المعرفة، ووفرة في المال.. إلى أن نشأت ظروف تَحَمَّل تبعاتها وقام بمؤونتها فتضاءلت موارده، وقل أنصاره مع أنه لم يرزق بولد.. على عكس بني قومه وعشيرته الذين اتسعت رقعة أملاكهم وزاد تِعداد أبنائهم، وصار لهم بروز ونفوذ.

لقد كشف هذا الثراء وازدياد عدد الأبناء عن مكنون تعسفهم وظهور طغيانهم.. مما غيَّر شيئاً من سلوكياتهم، وطُرق تعاملهم مع قائدهم الذي كانت له اليد الطولى في منهج حياتهم، وتجنيبهم مزالق الحروب والمشاحنات مع مجاورين ومنافسين وذوي أطماع.. إلى أن وصلوا إلى ما وصلوا إليه من مكانة مرموقة بين القبائل، وقد بلغ بهم التنكر والجحود إلى تهميش هذا القائد والحد من تحركاته وسيطرته.

رزق في الستينيات من عمره بمولود وحيد.. ظهرت عليه علائم النجابة والنبوغ من صغره، وصار هو حديث القوم ومحل إعجابهم لما يتميز به من خصال طيبة وسلوك فذ، وما يتوقعون له من مستقبل مشرق وريادة وقيادة.. مما ولَّدَ غِلاً ضد هذا الابن من أبناء العشيرة حسداً وكرهاً، وأصبح يلاقي مضايقات وإثارة بين وقت وآخر، ووالده يروضه على الصبر والاحتمال والتغافل والتسامح.

كان يعجبه قول شاعر فيردده:

تمنّيتُمُ أن تفقدوني، وإنما تمنّيتمُ أن تفقدوا العزَّ والمجدا
إلى الله أشكو عُصبةً من عشيرتي يُسيئون لي في القول غيباً ومشهدا

وذات يوم كَثُرَ فيه ورود الإبل على الماء، والكل منشغل في السقيا.. كان أحدهم يُدلى دلوه في البئر وشقيقته تقتفى أثر السانية.. فألقى هذا الشقيق نظرة إلى النزل، ورأى أمير القوم المهمش جالساً وحده يرسم خطوطاً على الأرض، والابن ووالدته تُسَرِّح شعره.. فَقَدَحَتْ عيناه شرراً مضمراً شراً لذلك الابن، وإذا بمرور شاب يُدعى عائض فيه شيء من القصور العقلي.. فطلب منه أن يحثو تراباً على رأس ابن الأمير.. لقاء سقياه حليب ناقة من إبله.

فما كان من هذا المعتوه إلا أن ملأ كفيه بحفنة من تراب.. وألقاها على رأس ابن الأمير.. فوثب الابن لينقضَّ على المعتوه.. وهنا جاء دور الوالد الذي نهر ابنه وزجره، ثم طلب من المعتدي أن يأتيه ليُسلِّم عليه، وأخذ يطمئنه ويشكره على تصرفه، ويسأله: من أشار عليك بهذا الفعل؟ فحكى له المعتوه شيئاً من أمر الحاقد المحّرض، وأنه سَيُسْقِيه شربة من حليب ناقته.

كبر الأمر وعظم في نفس ذلك الشيخ المقهور، وما وصلت إليه الحال من التعدي السافر عليه وعلى ابنه أمام ناظريه دون أدنى سبب، وما حيلته وهو يرى انحسار من حوله وتركه في الميدان وحده ثم الاعتداء المهين وممن؟.. من أقرب الناس إليه (عشيرته وقومه).. وما شيخنا الوقور إلا بشر من جملة البشر يعتريه الضعف الإنساني فتثور فيه نزعات الشيطان.

لقد فكَّرَ ونَظَرَ وأَضْمَرَ شَراً.. فجمع بين الحكمة، والمكيدة التي لم تكن من صفاته.. بل أُرغم عليها.. فأمر زوجته أن تُعدَ قرصاً جمرياً لعائض نظير فعلته، وطلب منه أن يُتحف القوم بحركة تضحكهم، وذلك باقتفاء أثر سائِقة السانية شقيقة ذلك المُحرض.. ليرفع ثوبها من أسفل ويُغطي به رأسها لتنكشف عورتها.

سارع عائض وقام بهذه الفعلة التي أضحكت الحضور، لكنها أثارت غضب شقيقها.. الذي اندفع متهوراً فضرب عائض بخنجره.. الأمر الذي دعا إلى استنفار واشتباك بين طرفين.. ضرباً بالعصي وتشابكاً بالأيدي، واستعمالاً للسلاح الأبيض.. حاول الابن المحثو على رأسه التراب أن يفضّ النزاع.. فزجره والده قائلاً: دعهم، ليعترك (العير مع العير) حتى يطلبوا الصلح منك.

سالت دماء ووقع أكثر من ضحية، وانقسم القوم إلى فئتين، وجاءت حاجتهم لدور ذلك الأمير المهمش ليسعى بصلح وليفرض الديات، ويوقع العقوبات، وتكون له كلمة الفصل، والريادة والسيطرة.

تُرى.. ماذا تخرج به أيها القارئ الكريم من هذه القصة، ومما فيها من موقف، وهل لنا أن نتبين جوانب من حياتنا اليومية، وماذا عسى أن نتخذه من مسار يجنبنا الانسياق وراء مثيري الفتن وتعسف السفهاء، وماذا يجب علينا حيال ردعهم، والأخذ على أيديهم ومناصحتهم، وكذا البعد عن الانتقام، والعمل على ممارسة فضيلة التسامح والترفع والعلو عن سفاسف القول وعشوائية التصرف.

هدانا الله لما يحبه ويرضاه.

١٤٢٧/٤/١٠هـ

(٢٢) صراع الموارد

تحلو لصاحبنا جلسات السمر وما يتخللها من طرح مواضيع يتم نقاشها بشكل أخوي تتناول أموراً اقتصادية واجتماعية، وقضايا أُسرية ونزاعات قبلية.. الخ.. ذات ليلة وبعد جلسة طال الحديث والحوار والجدل خلالها.. عن إشكاليات كانت تحدث بين قوم وقوم، وعن غزوات بين قبيلة وأخرى، وعن سلب ونهب وهجاء وقتال في جزيرة العرب.. أخذت من اهتمامه، فأعمل فكره.. وتساءل: لِمَ كان هذا الصراع ولمصلحة من؟

تنحى جانباً بزاوية من المنزل وأخذ يُحلل ما دار من حوار عن بطولات وأحداث، وما يُروى من أمجاد وقِيم سطرها التاريخ.. بإعزاز وإكبار.

انتهى به تفكيره إلى المقارنة بين: قوم لا سراة لهم..تسودهم الفوضى والفتن وشريعة الغاب، وبين آخرين فيهم مُصْلح صاحب رسالة وأمانة.. داع للوحدة والاتحاد ورافع كلمة التوحيد، وعامل على استتباب الأمن والأمان، وساع لرغد العيش والاستقرار، وبناء وطن حضاري متطور.. (شتان بين هؤلاء وهؤلاء).

إن استعراض العضلات، والتغني بالفتوة والشجاعة والإقدام بلا ضوابط، والسطو علانية على أدباش ومواشي الآخرين، والقيام بالسلب والنهب.. كان ذلك في زمن غابر مصدر فخر وسؤدد، وأحاديث تروى

شعراً ونثراً، كذلك كان فرض السيطرة وغمط الحقوق، والدخول في معارك ونزاعات خسارة للأطراف المتنازعة، وكما قيل (المنتصر في الحرب خسران).

تذكر أنه سمع مرة في أحد المجالس القصة التالية وهي قصة تعكس صورة مجتمع قبلي يسوده التفاخر والتنافر.

كان رجل مع ابنيه.. يرعون إبلهم في الفيافي والقفار.. ينتقلون من مرتع إلى آخر، ويحمونها من الغير.. وكان لهم وِرْد على إحدى الآبار.. لسقيا إبلهم، والتي عادة ما يكون التنافس حولها على أشده.. لشح مصادر المياه، والتزاحم على الموارد.

وبعد شروعهم في السقيا.. قَدِمَ نحوهم ثلاثة نفر.. أخذوا يزجرونهم ويطلبون منهم الابتعاد عن البئر ليسقوا إبلهم أولاً.. فتحفَّز الإخوان للرد عليهم القول والاستعداد للمواجهة إذا لزم الأمر.. فما كان من الأب إلا أن أمر ابنيه بسحب عِدَّتِهم وإبلهم عن موقع البئر.. الأمر الذي أزعج الابنين فامتعضا وجادلا أباهما لكن الوالد الحكيم.. أقسم عليهما أن ينسحبا.. فنفذا رغبة والدهما على مضض وألم.

بعدما شرع هؤلاء الثلاثة بالسقيا رافعين عقيرتهم بأهازيج الغناء، ونشوة الانتصار، وإذا بمجموعة أخرى من الرجال قادمين لسقيا إبلهم.. فما كان من هؤلاء الثلاثة إلا أن بادروا القادمين بالردع والشتم وغليظ القول.. الأمر الذي أوجد جدالاً ولغواً ثم تشابكاً والتحاماً، وبعد جولات من الصراع، شردت الإبل ووقعت إصابات، وترك المتخاصمون الموقع وشرعوا في جمع شتات إبلهم، ثم هربوا خوفاً من الوقوع في أمر أسوأ.

هنا جاء دور الأب.. ليضرب مثلاً، ويؤكد أصالة رأي وحكمة شيوخ ودرء المخاطر، وكما قيل: (الرأي قبل شجاعة الشجعان)، وقال: الآن يا بُنَيَّ طاب لكم المقام، وتحقق لكم السلام.. فامضيا لسقيا الإبل، وحافظا على علاقة قُربى وصلة رحم، وتعلموا كيف تدرؤون المخاطر.

كانوا أصحاب وطن، تجمعهم قبيلة، ويقربهم جوار وتشدهم مصلحة مشتركة.. لكنهم تنكبوا الأصالة واضعيها خلف ظهورهم فوقع ما وقع بين الفئتين المتخاصمتين ونجا الأب وولده بالحكمة وأصالة الرأي.

وعادت به الذاكرة لما قبل العقد الثالث من القرن الرابع عشر الهجري، وما اعترى تلك الحقبة من الفوضى، والانفلات الأمني، وانتشار الأوبئة، وتفشي الجهل والمرض، وانعدام مقومات الحياة العصرية من تعليم وصحة وبناء وتنمية.

تواردت في مخيلته هذه الخواطر.. لا حباً في نقد وضع كان قائماً، وتقاليد كانت سائدة، وإنما رغبةً في أن يفتش عن عقول ورموز كانت لها القيادة والسيطرة.. أين هي وأين سعيها لجمع الكلمة ولمّ شمل مجتمع صالح طامح، وبناء كيان راسخ.. فهل من قلة، أو أنه خوف من عوائق ومثبطات.. أم أنه غياب وعي؟ وما ذلك إلاَّ أقدار كتبت وأحداث وقعت معروفة للكبير والصغير.

وبتوفيق من الله تأتي النقلة الحضارية المتميزة.. التي جاءت بعد جهاد وكفاح وعسر وشدة.. عانى من أجل تحقيقها قائد مظفر وسياسي محنك، ومجاهد نذر نفسه لخدمة دينه ووطنه ومواطنيه.. هذه النزعة القيادية الوطنية لم تكن عرضاً أو حدثاً طارئاً.. إنها بذرة

موروثة، وغَرْسَة جاءت في أرض خصبة.. أينعت ثمارها وآتت أُكلها.. بفضل الله عزَّ شأنه ثم بفضل القائد الباني.. جلالة الملك عبدالعزيز طيب الله ثراه وأصلح عقبه، وأدام عزهم، وأسبغ على الأمة نعمة الأمن والاستقرار.

١٤٢٧/٤/٢٠هـ

(٢٣) نساء.. طامحات شامخات

في يوم خميس، وهو في طريقه من الرياض إلى حوطة سدير.. لتلبية دعوة من رئيسها، ذلك الرجل الشهم كريم الشمائل[١٤].. خامرته بارقات فكر تنثر ورودها تحت ضوء الشمس بألوان زاهية.. فاستعرض شريطاً عن مشاعر ومشاهدات، وعما يملأ مسامعه من أحاديث تُروى.. عن قِيمٍ وأخلاق ومواقف وتضحيات.. لأُسر وأشخاص.. حاضرة وبادية.

وفي ترجمة تلك البارقات عرضت أمام ناظريه مفاخر تحط من قدر قوم وترفع شأن آخرين، ومغالطات وتباين في الآراء، وغمط حقوق وجحود ونكران، وتحقير لمواقف نبل وسؤدد، وقد دفعت به رؤاه إلى استهجان مثل هذه المشاهد فخطرت له أبيات من الشعر الشعبي للشاعر: بداح العنقري.. أخذ يردد بعضها:

وراك تزهد يا ريش العين فينا ... وتقول خيَّال الحضر زين تصفيح
ترى الظفر ما هو للضاعنينا ... أمقسم بين الوجيه المفاليح
البدو واللي بالقرى نازلينا ... كلٍ عطاه الله من هبة الريح
يوم الفضول بحلتك شارعينا ... والقوم باخوانك سواة الزنانيح
يوم انكسر رمحي جذبت السنينا ... وادعيت عنك الخيل صم مدابيح

(١٤) الشيخ: صالح بن سليمان الزكري.

نعم الطيب مقسّم بين الوجوه المفاليح.. كما أن الحكمة ضالة المؤمن، وصِفَات المكارم والرجولة وعلو الهمة ليست وقفاً على قوم دون آخرين.. كل عطاه الله من هبة الريح.

لم ينس ما طُرح ليلة البارحة من أحاديث عن الجنس الآخر.. عن نساء وبطولاتهن ومواقفهن وآرائهن السديدة، نعم أعجبته قصة مزنة بنت منصور المطرودي عندما وقعت غارة على أدباش ذويها بقرية (العوشزية) بالقرب من مدينة عنيزة أثناء صلاة الجمعة، فواجهت وجابهت وقاتلت وأعادت الإبل والغزاة مخفورين.

لم ترق لأحد الحضور في تلك الليلة قصة مزنة فتبرم وقلل من شأن المرأة وأخذ يروي السلبيات وينفي الإيجابيات وهنا أبدى رجل معروف بالوسطية في الطرح، مؤكداً أن الطيب يكون في النساء كما في الرجال وما أكثر النساء العظيمات في تاريخ مجتمعاتنا، فالمثالية، والعظمة، تحلى بهما عدد من الأفذاذ رجالاً ونساء.. ثم حكى فقال: أتعرفون حكاية تلك المرأة التي كان لأبيها وإخوتها الثلاثة رئاسة وريادة والذين عُرفوا بالذود عن الحياض والبذل والعطاء.. أتعرفون أنهم تعرضوا لغزاةٍ أغاروا على إبلهم، وجرت معركة حامية الوطيس شارك فيها الموالي والحاشية، وكانت النتيجة هزيمة الغزاة لكن والدها وإخوتها الثلاثة، قتلوا وماتوا، نعم رحل الأب وأولاده.. وتركوا لها إرثاً صعباً وحملاً ثقيلاً.. فمن للقيادة، ومن للأمجاد، ومن لِمكارم الأخلاق.. لقد تركوا فراغاً كبيراً وكبيراً جداً.

عظمت مصيبة تلك الفتاة التي تتوقد حماساً وشموخاً، فأخذت تفكر كيف تعيد مكانة أهلها الاجتماعية، فلم تر ذلك كارثة ولا عقبة فبالإرادة والعزيمة تتحقق الغاية، ولذلك قررت أنه لا مناص من تنصيب نفسها محل أبيها ففعلت ثم قامت بشؤون العشيرة.

تحلّت بإرادة قوية صلبة، وحققت نجاحاً باهراً سارت بأخباره الركبان.. الأمر الذي دفع كثيراً من عِلية القوم للتقدم لخطبتها، ولكنها كانت تعتذر للخاطب تلو الآخر.. فما كان من أحد أقاربها المسنين إلا أن جاء إليها مؤنباً وحاثّاً لها على الزواج.. طمعاً في أن ترزق بمولود يتولى رعايتها ويبهجها في آخر حياتها.. أنصتت للناصح ثم سألت: (هل الولد المنتظر إنجابه سيحمل اسم أبي أم اسم أبيه؟) فأجاب: إنه سيحمل اسم أبيه. قالت: إذا كان ذلك فلا أريد زواجاً إلا من رجل يحمل اسم عشيرتي.

وتسترسل القصة...

كانت العادة السائدة لدى بعض البوادي وليس الكل.. إذا مرض أحدهم بمرضٍ معدٍ، تُخْشى منه العدوى.. فإنه يُترك بمنزلهم عند رحيلهم ويبقون له شيئاً من المؤونة.. أما الذي به مس من جنون أو ضَعْفٍ عقلي.. فكان الخلاص منه أن يصطحبه أحد التجار إلى مدينة ما ويتركه هناك لتنقطع به السبل.

تَذَكَرَت صاحبتنا ابن عم لها يعتريه شيء من القصور العقلي سبق أن تُرك في بغداد.. فأرسلتْ أحد الموالي للبحث عنه وجلبه، وأبلغت قومها بأنها اتخذت قراراً بالزواج منه.. لا حُباً له ولا رأفةً بحاله، وإنما

طمعاً في أن ترزق بأبناء يحملون اسم العائلة ويقومون بواجب القيادة والرئاسة.. فكان لها ذلك، وبعد ما رزقت منه بثلاثة أبناء طلبت من المولى الذي جلب ابن عمها إعادته إلى بغداد.. فاهتمت بتربية أبنائها وتدريبهم حتى بلغوا شأناً بين القبيلة، وكانت لهم الكلمة والريادة واستعادةِ مجد الآباء والأجداد.

لا شك في وجود النوادر من الرجال ومن النساء، ويَذْكر لنا التاريخ العربي الإسلامي المشرق كثيراً من النساء اللواتي نضَّرن وجه التاريخ.. أمثال أم عمارة، وأسماء بنت أبي بكر، والخنساء، وخولة بنت الأزور، وغيرهن، وما أرى بطلة قصتنا هذه إلا واحدة من النساء العظيمات الجليلات، فقد كانت خير خلف لخير سلف.

بطلة قصتنا كانت قائدة رائدة مدبرة ذات رأي حصيف أثبتت في القيادة والريادة جدارتها.. كانت مضحية بعيدة عن الأنانية.. ضحت بشبابها وصباها وتزوجت بمريض من أبناء عمومتها لتحفظ مجد أسرتها وعشيرتها فحمل الراية ولدها وهو أحد أبناء العشيرة.. كانت مربية اعتنت بأولادها فصدق وصف حافظ إبراهيم عليها عندما قال:

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

أبعد هذه الشواهد والقصص عن العظيمات من بناتنا نجد من يقلل من شأن المرأة وهي الأم والأخت والبنت والزوجة المربية.. كفى سلبيات.

٢٧/٤/١٤٢٧هـ

(٢٤) نعم: هناك شيخوخة بائسة

ألم ينهك الشيب الذي حلّ نازلاً؟ وللشيب بعد الجهل للمرء رادعُ

أخذ يخط بعصاه على الأرض خطوطاً متوازية.. سارحاً في متاهات من الأحلام والرؤى.. شأنه في ذلك شأن نظرائه بعد أن طوى عشرات السنين الحافلة بمشاهد من إنجازات ومواقف، وما يروى من صولات وجولات لأمم سطرها التاريخ وحفظها الرواة.. صار له منها حديث واستمتاع بذكرها.. أعادته إلى طوفان من الذكريات والمواقف التي اعتصرت قلبه وأسالت دمعه.. بدأت أعراض العجز والهرم تنهش جسمه النحيل، وتقاصر نظره، وقل سمعه، وزاد هزاله، وشعر بشيء من غربته وهوانه بين أهله وقومه.. كل ذلك بسبب هرمه.

تَذَكَّر أياماً كانت له فيها القيادة والرئاسة والفصل في القضايا وفض المنازعات والرأي والمشورة.. وذهبت به أفكاره يمنة ويسرة.. محلِّقةً به في الآفاق من التخيلات والمواقف والقِيَمْ، وأساطير من المرويات، وأحاديث المجالس عن تقويم أضغان النساء وتباين طباعهن، وعن قول أحد الشعراء في رثاء زوجته:

قالوا تزوج كود تدله اوتنساه قلت آه لو أخذت أربع ما نسيته

فيعود ويقول لنفسه: إن صراعات الحياة وميولها وتقلباتها.. متعددة الأوجه والمناشط، ومهما كان لها من رفعة ورقي وسلطة

ونفوذ.. فإنه يُقابل هذا شيء من الانحدار والهبوط، ونكران وجحود، وإذا تحسّن منها جانب ساء جانب آخر، وتتفاوت مقاييس المعاناة من طبيعة القضايا، ومصادر القوة والضعف، ومن القدرة التحملية لدى الإنسان، وهذه التصرفات ليست وقفاً على أصدقاء وأعداء ومنافسين.. إنها فيروس مرضي.. قد يأتي من الأباعد أو من عقر دارك، من الأقارب وهذا هو الأدهى والأمّر.

وقديماً قال حميدان الشويعر.. قصيدة، منها:

ترى الشايب عند عياله وأم عياله مثل الغربي
مِنَوَّل تقول له لبيه واليوم تقول له وش تبي
لو يطلبها ردة لقمة تقول مخلي يا ها الصّلبي

حميدان الشويعر.. ذلك الرجل الشاعر الفحل.. الذي دخل التاريخ من أوسع أبوابه، وخاض معارك هجاء ونقد لاذع مع قيادات سياسية وقبلية، واجتماعية، وتَعَرضَ لتهديد ووعيد وتشريد.. يُصارع تيارات من عناصر القوى برباطة جأش وثبات وصراحة في القول.. تؤول به حال المرض والهزال والعجز إلى هذه القسوة في المعاملة والمعاناة والشكوى من أقرب الناس إليه من أهله وذويه، وهذا شاعر شعبي آخر يشكو ويتبرم من أبنائه الذين تناسوا رعاية وتربية وعطاء، وعناية وحدباً وتضحيات يقول:

طيري غذيته فرخ وارجيه قرناس وامسح على ريشه بكفي وماري
يوم احرز الصيدات ما ردلي راس لعله طريقه لو يصيد الحباري

وها هي الحال تؤكد أن لكل قوة ضعفاً، وأن لكل هيبة انحساراً وزوالاً، وما أكثر من لاقيت، وشاهدت، وسمعت.. من يقاسي من هذا السلوك المهين من الكثيرات من النساء.. ممن كفرن العشير، وتناسين ما بُذِل لهن من سخاء، ورعاية وقِوامة.. ومعاناة المعانين ليس من الزوجات فقط بل من الأولاد.

ولا يفوتني هنا أن أُشير إلى الجانب الإيجابي والإنساني للنساء فهن شقائق الرجال ومربيات الأجيال، وعامرات البيوت، وصدق من قال: (إن وراء كل عظيم امرأة).. لذلك منهن الصالحات الطيبات ومنهن الطالحات.. وحيث إن منهن من تولت القيادة في قومها وأجادت، وأُخريات حافظن على قِيم من موروثات آبائهن وأزواجهن، ومنهن من زهدن في الزواج والإنجاب من أجل رعاية والِدَيْن وإخوة، ومنهن من أقمن بيوتاً وحافظن على تاريخ.. لذلك لا يجوز التعميم.

أما عقوق الأبناء فلا يقاس على حالة وأكثر، والأحسن أن نتذكر دائماً أنّ ثمة آباء يعينون على البر وآخرين يعينون على العقوق.

قال تعالى: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً﴾[١٥].

والخطأ قد يقع من المرأة أو الرجل ومن الابن أو البنت وليت كلا يراجع نفسه ويقف عند حده.

اللهم الطف وسامح.. إنك غفور رحيم.

(١٥) سورة لقمان آية (١٥).

١٤٢٧/٥/١هـ

(٢٥) ندرة من النساء

الندرة والنوادر، والميزة والتميّز.. أوصاف لها عشاقها وروادها، ولتلك أعباء وأحمال ثقال، وطرق شاقة تستلزم توفر إرادة صلبة وتطلعاً إلى العلا وسعياً حثيثاً لتحقيق تلك الطموحات.

يحلو الحديث عن مشاهير من النساء وما حققن من سِيَر ومواقف وتضحيات، لقد مرّ بخاطرة سابقة.. عن نوادر من النساء وبطولاتهن (رأياً، وشجاعةً، وتضحيةً، وحسن تصرف).. فتواردت خواطر أشبه بعربات قطار تتتابع، ولعلي أقف ممعناً النظر في مسار إحداهن.. تلك المرأة التي جمعت بين أصالة الرأي، والتضحية في سبيل سمعة أسرتها، والمحافظة على تماسك كيانها ومواصلة بناء فوصلت مجداً بمجد.

هناك رجل توفيت زوجته وله منها ولدان صغيران.. كبرت مصيبته وعظمت مهمته، وآلى على نفسه ألاّ يتزوج حتى يتجاوز ولداه مرحلة الطفولة.. ليتولى بنفسه رعايتهما وتربيتهما.. فكان له ذلك، وبعد بلوغ أصغرهما الرابعة عشرة من عمره تزوج امرأة من بيت كريم.. رعت شؤون منزله، وكانت خير خلف لخير سلف.

رزق منها بولد وابنتين.. زاد نشاطه التجاري، وصَلُحَت أموره بامتلاكه قطيعاً من الماشية وعدداً من الإبل، وصارت له وجاهة لدى قومه وجماعته.

عَاجَلَهُ أَجَلُهُ، وخطفتهُ يد المنون مخلفاً قُصَّراً وامرأة غريبة عن الأسرة فاستولى ابناه الكبيران على موروث الأب من الماشية والإبل.. مُتجاهِلَيْن إخوةً لهما (زغب الحواصل لا ماء ولا شجر) وشرعا في موجة طفرة المزارع وقروضها.. منشغلَيْن أو متشاغلَيْن في دوامة مشاريع زراعية وأرباح منتظرة.

جاء دور أخوال الصغير فحاولوا تحريض ابن شقيقتهم لمطالبة أخويه بحقه وحق اختيه من ميراث أبيهم، وتقديم شكوى ضدهما لولي الأمر.. لكن الأم استنكرت هذه المشورة من إخوانها وهذا التحريض لإشعال نار الفتنة بين إخْوان، ثم طلبت من إخوانها الانصراف وعدم التدخل بين ولدها وبين إخوته من أبيه.

افتقرت الأم وصبرت وتحملت وتجملت وبعد زمن أشارت على ابنها أن يبحث عن مصادر الرزق بالسفر إلى الكويت ليلتحق بجماعة له هناك كي يُساعدوه في الحصول على وظيفة، وتحققت له هذه الأمنية فتعيّن بوظيفة جندي، وبعد سنة من غيابه.. جاء في زيارة حاملاً لوالدته وشقيقتيه بعض الهدايا، وبعد الفرح وحسن الاستقبال.. سألته والدته: أين هدايا أبناء أخويك؟ عليك بصلة الرحم.. فوعدها أنه لن ينسى ذلك في الزيارة القادمة إن شاء الله.

ومضت سنوات تحسنت خلالها أحواله حيث حصل على مصدر دخل خلاف راتبه.. لقد تعاطى البيع والشراء بمعارض السيارات.. مما مَكَّنه من نقل والدته وشقيقتيه إلى الكويت وتطور وضعه المادي والمعنوي والاجتماعي.

أما أخواه لأبيه فقد ساءت أحوالهما إذ لم يوفقا في مشاريع الزراعة نتيجة لعدم الخبرة والإهمال مع سوء النية والمسلك وربما لاعتمادهما على عمالة سائبة جاهلة ولسوء إدارة.. مما ضاعف الإنفاق وقلل الإنتاج.. ثم تراكمت الديون عليهما التي أثقلت كاهليهما، فطوردا ولوحقا من الدائنين.

ذات يوم أبلغته والدته أن ظروفاً مالية صعبة تمر بأخويه، فأحدهما مسجون بمدينة الرياض، والآخر متخفٍ بالمنطقة الشرقية، وأشارت عليه أن يلحق بهما ويحل مشكلتهما، وبشخوصه إلى الرياض وجد الأخ السجين مطالباً بمبلغ ستمائة ألف (٦٠٠,٠٠٠) ريال.. فقام بتسديدها وإطلاق سراحه، وأخذ يبحث عن أخيه الثاني، وبعد العثور عليه ومعرفة مقدار المبلغ المطلوب منه والذي تجاوز أربعمائة ألف (٤٠٠,٠٠٠) ريال.. وسدد الدين عنه.

إن التربية الحقة التي غرستها الأم الفاضلة في ولدها آتت أكلها وثمارها، فلم تستل سخيمة الضغن من قلب ولدها فحسب بل وجهته إلى مقابلة الإساءة بالإحسان لا بالانتقام فصارت هذه الأم نموذجاً لفضليات النساء تتحدث الركبان عنها وعن ولدها.. وما أكثر الأفاضل من نسائنا ولله الحمد.

إن هذه المواقف والأحداث.. اختبار لمعادن خَفِيَّة كامنة، وما أكثر المعادن النقية التي لم يُتح لأحدٍ الكشف عنها، وعن ذلك المخزون من المواهب والقدرات العقلية والفكرية في رؤوس الكثير من النساء.. إنهن حقاً شقائق الرجال ومربيات الأجيال.. فلهن من الآباء والإخوان والأبناء جُلُّ الاحترام وخالص الدعاء.

٢/٥/١٢٧هـ

(٢٦) متى يصحو الغافل

بعد فراغه عصر ذات يوم جميل مشبع بالغيوم ونسمات هوائه المنعش للنفس.. أراد أن يخط بقلمه خاطرة تروي عطشه وتشبع نهمه.. فتزاحمت على ذهنه أفكار متعددة ومتباينة.. كلها جديرة بالتدوين.. فحاور وردد قول الشاعر:

تكاثرت الظباء على خراشٍ فما يدري خراش ما يصيدُ

إنها ساعات وأيام وأسابيع وشهور تتتابع لتمضي سنوات هي من عمر الإنسان.. فهل يحاسب نفسه فيم قضاها وكيف أمضاها، وما هي محصلته، وكيفية استثماره لها.. إنه الوقت يجري وعقارب الساعة لا تتوقف، وكما قيل (الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك).

يقول الشاعر أحمد شوقي:

وما نيل المطالب بالتمني ولكنْ تؤخذ الدنيا غلابا

يختزن المرء في جمجمته الكثير من الخطط والمسارات التي سوف يسلكها، وطُموحات يَشْفَعُهَا بآمال وأماني، ورغبة في تحقيق أمور دون سعي وبذل جهد وعناء وصبر ومثابرة، وكيف يجنى من لا يسعى في أرضه ويبحث عن رزقه.. ألم تسمع قول الشاعر:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس

جميل يا بني أن تُخطط وأن ترسم تطلعاتك على الورق.. ثم تُتابع آخذاً بحساب كل المعوقات والعقبات، ومنضبطاً ومؤدياً كل واجباتك ومحافظاً على علاقاتك الاجتماعية، وممارساً للمثل والقِيَمْ.. باذلاً النفس والجهد والمال.. لتعطي انطباعاً حسناً، وسلوكاً صادقاً، وذكراً يبقى، وعملاً صالحاً تلقى.

أيها الأبناء الأعزاء: أُذكِّر نفسي وأستنهضها لتفيق من غفلتها.. كما أُذكِّركم بأيام خلت.. ماذا استودعناها من رصيد؟ وماذا يجب علينا أن نعمل لأيام قادمة إن شاء الله، علينا أن نبذر ونعتني بما نزرعه.. ليأتي بثمره يوم حصاده.. من منا يخلو بنفسه ويحاسبها، ويتساءل عن ماضي أيامه ماذا عمل، وما هي استعداداته لأيام آتية، وماذا عليه من واجبات لإخوان وأبناء وأقارب ومجتمع.

تلك تساؤلات.. لو أخذ بها كل منا وتابعها بعزم وإصرار وبحسن نية.. لتحققت له بإذن الله أمور ومتطلبات كثيرة.. لكن هيهات يُجدي الاستنهاض لشريحة من الشباب ممن أخذتهم المتعة واللهو والاسترخاء فغفلوا وناموا ولم يفيقوا، يا ليتهم يعون قول الشاعر الشعبي:

خلوه يرقد والليالي تصحِّيه يقوم من نومه بليا منادي

الجميل أن يحتاطوا وألا يصحوا على الفواجع لا سمح الله ويا ليتهم يسمعون قول الآخر فيتعظوا:

صَفِّر أو قَيِّل والحق النوم بالنوم ما دام بقعا ما خذت لك عصاها

والأجمل أن ينتبهوا من غفلتهم حتى لا تهوي عليهم هموم الأيام بعصا التوبيخ والإيلام. تُرى.. متى يكون اللحاق بالركب.. إذا أخذ

الشاب بالنوم ومتع الحياة.. متغافلاً عما ينتظره من سلوك خط طويل مليء بالعثرات والأشواك، ومفاجآت الأيام وأحداثها، وما يُرجى منه القيام بواجب، ومساهمة عائلية واجتماعية، وكيف يُتْرك يُتابع نومه حتى تُوقظه الليالي، وهل أصاب الشاعران بما قالا، هل استنهضا الهمم فأفاق الشباب من الغفلة أم بقوا سادرين.. إذا لم يصحوا الآن فمتى يصحون؟!

لقد غاب عن هذا الشباب أمور كثيرة ومسؤوليات عديدة، وإذا لم ينتبه سيبقى مع الخوالف يندب حظه ملقياً اللوم على من حوله.. ما أكثر ملاماتنا وجدلنا مع فلذات أكبادنا، وكيف بهم أمام متغيرات هذا العصر وامتزاج الحضارات وثقافاتها، ووسائل الرفاه والترفيه.. فهل لنا من طريق نسلكه غير الملام؟!

إن العجب يكمن في رؤية شريحة كبيرة من ذوي الألباب من الشباب.. سائرة وراء المتعة والأنس والملذات، ومتابعة فضائيات ماجنة، وذرع لشوارع ومعاكسات، وتسكع وارتداء ألبسة من الموضات الدخيلة، وسهر ومضايقات دون حياء أو إدراك لواقع حالهم الشاذ الممقوت.. متناسين ما ينتظرهم من غدٍ مليء بالمفاجآت والمخاطر، ومتغافلين عن التسلح بالعِلم والمعرفة لمواجهة مستجدات تقتضي منا أن نشمِّر عن سواعدنا وأن نسعى ونعمل من خلال تخطيط ومسار سليم.. علماً وآداباً وصحبة أماجد.

يقول الشاعر الحكيم:

العلم زين وخير الناس يطلبه والجاهلون لأهل العلمِ أعداءُ
فعش بعلم ولا تبغي له بدلاً الناس موتى وأهل العلمِ أحياءُ

كيف بهؤلاء النشء يتخاذلون أمام معطيات متاحة لهم من أمن وغذاء وصحة وتعليم وسعي في مناكبها.. تلك والله الغفلة والجحود والعصيان.. أعاذنا الله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا. إنه جواد كريم.. أرجو أن يسمعوا النصح ويعملوا به وألا ينطبق عليهم قول القائل:

محضتهم نصحي بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغد

فاستبانة النصح في ضحى الغد لا تجدي حيث يكون الأوان قد فات والخسارة قد تحققت.

١٤٢٧/٥/٥هـ

(٢٧) نُبلٌ ينفي الخَبث

أنفق من الصبر الجميل، فإنه لم يخش فقراً منفق من صبره
واحْلُمْ وإن سفه الجليس وقل له حُسن المقال إذا أتاك بُهجْره

تستعر النار وتكبر من مستصغر الشرر.. ثم تزداد اضطراماً وانتشاراً بفعل موقديها، وما ذلك إلا أن بعضاً من الأشرار تواقون لنزعات الشر، وما جُبلت عليه من حب إثارة الفتن والتشفي بآلام البشر ودعم السوء بالأسوأ.. تلك حال الكثيرين من الطغام.

وصدق من قال في هؤلاء:

إن يعلموا الخير أخفوه، وإن علموا شراً أذاعوا، وإن لم يعلموا كذبوا

أولئك لا يصغون إلى عقل ولا يستمعون لنصح.. ديدنهم هواهم المتبع.

كان لرجل ظروف خاصة تكالبت عليه الهموم بعد وفاة والديه.. وعانى من فقد بعض أعضاء جسمه وعاش طفولة طغى عليها الشح والفاقة، لكن سيرته كانت عامرة بالقيم والسلوك السويّ.

لقد رعى (البهم) أي صغار الضأن وهو صغير.. ثم تطورت به الحال فرعى الغنم ردحاً من الزمن، ثمّ وطّن نفسه على حب العمل خلال مسار حياته.. لشعوره بوحدته وعزلته.. ومما كان يضاعف آلامه رؤيته لأقران توفرت لهم عناصر الرعاية والتشجيع المعنوي.

أمضّه الحزن من ممارسات العداء ضده، كان يتلقى ذلك ولا يستطيع الاحتجاج لعجزه وخوفه.. لكنه من خلال رؤياه وسماعه لكثير من جزيل الكلم ونَيِّر الفكر.. صار عقله يختزن جميل الحكم وطيِّب القول، ولعل دافعه لذلك التعويض عما فقده، وبِطَرقه هذا المسار تحسنت أحواله وتحقق له دخول المنافسة الشريفة للأقران.. فكثر حساده، وجُوهِر بالعداوة فقابل ذلك بصبر وحكمة واحتمال.. مستمداً العون من الله ثم من مخزون تجاربه.

تزوج في سن متأخرة، ورزق بعدد من البنات، وكان يَحلمُ بأن يرزق بابن يكون امتداداً لتاريخه، ولم تتحقق هذه الأمنية لتوقف زوجته عن الإنجاب، وعزَّ عليه أن يتزوج بأخرى حباً وتقديراً لزوجته أم بناته التي كانت وما زالت عوناً له في السراء والضراء.. لكن المنعم جعل العوض في أزواج بناته الذين تنافسوا في خدمته وكسب وده.

كان شغله الشاغل هو التفكير بما يختطه لمستقبل واعد قادم إسهاماً منه في إعلاء العمران المادي والمعنوي.. فجازت له فكرة استثمارية ذات أبعاد تنموية، ولما كان يشوقه النفع العام.. رأى أن يتوسع هو وقومه في ذلك المشروع الحيوي.. الذي أُعجب به القريب وشهد له البعيد.. مضت سنون وهو آخذ في النمو والازدهار، وصاحبنا يُصارع تحديات من التجريح ومساعي الإحباط التي ما فتئت تتجدد وتتنوع بفعل انعزالية جماعة من ربعه ابتُلِيتْ بحب الهدم والتقويض، والذَّم والتحريض.

وكان يُعزّي نفسه ويواسيها بقول الشاعر:

أمن بعد بذل النفس فيما تريده اُثـاب بمُـرّ العَتـب حـين اُثـــابُ
فليتك تحلو والحيـاة مريـــرةٌ وليتك ترضى والأنـام غِضـابُ

مساعيه في بذل الخير كثيرة ومتنوعة فكم أعان معاقين وكم رعى أيتاماً وكم وكم تحمّل.. متحدياً تيار الشر بإصلاح نفسه أولاً ثم بلين كلمته، وتسامحه، والتماس العذر، محتسباً وداعياً لهم بالعفو والغفران.. لقد عانى مُرّ العتب وسخط القول.. فتمثل نصح الخليفة المنصور لابنه المهدي: اعلم يا بنيّ أن رضا الناس غاية لا تدرك فتحبب إليهم بجهدك، وتودد إليهم بالأفضال، واقصد بأفضالك موضع الحاجة منهم.. وليتك تسلم.

سارت أموره من حسن إلى أحسن، وصَاحَبَ ذلك نجاحات لاستثماراته.. في تحقيق عائد مُجْزٍ ووافر.. تمثل ذلك في أرباح سنوية، وارتفاع في قيمة ممتلكاته، ومدخرات لمن يأتي من بعده، وما زال صامداً وصابراً كالطود أمام الحاسدين ومن شغلوا بأذية الآخرين...

ومع أن الشاعر يقول:

متى يبلغ البنيان يوماً تمامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدمُ

إلا أنه كان يتحدى الهدامين الذين لم يستطيعوا تقويض أي شيء في حياته لكن الفاجعة جاءت بعد وفاته.. عندما نعاه القوم وتذكروه مع مرارة أيامهم، وتَمزّق كساؤهم الذي تحلُّوا به طيلة حياته، لقد أسرّوا الندامة ولات حين مندم.

كثيرة هي المشاهد، وتلك هي أحوال من كان هذا قدرهم، وما ذلك النفور والولوغ في الشر إلا إفرازات أمراض استوطنت في نفوس سقيمة كانت مرتعاً وأرضاً خصبة للعلل والانحرافات الخبيثة.

وبعد أن أسمعتكم قصة هذا الرجل النبيل هل لي أن أخاطب أبنائي وبناتي في هذا الوطن فأقول:

أيها الأبناء والبنات.. ممن ينتمون لهذا الوطن المعطاء.. إن يد الله مع الجماعة وإنها فرصة للاختلاء بالنفس ومحاسبتها بتجرد وسمو، ومن ثم علينا أن نختار لأنفسنا الطريق السوي فنترفع عن الدنايا وصغائر الأمور ونتطلع إلى المعالي والأمجاد قولاً وعملاً.. بتعاضد وتكاتف وحب ووئام.

والله من وراء القصد.

١٤٢٧/٥/٦هـ

(٢٨) نحو تماسك أسري

رأيت الشيب لاح فقلت: أهلاً ... وودَّعتُ الغواية والشَّبابا
وما شيّبت عن كِبرٍ، ولكن ... رأيت من الأحبة ما أشابا

يشكو الأولاد من كثرة شرود والدهم، وإشغال فكره بأمور وهموم لا تمت لأوضاعهم أو مستقبلهم بأية صلة، ويتساءلون عن أسباب ذلك وهو الموفق في حياته والميسّرة أموره، فيرد هذا التساؤل بتساؤل:

ماذا يفعل بخواطر تتوارد في ذهنه مشحونة بتراكمات من حوادث الزمن ومجرياته، وعن معايشته مرحلتين متباينتين من عمره، كأن المرحلة الأولى من مرويات تاريخ أو حديث أجداد، أما المرحلة الثانية فامتازت بهذا التغير الكبير الواسع والمتسارع في مختلف مناحي الحياة من تطورات إيجابية مذهلة، كان لها ثمن باهظ، فقد أفرزت فقدان بعض القِيَمْ الموروثة الجميلة، وهزّت فينا الأصالة هزَّاً عنيفاً.

كثيرة هي المتغيرات وأسبابها.. مكاناً وزماناً وموضوعاً، وما يواجه المرء من تحديات في حياته اليومية، ومعالجته كثيراً من الأمور ذات المساس الأسري حسب مفهومه وقدراته الفكرية، وما لديه من خبرة وتجربة.. وتذهب به هذه المتغيرات إلى تنامي ما عليه وعلى غيره من حقوق وواجبات وتبعات من الصلة والتواصل، وتأخذه تساؤلاته إلى قوله:

ما أكثر من لاقيت يُغني على ليلاه، ويتذرع بمشاغل، وروابط عمل، وعلاقات اجتماعية، وتربية أبناء، ودراسة، ورعاية منزل.. طلباً للانفكاك من الواجبات الأصيلة.

أمر طبيعي أن تسمع مثل ذلك وما تفرزه متطلبات الحياة.. فكلما ترسخت البنية التحتية في البلاد، وتحسن دخل الفرد، وتوافرت عوامل الأمن والاستقرار.. كلما كبر حجم المسؤولية، وتعددت أوجه النشاطات والمستلزمات اليومية، وبالتالي.. يُبرمج الإنسان وقته وفق هذا المسار.. لإنجاز ما يستطيع إنجازه، وما يُقابله من نشوء عوائق وحواجز تزيد من مهماته اليومية.

كل ذلك يُكَوِّن تراكمات من الأعمال التي تزيد في التعقيدات النفسية، والمتاعب اليومية، فيتبرم المرء من ثقل حملها.. مما يجعل تواصله مع والديه وإخوانه وأخواته وأقاربه وجماعته يتقلص مع مرور الأيام والشهور.. ربما يؤدي ذلك إلى انقطاع وهجران.. يكون تأثيرهما كبيراً على الناشئة التي هي أحوج ما تكون لتنمية العلاقات الاجتماعية، وغرس الروابط الأسرية وصلة الأرحام، وقديماً قيل: حق الأقارب إعظام الأصغر للأكبر، وحنو الأكبر على الأصغر، وللأسف كأن هذه الأمور أصبحت أثراً بعد عين.. وماذا نفعل بقول رسولنا صلى الله عليه وسلم: (حق كبير الإخوة على صغيرهم كحق الوالد على ولده).

أصالة نرجو ألاّ تضمحل ولا تذوي.. نعم كثيرون من يشكون من هذه الظاهرة الخطيرة التي لها أبعاد من الجفاء والتفكك العائلي، وكثيراً ما نسمع بأن قَريبَيْن جمعهما مجلس واحد.. لا يعرف الواحد منها الآخر.. واخجلتاه.

ولا شك أن هذه من إفرازات الرفاه والتطور الذي لا يراعي موروثاتنا وانشغال الجميع في أمور دنياهم، وما يتبعها من غفلة ولهو وسفر وبرامج تملأ الوقت من غير طائل.

لكن بالمقابل فإن ظاهرة الصناديق الأسرية التي بدأت تنتشر بين الأسر أعطت ثمارها.. وتحاول معالجة الخطأ.. لقد تنبهت شريحة من شرائح المجتمع فأنشأت صناديق للأسر والعائلات قرّبت البعيد ووصلت القاصي فعملت على لمّ الشمل وعلى التراحم والترابط وتحقيق التلاحم الأسري، فعادت الأصالة وأُحيي الموروث.

ومع هذا لا يخلو هذا التوجه من المعوقات التي تنشأ بين وقت وآخر فتضع العراقيل.. محدثة تيارات من السخط والتقويض والعناء النفسي.. فيتصدى لتحقيق الطموح رجال مؤمنون بسلامة ونقاء هذا التوجه.. ممن وهبهم الله حب الخير وفعله وقوة الصبر والاحتمال، وحلماً يغلب على سفاهة.

علماً بأن أي عمل جماعي مهما كان نوعه معرض للخطأ والتجاوزات.. لكن المهم في ذلك سلامة القصد.. والأخذ في الاعتبار أن حدوث مثل هذه الظواهر.. أمر طبيعي مألوف.. وشعور فكري ينساق وراءه أشخاص ذوو شرود فكري وأمزجة شاذة.. فيعتمد حامل الراية على الباري عزَّ وجلّ الذي يجزي أحسن الجزاء على حسن النية، جنّب الله الجميع مزالق السوء، وهداهم لخير الأعمال.. الباعثة على تحقيق المبادئ الإنسانية التطوعية ذات المنافع العامة والتوجيه التربوي السليم.

والله الهادي إلى سواء السبيل.

١٤٢٧/٥/٦هـ

(٢٩) نقد موضوعي.. وآخر!!؟

ظَلَلْتَ تُبدِّل الأقوال بعدي ... ويبلغني اغتيابك وهو عَيْبُ
فقل ما شئت فيَّ.. فلي لسانٌ ... مَليء بالثناء عليك رطبُ
وعامِلْني بإنصافٍ وظلمٍ ... تجدني في الجميعِ كما تحبُ

يتصاعد الدخان، وتثور العواصف، وتظلم العتمة، وتتحجب الرؤية، وتحتقن النفوس، وتضعف السيطرة على السلوكيات، وتزداد مرارة التصرف، ويعمّ فقدان الوعي.

تلك حال أفراد وجماعات تحولت إلى نباتات شائكة في روض مُرْبِع.. هذا الروض الذي تزينه الورود والزهور له عشاقه من راغبي المتعة والاستمتاع.. لكن كيف يكون استثمار الزهور المحاطة بالأشواك.. الأشواك التي يشتد أذاها.. إنها حال بشر من أصحاب الانحراف الفكري الشاذ وشوارده.. ممن ابتليت بهم أقوام ومجتمعات.

أخذ يفكر ويُلقي بظلال أفكاره على ما يراه من تناقضات في المفاهيم ولحن القول ومعسوله، ومن النقد الجارح وسوء الألفاظ. فردد قول حكيم:

(من الذي يدري بما فيه من خطل، ومن المسالك الموحشة التي اتخذها طريقاً.. ليت المنحرفين يدرون ويحاسبون أنفسهم).

إن اختلاف وجهات النظر، وتباين الرؤى.. من الظواهر الطبيعية وما الجدال والحوار إلا سنة من سنن الله في خلقه لقوله تعالى:

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾(١٦).

والنقد الموضوعي لغة الثقافة ومحقق الهدف، وهو مسعى خيّر يعمل على تضافر الجهود لتصحيح المسارات السلبية وتحويلها إلى إيجابيات.

لكن النقد الهدام اللاذع، وطلاسم القول وإخفاء الحقائق.. إفراز لدوافع الغَيْرَة والحسد، والحقد الدفين الذي يَحرق صاحبه وهذا لا يسرّ، لأن الحاسد الحاقد لو برئ من حقده وحسده لكان عضواً نافعاً في المجتمع، فإذا أحرقه حسده خسر المجتمع أحد أفراده.

لكن ما الحيلة والشاعر يقول:

كل العداوات قد ترجى إماتتها إلا عداوة من عاداك عن حَسَدِ

نعم ما الحيلة وقد وضع الحاقد أصابعه في آذانه واستغشى ثيابه لأنه لا يريد أن يسمع خيراً ولا يريد أنْ يرى جميلاً:

صمٌ إذا سمعوا خيراً ذُكرت به وإن ذُكرت بسوء عندهم أذنوا

إن النقد الموضوعي منهج سليم وطريق قويم، ومسلك من مسالك الشرفاء.. يَبْدَأ بفواتح الخير والسَّعد، ويُثني ويُشيد بخصائص الشخص المنقود ومآثره.. ثم يُبيِّن وجهة نظره التي يراها دون تعصب

(١٦) سورة المجادلة الآية (١).

لرأي.. متخذاً أسلوب الدعوة بالحسنى ولين الكلمة، ومساهماً بإضافةٍ جميلةٍ ومفيدة ومبيناً للأخطاء للتصحيح لا للتشهير.

أمَّا نقد الغَيْرَة والحقد فهو إخفاء الجوانب المضيئة وإظهار الصحيح مشوهاً وتسفيه الآخر، وهذا أسلوب العاجز المفلس الكاشف لحقيقة وضعه، ولمكنونٍ من نتن القول وساقطه.. البعيد عن قواعد الأدب واحترام النفس، وما ذلك إلا خسران الناقد ولجوئه للقذف والشتم والتجريح.. وجحد للمعروف والمألوف، ونكران للجميل، وكشف عن السوءات.

وفات الحاسد أن الانتقادات غير المقبولة من السامع والقارئ، والموحية بأهداف أو مصالح خاصة.. إنما تعكس نوايا خبيثة غير خافية على كل ذي لب.

ليعلم الحاسد أن النقد يَبْنِي ولا يهدم، ويُضيف رأياً تنويرياً، ولا يُقَوِّض، يدلي بالحجج لا بأوهام وأقوال غير صحيحة يفرغها من خلال خواطر لا يعي مضمونها، ولا يدرك مفهومها.

لقد صوّر أبو ذر رضي الله عنه حال لئيم مستهتر مندفع بالسب والشتم، وحال عاقل عامر الضمير بهذه الرواية:

شتم رجل أبا ذر.. فقال: يا هذا لا تغرق في شتمنا، ودع للصلح موضعاً.. فإننا لا نكافئ من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه.. فهل من مستفيد، وهل من متعظ.

إن خاطرة الانتقام لدى الحاسد هي التي جعلته يتخذ هذه الوسيلة.. هي التي أوجدت في نفسه وحشة بينه وبين الناس، ولا سيما

أهل الخير والصلاح، كما أوجدت ظلمة في قلبه، أعمت بصيرته فتاه رأيه وعادى الآخرين وأساء للناس فاستوحش.

أسأت إليّ فاستوحشت مني ولو أحسنت آنسك الجميل

للجميل رونق، للجميل ألق، للجميل بهجة نور.. فلنعد إليه.

إن الخواطر الرديئة لا تجتمع مع الإيمان.. فمع الإيمان يستنير الطريق وتتصافى القلوب ويفرح الناس ولا يندم أحد، وصدق الله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ (١٧).

ومع هذا إذا أصر الحاسد الحاقد على موقفه وأبى إلَّا أن يظلم فإنه سيجدنا على ما يجب من مكارم الأخلاق، ورفعة وسمو، وسنعوده إذا مرض، وإذا أذنب نغفر ونترفع، وإن اقتضى الأمر اعتذرنا.

(١٧) سورة الرحمن الآية (٤٦).

١٤٢٧/٥/٢٠هـ

(٣٠) خلق كريم يجسّد قيماً

وإذا بغى باغٍ عليك بجهله فاقتله بالمعروف لا بالمنكر

صباحٌ ومساء، وليل ونهار، وأيام وشهور وسنون تتوالى، وحوادث وأحداث، ومتغيرات تُفرزها تقلبات الزمن.. بنزول وارتحال، وصفو وكدر.

هي الدنيا كما ترى.. لا تستقر على حال، ولا يقر لها قرار.. تجول فيها شعوب وأُسر، وأقوام وجماعات.. ثم تلفهم بأدوارها وكوارثها ومفاجآتها، وهكذا سنة الله في خلقه.. الأيام يداولها الله بين الناس.

كان لقبيلةٍ قيادة وريادة، وأُعطيت قوة في الجاه وبسطة في الرزق، وكانت لا تبخل في الإنفاق، فصار لها نفوذ وشأن، وتاريخ يُروى وخبر يُذكر.. كانت تجوب الصحاري بحثاً عن الكلأ والمرعى، وتعزز مواردها المائية عدداً ومنعة، والمياه يكثر حولها الصراع.. ما كان لهذه القبيلة منازع عندما ضحكت لها الدنيا وقد كانت غافلة عن قول الشاعر:

والليالي من الزمان حبالى مثقلات يلدْنَ كل عجيبِ

نعم ما كانت تحسب حساباً لأحد حتى تداعت ظروف، وصارت متغيرات، وجاءت نكبات وتأججت عداوات بعد غزوات توالت عليها.. أُخرجت من ديارها وأُقصِيت عن مواقعها وعن مراتع إبلها ومواشيها،

ثم أُبعد رجالها عن منابع مشاربهم، وسُلبوا مكانتهم الاجتماعية، وحقوقهم الذاتية، وانطفأ السراج، وصاروا خبراً بعد عين.

لم تحظ العشيرة برجال من الجيل الثاني ذوي بالٍ، أو مُتطلع يسعى لإعادة أمجاد درست لعقود من الزمن مثقلات بهموم وأوجاع.. إلى أن قَيَّض الله لها فتىً وحيد أبويه من الصف الثالث ممن هو عنها بمنأى وبعد وعناء.

أخذ به الهم والقلق مأخذاً شديداً رغم صغر سنه وخلو يده وقلة النصير.. لقد رأى ما آلت إليه الحال.. فأصبح في صراع مع نفسه.. تجده شارد الذهن.. سارحاً مع الأماني.. محباً للانفراد.. متخذاً مكاناً قصياً يناجي نفسه فيه.. يُعمل فكره في كثير من قضايا يومه ومستجدات غده.. يبحث عن حق مسلوب وجاه مفقود، ويفتش عن منافذ، ويرسم خططاً.. لا يبحث عن راحة أو متعة، ولا يأنس لدعة.. تراه يبدي اهتماماً وشفقةً بأهله وقومه.. يعاني هموماً، وتحمل أذى وتسخطاً من سفهاء عشيرته.. صابراً ومُلتمساً لهم العذر، ومتسامحاً عن تجاوزاتهم وأخطائهم.

أقدم مع قلة من ربعه مستعداً بالكفاح وجال جولات في الغدو والرواح، واتصل وواصل وثابر حتى أثمر الجهد وتحقق الطموح، وعاد دورهم المضيء يثبت حقوقاً ويبني أمجاداً، رغم نشوء تيارات من العناصر المضادة التي يساندها سفهة ومبتذلون من العشيرة ممن لا هم لهم إلا الهدم واستعمال غليظ القول، والسعي لكيد ومكيدة.. لكن صاحبنا بقي صامداً واضعاً نصب عينيه الهدف الذي ما حاد

عنه وهو إنجاز المزيد ورفعة الشأن واستعادة الريادة في ظل دوامة من صراعات القبائل وخلافاتها وتحالفاتها.. والتي جعلت النهب والسلب والغزوات من مفاخرها، مما ضاعف التناحر وزاد معوقات استتباب الأمن، وشلّ مصادر التنمية فتفاقمت دواعي الجهل والمرض، وقد زاد الطين بلة قيام جماعة قليلة من العشيرة بدس الضغائن وبث الفرقة.. منساقة وراء منافسين ضالين مضلّين.

كل ذلك لم يَثنِ عزمه أو يقلل من إقدامه.. فأنجز مع القلة المناصرة له الكثير وتفوقّوا ببصيرة نيّرة ومنهج سليم وبتسامح لا نظير له عن تجاوزات السفه.. حتى جعل العقود العجاف التي مضت تاريخاً وخبراً مضى وانقضى.

وصف شاعر عربي نفسه بأبيات معبّرة عن أرقه وهمّه وحلمه ومداراته لجهلة عشيرته ومعرفته بالتعامل الأسلم مع الأقارب، وكأن هذا الشاعر عني بهذه القصة عندما قال:

أرقْتُ وأصحابي خليُّون نـُوَّمُ ... وما أنا ذو ثار ولا أنا مُغرمُ
ولكنَّ هماً بين جنبيَّ هاجه ... عليَّ ذوو القربى عفا الله عنهمُ
فإن يَكُ حلمي مدَّ أعناق جهلهم ... فلا زلت فيهم يجهلون وأحلمُ
فإن كان حلم القادرين مذلةً ... فإني ذلَيل غير أني مُكرَّمُ
يقولون ما تخفي سواه صدورهم ... وما علموا أني بذلك أعلمُ
ولست بغرٍ إن خُدِعت بقولهم ... ولكن مداراة الأقارب أسلمُ

كثرت بل تكاثرت عليه السباع والذئاب من قريب وبعيد، فكان يسمع بأذن صمّاء ونفس صافية طيبة.. مروضاً النفس.. عاذراً

ومعتذراً.. وقد ضجّ أهله حتى فاجأه أوسط أبنائه بسؤال: لماذا، وإلى متى يا أبي نبقى نُعاني من هذه المضايقات فلا نجني إلا شوكاً وأذى.. أما حان أن تسحب البساط فتستريح وتُريح؟

فكان جواب والده: من أين لي بهذا المسلك.. الذي لم أعتد طرقه أو السير مع منافذه.. سوف أواصل المسيرة بإذن الله، وما هي الا مسافة قصيرة توردني لعتبات القبر.. راجياً ألاّ أخشى هذا الخط أو غيره ولن أمسح حكمة مسجلة بالنور على سبورة الأجيال.

لقد تعاظم الأمر وصار نفر من قومه يُثيرون قلقه، ويَحِيكون له الدسائس، ويَفتُّون في عضده، وينشرون غسيلهم بين الناس، وما علموا أنهم بذلك يُقَوضُون بنياناً يؤويهم، ويهدمون كياناً يتفيّؤون ظلاله، ويقطعون أشجاراً مثمرة من المكارم والمآثر والطهارة.. هي رصيد لهم ولمن بعدهم.

لقد وجد البغاة ضالتهم في غوغائية أحدهم.. معروف بضآلة فكره وهبوط خلقه، فأخذ يجاهر بالأذية بين وقت وآخر.. حتى بلغ السفه منه ذات يوم أن تشاجر عند بئر مع أحد أبناء ذلك الرجل الوقور، وصَعَدَ به الأمر إلى إفتعال حِدَّة الجدل وفاحش القول فاندفع دون حياء ولا خوف أو وجل ليدفع بالابن إلى حافة البئر.. ثم يلقي به في غيابة الجب ليغرق ويفارق الحياة.

وهكذا وقعت الكارثة، وانتشر الخبر وشاعت الفوضى، وعظم الأمر على العقلاء، وانقسم القوم فريقين، وكثر الهرج والمرج.. كيف يكون القصاص؟ وتنفس الصعداء المنافسون والأعداء، وبدأت

الدسائس واحتقنت النفوس بالضغائن.. لتوقد ناراً وتشعل فتنة وتثير أحقاداً، وما تلك الجريمة إلا معضلة للعشيرة بأكملها.. فكيف يكون العلاج، وما هو المخرج؟

ويبدأ القوم اتصالاتهم ومشاوراتهم حول فدية القصاص، أو دية مجزية، وما سيواجهونه من أرباب القضية، وما يفرضه واقع الحال.. من أخذ الثأر من الجاني أو أحد عصبته.

هنا يختفي كثيرون وراء السراب ممن يتوارون خلف الحجب عن مساهمة مادية أو القيام بواجب معنوي، وهنا يجيء دور ذوي الهمم العالية والمروءة ممن يبذلون المال والجاه، وممن عرفوا بنيِّر الفكر ومواجهة الشدائد لتنجلي الغمة وتظهر عظمة الرجال.. بتحكيم العقل وحسن التصرف، والنظرة البعيدة لالتئام كيان، وغرس قِيم الطهارة والنقاء.. لأجيال قادمة مُنْتَظَرَة، ويتم تجاوز السقطات والرواسب.

ويحسم ذلك الرجل العملاق الشهم.. النيّر الفكر المليئة جوانحه عقلاً ودراية، فيعلن تسامحه وتنازله عن حقه من الجاني، وكأن شيئاً لم يكن، وبهذا تنطفئ فتنة وتزول كربة، ويندحر كثير من أرباب الشر وأصحاب الفتن، ويتحقق الوئام ويسود السلام.

كثيرة هي الأسر والأقوام التي تُبْتلى بمثل هؤلاء الشواذ من رواسب البشر وغوغائيته، وهنا يبرز صفاء المعدن ونقاء السريرة، ومواقف الرجال، وسمو الأفعال، والترفع عن سفاسف القول والأحقاد فيسطر التاريخ مآثر وقيماً ويفرد صفحات من مواقف مشرقة، ويُخلِّد ذكراً ترويه الأجيال، بفخر واعتزاز وإكبار.

١٤٢٧/٦/٢هـ

(٣١) كســـل وسخـــط.. وحِيلٌ وتحايل

رآه يُقلب كفيه، ويعبث بأصابعه، ويُحَدِّثُ نفسه متمتماً.. سابحاً بخياله لا يرى من حوله.. ساخطاً عاتباً على حظه العاثر.. فاجأه صاحبه بسؤال عن حاله..فارتعش وارتبك ثم أخذ يحكي قصته فقال: إنه شاب عاطل عن العمل، خاوي الوفاض، انقطعت به السبل فلا يدري ما يصنع.. ساعده صاحبه ووجهه إلى عمل وفَهَّمه أن الكسل هو سبب السخط فليخلع ثوب الكسل ثم لينظر ماذا يرى.. وبعد مدة تحسنت أحواله فلهج لسانه بالشكر والدعاء لموجهه.

تلك حال الكثير من الشباب الباحثين عن مصادر العمل، ممن سيطر عليهم الخمول والكسل، وانحرفت بهم الرفقة السيئة ممن أخذتهم أمنياتهم ورغباتهم في الرزق السريع بالجهد القليل.. متناسين أن البحث عن العمل الجاد أمر مطلوب وأمل مرغوب في كل زمان ومكان.. وأنه لا شيء يتحقق من غير سعي كما أنه لا بد من تعاطي تجارة، أو زراعة، أو صناعة أو رعي أو حرفة ما، أو غير ذلك من وسائل الاسترزاق.

الساعون يختلفون باختلاف مشاربهم وتطلعاتهم.. منهم من هو مغامر مندفع في مساعيه، ومنهم من هو متأنٍ مفكر في أمره، وآخرون أصحاب قناعات.

في عصرنا الحاضر.. التسابق على أَشدِّه.. يُساهم في ذلك الاستقرار الأمني، وتوافر مصادر الدخل من الثروات الطبيعية، وتعدد الفرص.. وهذا مما يساعد الشاب الراغب في العمل الالتحاق بأي مصلحة أو شركة أو مؤسسة، أو ممارسة مهنة تعود عليه بدخل يرقى من خلالها سلّم الكفاية إذا ما توافرت لديه عناصر الرغبة الأكيدة في العمل والانضباط والسعي والجد والانتماء.

لكن هناك فئة خَيَّم عليها الكسل والدعة، وآخرون جُبلت نفوسهم على حب الكسب الكثير والربح السريع من خلال أطماع ومغامرات بالعمل بتجارة الممنوعات: من مخدرات، وأسلحة، وغسيل أموال، وتعاطي رشوة، وفساد إداري، ومكر وخداع، وتحايل من خلال تضليل وإغراء بمكاسب.. فلا الكسالى حققوا مكاسب ولا المخادعون حصلوا على مغانم.. وهذان النوعان من الناس في خسران مبين، وصدق من قال: (لا يصح إلا الصحيح)، وهذه الأمور لها أبعادها الخطرة المؤثرة في تركيبة المجتمع، وتقهقر البشر.

هذه حال بعضنا في زمن لم يبق فيه عذر لمتكاسل ولم تعد فيه ظلمة لعامل، فالسبل مفتوحة والبصائر لا غشاوة عليها، وعلينا جميعاً أن نتوّخى الاستقامة قولاً وعملاً، ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه الرزق الحلال من حيث لا يحتسب.

ماذا لو عدنا إلى الوراء إلى ما قبل قرن من الزمن تقريباً يوم كانت الدنيا فوضى لا قرار لها ولا استقرار، يوم أن كان الوعي مغيباً وكان العقل في إجازة، يوم كان الرزق يكتسب بحد السنان سلباً ونهباً وغزوات وسرقات على مستوى الأفراد والجماعات.

ومن طرائف السرقة والحيل والخداع في عصور غابرة.. قصة طالما شنّف الآباء والأجداد آذاننا بها تجمعت خيوطها وتراكمت أحداثها وربما كانت أو بعضها حقيقة أو من نسج الخيال:

تقول القصة: كان لأحدهم تعاط تجاري عن طريق التجول في الصحراء للبيع والشراء، أو لمقايضة بضاعة مستوردة بمنتج محلي، وغالباً ما يكون من مادة السمن أو الإقط أو الأغنام في فصل الربيع.. وذات يوم ملأ وعاءين من السمن حملهما على ظهر حماره لتسويقهما في البلدة.

وعادة ما يتنافس التجار على أي بضاعة ترد للسوق، وفاز أحد الأهالي بشراء تلك البضاعة وطلب من البائع إيصالها إلى منزله.. لكي يفرغها في ماعون أو مواعين ويعيد له آنيته، وعند وصولهما إلى باب المنزل كما تصور البائع.. تناولها المشتري وبقي البائع منتظراً حتى عيل صبره، ثم أخذ يطرق الباب لعل المشتري يجيب، فرآه أحد المارة فاستنكر طرقه باب المسجد، فحكى البائع له حكايته، وعندما علم أن المشتري دخل من باب المسجد هذا وخرج من باب آخر أُسقط في يده وملأته الحسرة على تحويشة العمر التي خسرها في لحظة.. ومع هذا بقى معلقاً ببصيص أمل ظاناً أنه ربما يجد المشتري في زاوية أخرى داخل المسجد.. فطلب من مخبره الإمساك بالحمار لكي يبحث عن غريمه.. فجال في المسجد فلم يجد المشتري بل وجد رجلاً آخر يقرأ في مصحف.. فخرج من المسجد مشدوها يوالي بحثه ولعله يستجير بمن ترك حماره عنده، ويا للمفاجأة عندما لم يجد الرجل ولا

الحمار أمام الباب الذي كان يطرقه، وتلك كارثة أخرى.. ضاعفت حزنه وقلقه، وأخذ ينظر يمنة ويسرة، ويرمي ببصره هنا وهناك.. ولمَّا لم يظفر بنتيجة عاد إلى المسجد ليستنجد بذلك القارئ الذي توسم فيه خيراً.. فما كان من القارئ إلا أن دعا له (بالعقلان) أي عودة مفقوداته، واستهجانه للمشين من هذه الأحداث في زمن ضاعت فيه الأمانة وفشت فيه الخيانة.

ثم طلب القارئ من المنكوب بسمنه وحماره أن يصلي لله تعالى ركعتين وأن يدعو الله جلّت قدرته أن يعيد إليه مفقوداته.. فشرع صاحبنا وضرب بكفيه صعيد الأرض وكأنه يريد التيمم، فأنكر عليه صاحب القرآن وقال له: كيف تتيمم والماء موجود، لا بد من وضوء وقد تحتاج إلى غُسل لأنك حديث عهد بكذا وكذا، فقم واغتسل.

سأل الرجل عن كيفية الاغتسال وأين؟ فدلّه على بئر المسجد.. ثم أرشده وساعده على ملء إناء المسبح بالماء.. ففهم الطريقة لكنه عندما فرغ من الغسل.. بحث عن ملابسه التي وضعها في كوة فوق الباب فلم يجدها، فكانت هذه الكارثة الجديدة ثالثة الأثافي وفالية الأفاعي وزادت حسرته وحيرته وصار يصيح مستنجداً.. ومحدثاً صخباً وجلبة.. فلبى النداء سامع يحب الخير فسأله: ما الخبر؟ ولمَّا علم بحاله.. أشار عليه أن يُضفي عباءته على جسمه ليصل إلى المسجد مواريا سوأته ثم أراه عباءةً ملقاة اعتقد أنها لم تكن لأحد فوافقه.. وعند ارتدائه العباءة التي أعادت له شيئاً من الطمأنينة.. أيقظ مرشده صاحب العباءة.. وأخبره أن عباءته قد سرقها الرجل الذي هرب من بوابة المسجد..

وشرع صاحب العباءة يعد و وراءه منادياً.. أمَّا صاحبنا فأسلم رجليه للريح يسابقها.. متورطاً بِعُرِي ومتهماً بسرقة.

تلك قصة رواها الرواة ولاكتها الألسن، وضحك منها الصغار والكبار لكنها تصور حقيقة حياة وحال مجتمع سادت فيه الفوضى والانفلات الأمني والخُلقي ومع هذا بقي في الناس أخيار يدلّون على الخير ويرشدون إلى الصلاح.

ولا يفهمَنَّ القارئ أن زماننا خال من الحيل والمحتالين فكم من أناس نصبوا حبائلهم على صور مختلفة، فهذا دعا إلى مساهمة صورية لا أصل لها ولا حقيقة، وهذا قام بحملة حج فأخذ أموال الناس ولم يقدم لهم شيئاً، وهذا وهذا.. الأمر الذي يستلزم أخذ الحيطة والحذر وعدم الانخداع بالنصابين المحتالين.

قلت الحذر الحذر مع الإدراك بأن جاهلية القرن الماضي قد رحلت إلى غير رجعة ولله الحمد.

١٤٢٧/٦/٦هـ

(٣٢) الدعوة والدعاة

لئن طال عمر المرء في غير آفة أفادت له الأيام في كَرِّها عقلا

كثيرون هم الأصدقاء والمعارف والزملاء الذين عايشتهم ولكل مشرب مختلف.. إلا أن أحد هؤلاء الأصحاب كان له وضع خاص ومميز في نفسي لاعتبارات متعددة: منها ذكريات زمالة، وسفر، ورحلات برية، واختلاف ووفاق في أمور ذات شأن محلي وغير محلي.

عرفته بلطفه وحلمه وتواضعه وحسن تعامله.. زارني ذات ليلة، فرأيته منقبضاً متألماً يرتل آيات من القرآن الكريم.. منها قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[١٨]، وقوله: ﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[١٩]، وقوله: ﴿وَلَوْ كنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾[٢٠].

سألته.. ما مناسبة استشهادك بهذه الآيات الكريمة؟ قال: كنت في صلاة المغرب وقد نسيت إغلاق الهاتف النقال فاتصل أحدهم فصدرت نغمات موسيقية من الهاتف أثارت غضب أحد المصلين.. أرعد هذا المصلي وزمجر ولفت أنظار المصلين، وقلت في نفسي (أوردها

(١٨) سورة النحل الآية (١٢٥).

(١٩) سورة طه الآية (٤٤).

(٢٠) سورة آل عمران الآية (١٥٩).

سعد وسعد مشتمل ما هكذا تورد يا سعد الإبل).. إنها صفات تتباين، ومفاهيم تختلف، وقبول ورفض.. الخ، وقد لاحظت تعاطف عدد من المصلين معي للحرج الذي وقعت فيه.. إلا أن أحداً منهم لم يتفوه ببنت شفة.. فشكراً له لأن ترك القبيح من أكثر الناس إحسان وإجمال.. ثم ردد صاحبي قول الشاعر:

ما كان عذري أن أُجيب بمثله أو كنت بالعتب العنيف مجيبا

كثيراً ما نسمع من بعض الدعاة نهياً وزجراً وغلظة في القول وعبوساً وتقطيباً في الوجه.. ويُقَابَلُ ذلك من المستمع بنفور واشمئزاز.. وفي المقابل هناك آخرون ممتلئة نفوسهم بالحب والبشر والهدوء ولين الكلمة.. ممن حصلوا على بسطة في العلم والمعرفة، وموهبة من العقل والتؤدة.

فالكلمة الطيبة والوجه الطلق لهما أكبر الأثر في التعامل بين الناس فقد رُوي عن حكيم قوله:

(إن الفاسق إذا كان حسن الخلق عاش بخلقه وخَفَّ على الناس وأحبوه، وإن العابد إذا كان سيء الخُلق ثقل على الناس ومَلُّوه).

لقد ذكّرني صاحبي بموقف عشته في صباي أثناء الستينيات من القرن الرابع عشر الهجري بهجرة الأرطاوية بمسجد الجامع عند العِشاء وقبل الصلاة في فناء المسجد صيفاً.. والحضور عادة لا يتجاوزون صفاً واحداً، كان شاب يقرأ على نور (السراج) سورة يوسف.

وفي انتظار إقامة الصلاة كان سليمان الفدا، أحد جماعة المسجد يجلس على يساره برجس بن مجول الجبلي وأخذ برجس يتثاءب بصوت

مسموع دون أن يُغطي فاه بيده.. فما كان من سليمان الفدا إلا أن نصحه بأن يكظم تثاؤبه وأن يغطي فاه بيده ويتعوذ من الشيطان الرجيم.. لكن برجس كان يتمتم بصوته الأجش قائلاً (الله من الكذب.. الله من كبر الجهم).

صعب الأمر على سليمان الفدا، واكفهر وجهه ولاذ بالصمت مؤثراً عدم الإثارة. وبعد أن قُضيت الصلاة.. قام الوجيه عبدالكريم بن عبدالمحسن العبدالكريم بالانتظار عند بوابة المسجد بقصد توجيه نصيحة إلى برجس.. ممهداً لها بمحبة وتكريم.. فبادره بالسلام وعرض عليه الدعوة لاحتساء القهوة.. فكان رده: (معاد إلا النوم) وكانت العادة في مجتمعات الهجر الخلود إلى النوم بعد صلاة العشاء.. فكرر له الدعوة بقوله: (حلو) أي إلى جانب القهوة إبريق من الشاي.. قال له برجس موافقاً: (حلو) توكل على الله. (ومن المعلوم أن الشاي في ذلك الوقت قلّما يوجد وعشاقه والراغبون في شربه كثيرون).

وبعد طول كلام كله لطف ولين قال له ابن عبد الكريم.. أبا مجول.. أنت أحد رجالات الإخوان ومن الداعين للخير.. لماذا هذا التجهم وقد نصحك أخوك سليمان بأن تغطي فاك بيدك عند تثاؤبك وأن تتعوذ من الشيطان، لماذا ترد عليه بقول فظّ: (الله من الكذب.. الله من كبر الجهم).. فانتفض برجس متفاجئاً ومقسماً أنه لم يقصد بكلماته تلك سليمان ولا غيره وإنما قصد إخوة يوسف (أولئك الإخوان الكذبة الذين يقولون لأبيهم أن أخاهم قد أكله الذئب).. واعتذر برجس عن سوء الفهم الذي نجم عن غير قصد.

فبرجس كان مستغرقاً مع قارئ سورة يوسف الذي كان في الصف الثاني ومتتبعاً لقصة يوسف عليه السلام لكنه لم ينتبه لقول جاره سليمان.

مخزون في الذاكرة أثارته قصة نغمات الهاتف التي رواها لي صاحبي ارتأيت اغتنام فرصة للتنويه بالطريقة المثلى التي سلكها الوجيه عبدالكريم –رحمه الله– والتي يؤخذ منها عبرة واعتبار للكيفية التي يجب أن يتخذها الداعية والناصح في إبلاغ نُصحه وإرشاده، وما أحوجنا لمثل هذه المواقف التي تدل على حسن التعامل وتجنب الغلظة في القول والزجر، والدعوة بالحسنى ولين الكلمة، والله الهادي إلى سواء السبيل.

بُـــنـــيّ إن الـــــبرّ هـين وجـــه طـلـيـق وكـــلام لـين

١٤٢٧/٦/٨هـ

(٣٣) ضربـــــة حـــظ

ومـــن كـانـت مـطـيـتـه الأمـــاني أنـاخـت حـيـث لا يـرجـو انـقـلابـا

يسبح في عقده الثامن من العمر..يُعاني من أمراض الشيخوخة.. يعيش على مرتب تقاعدي لا يكاد يجزئ.. له عدد من البنات، وولد واحد، وكالعادة أولى صاحبنا ولده الوحيد جُل اهتمامه من رعاية وعناية وتدريس لكن الولد الوحيد لم يكمل دراسته لتكرار رسوبه سنة بعد سنة مما جعل الأب البائس يفتش له عن أسلوب عملي آخر في حياته.

صار يبحث له عن عمل مستنجداً بكثير من الشفاعات، وكلما أتيحت له فرصة الالتحاق بوظيفة ينتهي به المطاف إلى تركها أو ترك الوظيفة له لكسله وعدم انضباطه.. وهذا زاد من هموم والده وأضاف له حِملاً جديداً ضاعف من معاناته، وكيف بالوالد وهو على عتبات الآخرة ينشد من يخلفه في بناته ويبني له ذكراً مثلما فعل أقران ولده، لكن المسكين كلما استنهض ابنه للقيام بمهمة ما.. سمع الولد يندب حظه المتعثر.. متناسياً دوره السلبي وإهماله وكسله، وصحبته لقرناء السوء.. الخ.

لقد أصبحت كلمة (الحظ) شعار الجبناء وشماعة يُعلق عليها الفاشلون في حياتهم أخطاءَهُم وقلة حيلتهم.. إنها حجة العاجز الخاسر.. ألا يغتنمون الفرص وهم يعيشون العصر الذهبي لبلادهم التي يتوافد إليها الطامحون من أقاصي الأقطار؟ ألا يرون أنهم السبب في تدني أوضاعهم وخيبة آمالهم؟

إن موضوع الحظ وتغني الكسالى الفاشلين والباحثين عن الرفاه من غير كدٍّ ولا سعي يفوتهم الركب وتتردى أحوالهم.. والعجيب أنهم ينتظرون ساعة حظ لا توجد إلا في الخيال.. وأود أن أسمع هؤلاء وأمثالهم قصة سمعناها صغاراً وضحكنا من مصدقيها كباراً.

يروى أن أربعة نفر انقطعت بهم السبل، اجتمعوا لتدارس وضعهم بالبحث عن مصدر رزق لهم.. فرأى أحدهم طرح مواهبهم ومعرفة قدراتهم ليوحدوها في مسار يحقق هدفهم ويمكنهم من بلوغ مرامهم.. راق لهم هذا الاقتراح وأخذ كل منهم يعرض مواهبه وقدراته.

فقال الأول: أنا أرى عن بُعد.. مسيرة ثلاثة أيام للراحلة.

قال الثاني: أنا أسمع عن بُعد.. مسيرة ثلاثة أيام للراحلة.

قال الثالث: أنا أصارع وحدي.. ثلاثة من أشداء الرجال.

وقال الرابع: أنا لا أجد ميزة أذكرها لكم إلا أن يخدمني الحظ.

فتدارس الثلاثة أمرهم.. ليتركوا رابعهم ويمضوا في شأنهم. إلا أن أحدهم قال: ومن يدري لعل له حظاً نشترك معه فيه.

اتفق الأربعة على القيام برحلة صحراوية باحثين عن مصدر كسب مهما كان نوعه، والسعي في مناكبها وعلى الله قصد السبيل.

وبعد أن أخذهم عناء السفر الذي لم يروا خلاله غير الكدر والحجر وشيئاً قليلاً من الشجر قال الأول: إنني أرى قصراً مشيداً على بعد ثلاثة أيام، ولم يقل أي شيء آخر غير كلمة أرى، ثم بدأت مهمة الثاني الذي طال انتظارهم ليخبرهم بما يسمع، وفي اليوم الثالث وبعد أن اقتربوا من أسوار القصر بدأ يدور حوله وبعد طول تحسرٍ سمع قرع قدمي فتاة تمشي داخل القصر، فأخبرهم بما سمع وسكت.

وهنا جاء دور ثالثهم (الشجاع) والذي مهمته هي الأكثر صعوبة فاعتلى السور ثم نزل بساحة القصر فوجد الفتاة التي فوجئت بمرآه.. خافت أولاً فأعطاها الأمان واطمأنت.. سألها عن حالها.. فقالت: كان لأبيها مولى غدر به وبأخويها وقتلهم جميعاً ثم استولى على الإبل والقصر وتزوجها عنوة فسألها (الشجاع): وأين هذا المولى الآن؟ أجابت: إنه سارح بالإبل وسيعود في المساء.

وبعد أخذ ورد.. اتفق معها على قتل المولى ورسما خطة لذلك.. بدأ بزملائه فأقصاهم ورواحلهم عن الأنظار، وفي المساء أَعطته الفتاة سيف والدها، وأخفته في زاوية من الغرفة بحيث يَرى ولا يُرى ثم جاء المولى متبختراً مزهواً بنفسه وجلس يتناول الطعام، وكانت المرأة قد أخذت زينتها وذهبت إلى غرفتها، فلحق بها المولى متطلعاً إلى ساعة أنس ولذة.. وهنا عاجله صاحبنا من الخلف بضربة سيف أردفها بأخرى فقضى عليه.. ثم دعا رفاقه وزف لهم البشرى فنقلوا ما خف حمله وغلا ثمنه مع قطعان الإبل.. أخذوا كل ذلك ظانين أنهم غنموا، وما دروا ما تخبئه لهم الأيام والليالي من ويلات ومصائب.

أعجبت الفتاة بشجاعة الشجاع فاقتربت منه ولصقت به.. مما أثار حفيظة الزملاء الذين اعتبروا الفتاة كسباً لهم جميعاً وأن ثمنها لا بد من توزيعه بين الشركاء الأربعة.. في حين أن الشجاع رأى أنها ليست ضمن مكاسبهم فصار بينهم شيء من التوتر، وبقربهم من مضارب عشيرتهم لآخر ليلة من مسيرتهم.. كانت الإبل في مرتع، وبعد فراغهم من العشاء واستعدادهم للخلود إلى النوم ذهب اثنان منهم لإحضار الإبل، فلم يعودا فذهب الثالث لاستطلاع الأمر ولم يعد هو الآخر، ولم يبق في المنزل إلا الرابع ذو الحظ ومعه المرأة.

في الصباح الباكر.. ذهب الرابع والمرأة للبحث عن الرفقاء والإبل، ويا لهول ما رأيا.. فقد وجدا الثلاثة قد قتلوا في أماكن متباعدة، ووجدا الإبل في مرتعها، وعند استجلاء الأمر تبين لهما أن هناك أصحاب إبل آخرين ظنوا أن هؤلاء من الغزاة قطاع الطرق، فقتلوهم، وبقتلهم صفا الجو للرجل ذي الحظ الذي تزوج المرأة وحظي بمجمل الغنائم وعاش مع زوجته في سعادة وهناء.. وهذه كانت ضربة حظ.

لكن الحظ والنجاح لا يأتيان عرضاً.. بل بسعي وبحث وكفاح، وقد يلعب الحظ دوره بتوفيق من رب العالمين في مستويات النجاح ومقدار الكسب.. ولا يجوز أن يُعَوِّلَ الفاشلون والكسالى على الحظ دون بذل جهد وعناء.. ومن يفعل ذلك يمنّي النفس بخيال لا حقيقة، ويكون عقله مليئاً بالأحلام التي أضلّتها الأماني. وصدق الشاعر حيث قال:

بقدر الكد تكتسب المعالي ... ومن طلب العلا سهر الليالي
ومن رام العلا من غير كدٍ ... أضاع العمر في طلب المحالِ

ورحم الله شوقي الذي قال:

وما نيل المطالب بالتمني ... ولكن تؤخذ الدنيا غلابا
وما استعصى على قوم منال ... إذا الإقدام كان لهم ركابا

ومالي وللشعراء وقرآننا يقرر ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾[٢١].

(٢١) سورة النجم آية (٣٩).

١٤٢٧/٦/٢٠هـ

(٣٤) احتمال لرجال كالجمال

شاخ كما تشيخ النفوس مع تقادم السنين، ورأى خلال تجاربه صنوفاً من السلوكيات المختلفة.. منها: ما تَطرب له الأنفس وتزهو، ومنها ما يعتصر قلبك ألماً وحسرة.. فتلك عقول ارتفعت وسمت، وأخرى في الوحل انغمست، وما بينهما مساحة على درجات من السفح في هبوط ونزول.

البناء ليس بالأمر البسيط، وليس في وقت قصير يتم البنيان.. أمَّا الهدم فإنه يتم خلال ساعات قليلة، وهو ديدن فئة صغيرة.

رأيته قادماً يمشي بخطوات قصيرة مثقلة.. يتؤكأُ على عصا غليظة.. يُتمتم بكلمات غير مفهومة.. استقبلته ببشاشة وحرارة مرحباً ومداعباً له بقولي: لقد أضَفْتَ قدماً ثالثة يا شيخنا مع أنك ما زلت شاباً.. قال: لست بالشيخ الذي يدب دبيباً، وما زلت أمشي والحمد لله.. ومع هذا فقد عناني الشاعر بقوله:

ألق العصا للشيخ يا ابن الحارثة إن العصا للشيخ رجل ثالثة

ثم زفر بعد ذلك زفرة حارة من أعماقه.. أتبعها بأنين كأنه رغاء الجمل.. لكن ما يختزنه من التجارب والمواقف أضفى على شيخوخته شيئاً من الوقار الذي يستلزم الاحترام.. ثم التفت إليَّ وقال:

يا بني: تلك حال من منحه الله سنوات من العمر طويلة قضاها بحلوها ومرها، والسعيد من عاش عمره في فضائل إيمان ودين وتقوى، ومساع خيِّره في دنياه تُذكر، وعمل صالح لآخرته يُدَّخر.

قلت: يا عم قد أعطاك الله موهبة الحكمة ومنحك تجربة وخبرة.. كيف توجهنا ونحن الشباب نسبح في معترك حياة تتزايد فيها المحن وتتلاطم فيها الأمواج.

قال: بماذا تراني سأُجيب؟.. إنها عقول ومهارات، ومعارف تُكتسب، وتجرد من أهواء، وبذل وسخاء، وسعي لإعطاء انطباع حسن، وفوق هذا وذاك توفيق من الله سبحانه.. ثم استطرد في حديثه قائلاً:

كثيرة هي الحكايات والحوادث، وتباين الآراء.. يحكمها تنوع الثقافات ويتخللها ميول النفس ودوافعها.. مما يجعل المتتبع يقع في حيرة من أمره وصواب رأيه، وذلك شأن عام على مختلف الأصعدة والطبقات.. فالمتطلع لإشراقة حياة جديدة يبحث عن حقائق وتجارب.. لعله يرسم منهجاً يتخذ منه مساراً لتحقيق شيء من طموحاته، وهنا يأتي المحك ومعرفة نوع المعدن وصلابته.

إن كثيراً من الشباب ميَّالون للخمول والدعة نتيجة للرفاه ورغبة في الخلود إلى الراحة، وينقصهم الانضباط وروح الانتماء.. مما يُضعف لديهم القدرة الإنتاجية، وبالتالي يصبحون عالة على المؤسسة التي يعملون فيها ومدعاة لتحميلها المزيد من الخسائر والتراجع.. وعلى العاقل أن يضع لنفسه منهج حياة كريمة وأن ينفض عن عينه الكرى.

قلت: هناك حواجز وعوائق أفرزها عصرنا الحديث بمتغيراته ومستجداته.. فكيف بنا نحن الشباب لنتجاوز مثل هذه العقبات؟

أجاب: القفز منه ما يؤدي إلى السقوط وتهشم العظام، والتراجع والخوف إذا تجاوز الاعتدال والحذر قد يوصلان إلى خطر، وحتى لا ينقلب العلاج إلى سقم ومرض.. علينا أن نعلم أن لكل عقبة كؤود منفذاً أو مخرجاً.. فبالمحاولة وتكرارها والبحث عن حلول تُبلغ النتيجة ويتحقق المطلب.

أخذني الصمت والتفكر بقوله ثم قلت: إن الحديث في هذا الشأن شيق ومفيد.. فهل من مزيد من النصح والإرشاد يا عمَّاه؟

قال: ألمس من أسئلتك نجابةً وتطلعاً.. التمس ضالتك لدى من هو أكثر مني خبرة وأوسع تجربة ومعرفة ممن طووا عشرات السنين واستوعبوا أحداثها وتجاربها.

قلت: لا تبخل عليَّ من معين ذاتك، وأنت الذي جُلت الأقطار والأمصار، وعُرف عنك الكثير من المعرفة والحكمة والتجربة.

قال: حسناً يا بني.. سأروي لك قصة حيَّة لعلك تستخرج منها حكمة ومعرفة من خلال تحليلك لأبعادها وتفهمك لرؤاها.

إلى عهد قريب كانت البادية تتنقل في البراري طلباً للكلأ والمرعى لإبلها ومواشيها، وذات مرة كان (مظهور) ابن ملحم شيخ المنابهة من عنزة يقود قافلة الانتقال وهي في طريقها بأحمالها من مكان إلى مكان آخر على بعد مسافة يوم للإبل، وعادة ما تكون أواني الطبخ والمؤونة على الجمل المسن.

عند اختيار موقع النزول في المكان المناسب.. ينشغل الجميع في تدبير شؤونهم ونصب خيامهم، وآخر بعير يُحط عنه حمله هو ذلك الجمل الحامل للأواني، التي تشمل فيما تشمل القدور وأدوات ذبح الأنعام كالسكاكين وغيرها الموضوعة ضمن الأواني والعفش، وخلال المسيرة انفلتت سكين حادة من موضعها في اتجاه جسم الجمل وأثناء السير اخترقت السكين جلد الجمل ثم نفذت إلى جوفه وإلى كبده ثم طعنته بقوة.. لكن الجمل الذي تميّز بالصبر والاحتمال كان يواصل السير بلا أنين ولا تضجر أو تبرم.

وبعد إنزال العفش من على ظهره سُحبت السكين من جوفه وتدفق الدم أمام الحاضرين، وما كان من الجمل إلا أن ضرب برأسه ورقبته على جانبه ثم فارق الحياة.

هنا تم إبلاغ الأمير ابن ملحم الذي جاء وشاهد الجمل فحزن وذرفت عيناه دمعاً صبيباً حاراً، فاستهجن بعضهم واستنكر ولام، وقالو: أيبكي ابن ملحم لموت جمل وهو أمير وراعي إمارة وثروة وكرم وشهامة.. فكان رده إن بكاءه كان على رجال عظام تذكرهم ضحوا بأنفسهم وماتوا كما قضى هذا الجمل الذي تَحَمَّل آلاماً وأوجاعاً حتى فارق الحياة، ولم يشك أو يتشكّ أو يتبرم، وأردف قائلاً: قِلّة هم الرجال الذين يتحملون ويصبرون ويضحون في سبيل عشيرتهم وقومهم ووطنهم، ويبذلون الغالي والنفيس، ويتجاوزون عن الأخطاء ويرتفعون فوق الأحقاد، لا ينتظرون شكراً من أحد.. يؤدون الواجب ويقضون نحبهم ويتحملون ما لا تتحمله الجمال ولا الجبال.. إن دمعي

على هؤلاء الذين ذَكَّرنيهم الجمل الصابر ففاض دمعي وتضاعف حزني على رجال هم في الذروة تضحية وفداء وصبراً ومصابرة، وإنْ أنسَ فلا أنسى جملاً حمل متاعنا إلى بلد لم نكن بالغيه إلا بشق الأنفس ومات نتيجة جهل في التحميل والتنزيل.

شكرت شيخنا المجرب على قصته عن ابن ملحم وتيقّنت أن العظماء يبكون العظماء، وأن الكبار يقّدرون الكبار ويحزنون لفقدهم، وأي مناسبة حزينة هي مدعاة لذكرى إخوان المرء وأحبائه.

ثم قلت له..أثابك الله خيراً يا شيخنا لقد أتعبتك وأراك الآن راغباً في الانصراف رغم تعطشي لمواصلة السماع من عذب أحاديثك.. فهل من سبيل إلى لقاء يتجدد فيه الحديث لنرتوي من معين جاد وتجود منه بفيض من التجربة والحكمة؟

أومأ برأسه موافقاً وهو ينقل خطوات مثقلة.. متمتماً بدعاء وثناء. غفر الله له.

١٤٢٧/٦/٢٥هـ

(٣٥) زواج مسيار

الإيمان والأمن والأمان والصحة في الأبدان، ورغد العيش.. نِعَم ما بعدها نِعَم، أمَّا توافر المال فربما يدعو أحياناً لطيش الإنسان وغفلته، فيسرح في طلب الأنس والمتعة.. متناسياً شكر الله على هذه النعم.. سالكاً قنوات من المتاهات التي لا لزوم لها.

جاء في محكم التنزيل قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى (٧)﴾[٢٢].

ويقول الشاعر الشعبي حميدان الشويعر:

النعمة خمر جيَّاشة ما يملكها كود وثقه
والجوع إخديديم أجواد ودّك ياطا كل أزنقه

في ريعان شبابه حصل على قسط وافر من التعليم ثم شغل مركزاً وظيفياً مرموقاً.. كان موفقاً في زواجه.. سعيداً في حياته.. لا ينقصه إلا الشكر لله وطلب دوام هذه النعمة.

تردد على مسامعه من أقرانه (زواج المسيار).. هذا الزواج الذي شاع وذاع ذكره وتعدد مؤيدوه ونقاده في المجالس وعلى صفحات الجرائد.. طرف من الناس يعد السلبيات، وطرف آخر يذكر

(٢٢) سورة العلق الآية (٦، ٧).

الإيجابيات، ولكلٍ مسلك ومنهج في هذه الحياة، وما من شك أن من محاسن زواج المسيار: رعاية لأرملة وأم أولاد، وصيانة لمطلقة أو عانس فاتها القطار، أو وحيدة أبويها المعيلة لهما أو لأحدهما.

اختمرت في ذهن صاحبنا فكرة البحث عن زوجة ثانية تَرضَى بمثل هذا الواقع، مع تجنّبه الحرج مع زوجته.. فكان أن وقع اختياره على شابة معلمة وحيدة أبويها ومعيلة لهما، وصار الاتفاق، وتم عقد القران.. آخذاً في الاعتبار أنه سيختزل من وقت عمله ورعاية منزله.. ما يوفر له المتعة ولها الطمأنينة، وبعد تحديد موعد الزواج.. أبلغ زوجته الأولى أنه مسافر في مهمة إلى جدة وسيعود بعد يومين.

صار اللقاء وبعد إجراء مراسم حفل الزواج بشكل مصغر اصطحب عروسه من بيت أهلها ليقضي ليلة في الفندق، وعند إحدى إشارات المرور، وبينما هو يتحدث معها مستعرضاً مكانته الوظيفية وعلاقاته الاجتماعية.. تجاوز خط المشاة.. فما كان من جندي المرور إلا أن أنَّبه وأمره بالرجوع قليلاً إلى الخلف.. فعاد لكنه شعر أن في ذلك خدشاً لكرامته أمام عروسه الذكية اللماحة (والتي تختزن لها من الدهاء ما لم يحط به علماً).

فتمتم بكلمات ناوياً توجيه الشتم لهذا الجندي عندما تضيء الإشارة الخضراء ثم ينطلق مشبعاً غروره، وبإضاءة اللون الأخضر الذي يعني فتح الطريق أرسل كلماته المشينة لذلك الجندي.. ثم ضغط على مكبس البنزين.. إلا أنه فوجئ برجوع السيارة إلى الخلف بدلاً من اندفاعها إلى الأمام ذلك لنسيانه تغيير (جير السيارة) ناقل

السرعة.. فكانت النتيجة ارتطامه بالسيارة التي خلفه، وبات بين مشكلتين: الألفاظ البذيئة الموجهة للجندي، وما خَلَّفهُ الحادث.

فأبرز بطاقة التأمين لصاحب السيارة المصدومة، وبقيت مشكلة الجندي التي أدت إلى شخوصه لمركز الشرطة ليقضي ليلته برفقة عروسه في مد وجزر وجهد وعناء.. حيث انتهى الأمر بصلح وتنازل.. ليواصل مشواره إلى الفندق ليصل إليه عند بزوغ الفجر، وأثناء تقدمه للاستقبال.. لم يجد اسمه ضمن الحجوزات، فرفع صوته على موظفي الاستقبال واتهمهم بالفوضى والإهمال.

تدخل مدير الاستقبال لتهدئة الموقف، ولما طُلب منه إبراز إيصال الحجز أخذ يفتش في جيبه وحقيبته وبعد طول بحث عثر على الإيصال فقذفه بعنف وتعالٍ، وبعد تمعن المسؤول في الإيصال تبين أن الحجز بفندق آخر غير هذا الفندق. فجاء دور استهجان مسؤول الفندق له، وذهب العريس يجر حقيبته بخزي وندم متجهاً لفندقه ليستقبل نهاره متعباً منهكاً طالباً للراحة بعد أن استقر في مكان إقامته بفندقه.

توالت الأيام والشهور يوماً يزور عروسه في بيت أبويها، ويوماً آخر يصطحبها للتمشية لغداء أو عشاء في مطعم، وتوطدت بينهما محبة وألفة، ثم رغبت في أن ينكشف أمر زواجهما ويُعلن، وأخذت تفتعل الحيل، فوضعت مرة منديلاً أبيض عليه أحمر الشفاة في السيارة لعل زوجته الأولى تجده وتشك في أمره.. لكنه لاحظ ذلك وصار دائم الحذر يفتش سيارته ولا يترك فيها شيئاً من بقايا هذه الزوجة.

ذات مساء كان مع زوجته الجديدة في مطعم فجاءه اتصال هاتفي من زوجته الأولى تُعقِّب وتعاتبه لتأخره عن موعده معها لإيصالها إلى مقر حفل زواج كانت مدعوة إليه.. فأخذه الارتباك وسارع إلى محاسبة المطعم والاستعداد للعودة بزوجته الثانية إلى أهلها.. مما جعلها تتساءل وهي العارفة.. لماذا هذه السرعة بالعودة، ؟ ولم نكمل تناول الوجبة بعد؟ فاختلق لها أعذاراً غير مقنعة.

أنزلها في بيت أبويها وذهب على عجل لزوجته الأولى التي وجدها في أبهى حللها تنتظره على مضض، وبعد شديد عتاب على التأخير.. ركبت معه في المقعد الأمامي ولكن الارتباك كان بادياً عليه.

وفي أثناء الطريق لاحظ ما زاد في ارتباكه وخوفه من انكشاف أمره، لرؤيته فردة حذاء تركتها زوجته الثانية في السيارة، وصار في حيرة شديدة كيف يتخلص منها فأخذ يشاغل زوجته بحديث عن هذه العمارة وعن تلك الأخرى ليلتقط فردة الحذاء ويضعها عند جانبه الأيسر.. سألته زوجته وهو مرتبك جداً، ما بالك؟ هل حدث لك أمر؟ أخذه السعال المفتعل وتناول منديلاً ليمسح فمه، وعند وقوفه أمام إشارة المرور فتح الباب متظاهراً بقذف المنديل ملحقاً به فردة الحذاء.

بعد تجاوز الإشارة تنفس الصعداء مرتاحاً ظانّاً أن الله وقاه من افتضاح أمره، وانكشاف سره، وعند بوابة الفندق حيث مقر الحفل.. أخذت الزوجة تستعد للنزول بكبرياء واختيال متباهية بمظهرها، ويا لهول المفاجأة لهذا الزوج المسكين.. عندما سألته زوجته أين حذائي؟!!

صُعِق الرجل وتلعثم وارتبك وصار يفتش عن حذاء الزوجة، ولما لم يجد شيئاً قررا العودة لإحضار حذاء آخر، لكن الزوجة الأولى هالها لغز اختفاء فردة الحذاء الذي لم تجد له ما يبرره.. وجرى عتاب وصخب ولجب.

سارت حياة الزوج على هذا المنوال وأنجب أطفالاً من الزوجة الثانية إلى جانب أولاده من الزوجة الأولى.. حتى انكشف سره وافتضح أمره، وأصبح يُصارع تيارات من الغضب والاستهجان من الزوجتين، وساءت حاله، ولم يوفق بحسن إدارة ولمّ شمل العائلة.. وكانت أكبر المنغصات والهموم مشاجرات تقوم بين الأولاد لا تهدأ لأن كل أم كانت تشحن أولادها بالبغضاء والأحقاد.. وانطبق على صاحبنا قول الشاعر:

جَـهِـلْـتَ ولا تـدري بـأنـك جاهـل ومن لي بأن تدري بأنك لا تدري

لو فكر هذا الإنسان في واجباته الحياتية والتزاماته ولو أمعن النظر في واقعه، وفي مسار دنياه، وما يُخبئه له القدر من مفاجآت وأحداث.. لأعاد حساباته ورسم لنفسه خطاً يجنبه شر المنزلقات وأعباء الأحمال التي لا طاقة له بها.. ولكن هيهات حين مندم.

لم يكن صاحبنا في حاجة للزواج ولم يكن هناك ما يدعو إليه.. إلا دوافع الغريزة وعدم تحكيم العقل وفقدان الإرادة.. وقلة التدبير وسوء الطالع وعدم التوفيق.. كل ذلك أدى إلى تحمله ما تحمل من هذه الأعباء والآلام والمتاعب والمنغصات وليته عمل بقول الشاعر بل ليتنا كلنا نعي قول الشاعر الحكيم:

وأعقل الناس من لو مات من ظمأٍ لا يقرب الوِرد حتى يعرف الصَدَرا

١٤٢٧/٨/٤هـ

(٣٦) إعمال الفكر

رأيته شارد الذهن سابحاً في أحلام اليقظة.. يناجي نفسه بكلمات غير مفهومة.. لم يسترعِ انتباهه جلوسي بالقرب منه.. أردت أن أُعطيه فسحة للتأملات قبل أن أبادره بتحية. وطال انتظاري، وأشفقت عليه، وفكرت فيما آل إليه حال شيخنا من سرحان الفكر والقلق والهموم.

ناديته يا عمَّاه.. تنبه بعد أن بادرته بالسلام، وقلت له: لِمَ أنت غارق في متاهات من شوارد الذهن بإعمال فكرك بجوارح إفرازات العصر ومنغصاته؟ فنظر إليَّ نظرة صامتة كلها عتب.. نظرةً موجهة إلى من لم يمر بتجربة أو يُعاني من نوائب الدهر.. ثم تنهد وشهق وزفر زفرة حَرَّى ثم قال:

يا بني ألا ترى ثقل الحمل: أبناء وأحفاد وأسرة وجماعة ومجتمع.. ومتغيرات صار لها من التبعات الشيء الذي أثقل كواهل العقلاء وزاد من الهموم والمعاناة.

إن مستجدات العصر وما صاحبها من ثورة صناعية واقتصادية واجتماعية وتطور في المواصلات والاتصالات ووسائل التقنية.. قد أوجدت تيَّارات من شتات الفكر وإفرازات من شواذ البشر وعوامل الإرهاب والحروب والتناحر والخلافات التي لم تكن معروفة، وما صار لها من آثار عكسية ومخاوف تنذر بشؤم ورعب.

سألته: وهل لك صلة في علاج ما شرحت؟

قال: يا بني، إنَّ الذي يشغلني ليس علاج ما يصير على هذه الأرض ولست معنياً بذلك، وإنما الذي يهمني مسايرة الأبناء والأحفاد لهذا التيار الذي يقتضي الحصانة والاستعداد للمواجهة بسلاح هذا العصر.. نعم لا بد من أخذ الحيطة والحذر والأخذ بأسباب الوقاية بجدية وصبر واحتمال.

قلت: وما هي الوسيلة لمواجهة هذا التيار؟

فجاء الجواب سريعاً يعصر قلب هذا الشيخ الهرم الذي يختزن الشيء الكثير من الخبرة ومرارة المعاناة فقال:

وسائل الحرب ووسائل الوقاية متعددة ومتنوعة ولكل حال لبوسها من أنواع السلاح، ومن أهمها ألا تحارب عدوك بالسلاح الذي تخشاه أنت بل حاربه بالسلاح الذي يخشاه هو.. فالعدو القادم مجهول الهوية ومجهول المكان والزمان، والتسلح يقتضي منا إصلاح أنفسنا تربية والتزاماً وتحصيلاً.. علماً ومعرفةً كما يستلزم تلاحماً وتعاضداً، وبحث أوضاع من خلال حوارات ومجادلة هادئة هادفة.

قلت: شيء جميل ورأي حكيم أن يتحقق مثل هذا السلوك، ولكن هل تعتقد أن ذلك متيسر؟

أخذه وجوم وصمت طويل.. ثم نظر إلى لوحة معلقة على حائط بهو المنزل تمثل منظر واد وسفح جبل، ومرتفع ينهمر منه الماء، وأشجاراً وخضرة ووجهين حسنين لعروسين يقضيان شهر عسل، ثم قال: أمعن النظر بهذا المنظر، وسأل: هل تظن أن الحياة ساعات سعادة.. يمر

بها هذان العروسان.. أم أن الدهر يخبئ لهما الكثير من المفاجآت والمصائب.. فردية وعائلية وأسرية واجتماعية؟

قلت: بطبيعة الحال متقلبات الزمن ونوائبه كثر.. نرى أثرها وما خلفته من نزول وارتحال ونكبات بين وقت وآخر.

قال: يا أيها الشاب اليافع.. إذا كنت تعرف ذلك فإن لقانون الحياة نظاماً وأحكاماً وتبعات يَثْقُل حملها.. لا يعيها ويتقيد بها إلا العقلاء ممن يتجنبون طيش الشباب ونزقه ولهوه وعبثه، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، لكن ما أكثر طيش الشباب، ومثلهم ممن شارفوا على الشيخوخة ولا يزالون في مراهقتهم وسفاهاتهم رأياً وسلوكاً وتعاملاً.. كفانا الله شرورهم وهدى الجميع إلى ما يحبه ويرضاه.

أما ترى إن إعمال الفكر ووضع الخطط الاستراتيجية مطلب ملح وأنه ليس وقفاً على فئة أو دولة أو منظمة، وإنما هو شأن شامل لكل الناس جماعات وأفراداً، وما هذا إلا من عوامل الأخذ بأسباب السلوك الإنساني ودواعي التنمية والطمأنينة التي ينشدها الجميع.

قلت: يا شيخنا استرعى انتباهي إشارتك إلى مراهقة الشيوخ.. هل من الشيوخ من تستمر معهم المراهقة؟

قال: نعم وما أكثرهم وأشرسهم سفاهةً وجهلاً، وأشدهم عناداً ومكابرة.. أما سمعت قول زهير:

وإن سفاه الشيخ لا حَلْمَ بعده وإن الفتى بعد السفاهة يَحْلُمِ

كثيرون هم الشيوخ الذين يواصلون إشباع رغباتهم من أنس وملذات، وينتقدون الآخرين وهم أحق بالانتقاد تراهم سارحين في غوغائيتهم دون حياء أو وجل.. مهملين رعاية أبناء ومنازل، ومتناسين حقوقاً اجتماعية وواجبات وطنية.. كأنهم لم يمروا بخبرة ولم يتعظوا بتجربة.

يقول الشاعر:

إذا لم يكن للمرء عقل فإنه وإن كان ذا بيت على الناس هين

شيخنا الفاضل: لنعد إلى إشارتك لإعمال الفكر ووضع الخطط الاستراتيجية.. إن مثل هذه الخطط تتطلب دراسة واستقراء المستجدات، ونحن الشباب نعيش يومنا ونسعى للمحصول الفوري.

قال:

إذا أنت لم تزرع والفيت حاصداً ندمت على التفريط في زمن البذْرِ

يا بني قد لامست شيئاً يدور في ذهني عن شريحة من شباب هذا العصر الذين أخذتهم المتع الزائفة وإشباع الرغبات المتدنية والميل إلى الأنس والملذات، وهذه والله كارثة وعثرة في طريق البناء والعطاء والانتماء.

إن التعليم وحده لا يكفي مالم يصاحبه تخطيط وسعي لحسن تربية.. والتربية هي مسؤولية البيت الدائمة ثم المدرسة والأجهزة المعنية على مختلف أنواعها، وبالسعي الجاد وتضافر الجهود يتحقق المطلوب.

وإلى هنا يا بني أود أن ننهي هذا اللقاء إلى لقاء قادم إن شاء الله.. مودِعاً ومهدياً لك الحكمة التالية:

(ما ادّخر الآباء للأبناء، ولا أبقى الأموات للأحياء شيئاً.. أفضل من اصطناع المعروف عند ذوي الحاجات).

فإن استطعت فافعل!

١٤٢٧/٨/٢٨هـ

(٣٧) جامعة في ذات شيخ[٢٣]

إذا أنا لم أمنحك صدق مودتي فما لي إلى المجد المؤثَّل من عُذْرِ

تحلو الأيام وتصفو مشاربها.. مُسَيِّرةً المرء عبر وهاد وسفوح وغابات من الآمال والتطلعات.. سارحاً في غفلة من أمره.. مستبعداً ما يُخبئه الزمن من أحداث وظواهر موجعة، ومتنوعات من مصائب الدهر وجوائحه، وما تطويه الأيام من دقائق وساعات هي عمر الإنسان.

وتصير أمور وتجري أحداث وتختلط مفاهيم.. تغمرها أهواء وأغراض، وتلفها افتراءات وحجج وتقويض، وتصعيد لتفاهات هابطة، وإعمالٍ لأدنى فكر.. ثم تجيء شحناء وقطيعة رحم أمام ناظري ممن لم يقل كلمة حق أو يسعى لصلح ورأب صدع. وهذا شأن يحدث بين إخوة وعائلة وأسرة وجماعة غاب عندهم الوعي.

يقول حكيم: ضعف النظر يورث العثار، وضعف الرأي يورث الدمار.

إن المتأمل لما ستؤول إليه حال المرء من شيب وهزال وسقم واستعداد لارتحال، وفراق أبَدِي لا عودة معه.. مصحوب بهموم ومؤونة إرث من القيم وحصاد عقود من الزمن.. ليتساءل: أفي هذه الحياة الفانية ما يستحق الوقوف عنده غير مكارم الأخلاق؟

(٢٣) معالي الشيخ: عبدالعزيز بن عبدالمحسن التويجري.

عرفته وأنا في سن الصبا وأصبحت متابعاً لسيرته ومستمعاً لما يروى عنه من مآثر وقيم، ومضت الأيام والسنون وأنا أرى فيه المثل والقدوة متمنياً أن أستمد اليسير من رقي فكره ورجاحة عقله وبذله وعطائه وتسامحه.. ذلك الإنسان المدرسة في حديثه وتعامله ونصحه وتوجيهه.

كانت لي معه لقاءات، وشاهدت في أكثر من مناسبة إدارته لعمله وطريقة تعامله مع الآخرين، وحواراته مع مختلف الطبقات، لقد أسرَّ لي بشيء من مخزونه، وأسدى لي من نصحه وإرشاده.

ذات يوم أردت أن أشاركه همومه وآلامه مواسياً ومسلياً لعلي أخفف شيئاً من أحزانه.. فبعثت له رسالة وهو خارج الوطن مشيراً لما يواجهه ممن ورث بلا عقل عداوته، مشيراً إلى ما بناه لنفسه ولقومه وللحاسدين المبغضين منهم من عز ومجد.

فجاء الجواب إليَّ راسماً على لوحة التاريخ أجزل معاني الرقي وشموخ القيم.. الرسالة الجوابية طويلة أجتزئ منها:

(أقول لك وبكل صدق.. إنني وربما غيري نمارس في حالتنا العامة وتعاملنا مع هذه الحياة.. ألبسة كثيرة ووجوهاً كُثرا..) مشيراً إلى أن له تجربة كبيرة مع نفسه ونزعات هذه النفس وميولها أرادت أن تأخذه إلى متاهات لا رجعة منها.. إلا أن رحمة الله نبهته إلى الخطر فتراجع بعد أن تبين خطورة الطريق.

وأردف قائلاً (ما أكثر ملامتنا وجدلنا مع عالم ذاتي أقسى على المرء من العالم الخارجي!! أراك في رسالتك أشرت إلى ما قابلني ويُقابلني في حياتي من نكران الآخرين، لا غرابة في ذلك يا عزيزي.. نحن نُعايش بشراً فلكل إنسان أُفقه الخاص وتربيته وعجزه عن أن

يستشرف الطريق إلى أُفقه ليصلح من نفسه، وإنسان كهذا ألا نعذره ونشفق عليه ونبره ما أمكننا ذلك ونسامحه.

ما أطول الطريق التي مشيت عليها، وما أكثر العثرات، وما أقسى العقبات التي وضعت لي عليها، وما أكثر الحفر!!

أوقفتني رسالتك على هذه الطريق الآن فتلفَّتُ إليها فإذا هي طريق أحمدها وأشكر الله عليها وعلى عنايته بي، ولكي تراني أؤكد لك أني رجل أُقاتل عن نفسي كل نزعة ذاتية تغريني بالانتقام لنفسي، والحمد لله أني تغلبت على كل نزعة مؤذية مفسدة للخلق، وهأنذا اليوم أُسائل ذلك اليوم البعيد.. أعندك ذكرى لي عن طيش الشباب ونزقه آنذاك؟ وحتى الآن وأنا أسائله وأنتظر الجواب لأودعه أوراقي..) إلى أن قال:

(عزيزي: أردت أن أكرم رسالتك بما هو أكثر من ذلك ولكن للشيخوخة معياراً إذا هي تجاوزته فلربما تدخل في رسالتي هذه شيء من التخريف، وإني بشعور مخلص أحس أنك تريد لأهلك وبني وطنك كل خير، وهذا لا يساعدك عليه إلا أن تُعطي وتُعطي ولا تأخذ ولا تفكر أبداً بعطاء الآخرين، دعهم ومارس فضيلة التسامح).

قول حكيم ورأي سديد..

فهل عرفت أيها القارئ الشيخ الجليل الذي ردَّ على رسالتي، لقد كان حكيماً حصيفاً تمكّن بخلقه ودرايته أن ينتقل من القرية إلى المدينة ليصبح وجهاً من وجوه المجتمع ما لبث أن صار رجل دولة وأصبحت عالميته معروفة للقاصي والداني.. باختصار كان جامعة في إنسان.

ألم تر أن العقل زين لأهله ولكن تمام العقل طول التجارب

هذه الرسالة المميزة التي أخذت حيزاً كبيراً من نفسي.. أحس أنها أضافت لي شيئاً جديداً وترويضاً للذات.. حقاً إنها رسالة جامعية من إنسان عركته التجارب.. إنسان صاحب فكر نيّر وعقل راجح.. صقلته الأيام وأصبح ذا معين يروي، وبصيرة يُستضاء بها.. فله مني ومن محبيه ومعارفه العرفان والتقدير ومن الله الرحمة والغفران.

يقول الشاعر:

وما لامرئ طول خلود وإنما يُخلده طول الثناء فيخلد

ويقول آخر:

هو الموت، فاختر ما علا لك ذكره فلم يمت الإنسان ما حَيِيَ الذِكْرُ

فهل نستفيد من هذه الدروس وهذه التجارب، ونُنمّي في أنفسنا حب المكارم وفضيلة التسامح.

قال بعضهم في الشيوخ: أنهم أشجار الوقار، ومنابع الأخبار، ولا تطيش لهم سهام، ولا يسقط لهم وهم.. إن رأوك في قبيح صدوك، وإن أبصروك على جميل أمدوك. كان رحمه الله يخاف ربه وينهى النفس عن غيّها وهواها فله الجنة برحمة الله.

قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١)﴾ [٢٤].

١٤٢٨/٧/٤هـ

(٢٤) سورة النازعات الآية (٤١، ٤٠).

١٤٢٨/٧/٤هـ

(٣٨) فرحة يتيم

المرءُ بعدَ الموتِ أحدوثةٌ يفنى وتبقى منه آثاره
فأحسنُ الحالات حال امرئ تطيب بعدَ الموتِ أخباره

في العقد السابع من القرن الهجري الرابع عشر.. عاش يتيم الأب بعيداً عن أهله وعشيرته بهجرة نائية، وكانت الحالة العامة متواضعة جداً يسودها شح الموارد والبعد عن مظاهر الحضارة، وكان الناس يعانون خشونة العيش والتقشف في المأكل والملبس، ودع عنك الصحة والثقافة حيث لا وعي بهما ولا وجود.

تعرض صاحبنا لمواقف جمّة تثير الشجن وخاصة عندما صار يرى ما يرد إلى القرية من أشياء جديد مغرية يريد أن يستخلص لنفسه ما تشتهي لكن اليد قصيرة والعين بصيرة، وتمضي الأيام ويسمع أن عاصمة البلاد امتلأت بالبضائع المستوردة كالألبسة والأحذية الشبابية، فكان ما يرى وما يسمع يضاعف أشجانه.. لكنه في الوقت نفسه يُحَفِّز من تطلعاته ويزيد أمانيه حرارة ورغبة للحصول على شيء مما يرى أو يسمع.

ذات يوم عاد أحد أبناء الأخوال إلى القرية قادماً من العاصمة ومعه بضاعة ليُتاجر بها في دكانه بالقرية، وشاع بين الناس أن البضاعة تحوي قمصاناً داخلية (الفنيلة) ومثل هذا اللباس يعتبر شيئاً غريباً ومطلباً صعباً قد يتعذر تحقيقه للغالبية من السكان.

ذهب صاحبنا إلى والدته يستعطفها طالباً شراء فنيلة له، ولما كانت من الكماليات المرهقة مالياً والتي لا يستعملها معظم الناس.. أشارت عليه أن يطلبها من الخال ابن عم الوالدة.. الأمر الذي أحرجه وزاد من قلقه، وأخذ يلتقط أنفاسه ويستجمع قواه للقيام بهذه المهمة.

جاء ووقف على استحياء أمام دكان الخال[٢٥] الذي استغرب وقوف هذا الطفل اليتيم.. فعطف عليه وتكرم بسؤاله عن حاجته.. فرد بصوت خافت خجول: (أبي فنيلة) فنادى ابنه ليحضر له الفنيلة هدية مجانية.. الأمر الذي ملأ نفسه غبطة وسروراً، وأخذ يذرع الشارع مسرعاً إلى والدته ليزف إليها البشرى بهذا الصيد الثمين.. سُرَّت والدته بهذا الحدث مبتهلة بدعاء وثناء.

في ذلك الزمن.. كان من المعتاد ارتداء ثوب واحد تخيطه ربة البيت.. يلبسه المرء ويبقى يستعمل حتى يبلى وكان قماش الثياب من القطن الخشن الذي يستعمل حالياً لأكياس الطحين أو القمح.. أما في الأعياد فهناك نوع من الألبسة يُسمى مقزور خياط (الكرخانة) أي مكينة الخياطة التي يُسمع بها ولم تُر.. يستعمل ليومي العيد فقط ثم يطوى ويحفظ إلى عيد قادم قد يمتد إلى ثلاثة أعوام، وذات يوم عيد لم يتوافر له مثل هذا الثوب.. مما زاد من آلامه وسخطه، وتفوه بقول غير مألوف.. متسخطاً أمام والدته التي تضاعف ألمها وحزنها هي الأخرى.

تَذَكّرَ هذا الحادث عندما ذكر له أحد الإخوة أن امرأة كغيرها من النسوة اللواتي يرتدن باريس وغيرها من مدن أوروبا للسياحة والشراء، ممن لهن مقاسات لدى أمهر وأشهر مصممي الأزياء هناك.

---

(٢٥) عبدالله بن عبدالعزيز العبدالكريم رحمه الله.

وفي إحدى مناسبات الزواج اتّصَلَت تلك المرأة بمصمم الأزياء في باريس وطلبت منه أن يُفصِّل لها ثوباً حسب الموضة الفلانية، وهي المعروفة في قومها المشهورة بذوقها والمتعالية على قريناتها من النساء، وعلمت امرأة أخرى منافسة لها بهذا الطلب فأرادت أن تغيظها.. واتصلت بمصمم الأزياء المذكور وطلبت منه أن يُفَصِّل لها ثوباً بنفس الشكل والموضة رغبة منها في ارتدائه في حفل الزواج.. لتُبَيِّن لصاحبتها أنها هي الأخرى على مستوى المنافسة.

إلا أن الأولى علمت بهذه المكيدة قبل ساعة من بدء الحفل.. فامتعضت واغتاظت لسوء ما سمعت به والذي وقع عليها كالصاعقة ففكرت وقَدَّرت وانتهت إلى حل بعد طول تفكير.. إذ قررت أن تُلْبس فستانها الجديد لخادمتها التي سوف تصطحبها معها، وعندما رأت الثانية أن خادمة المرأة الأولى ترتدي مثل فستانها أُسقط في يدها وعلا وجهها الخجل وغادرت الحفل غير مأسوف عليها متجرعة غيظها وكيدها، ولعل عزيز مصر عناهما عندما خاطب امرأته: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾[٢٦].

إن هذه المباهاة والمفاخرة التي ما أنزل الله بها من سلطان ما هي إلا نكران وجحود للنعم وطغيان أعاذنا الله منه.. فهل لنا أن نقارن بين عصرين هما عمر ذلك الإنسان، وهذه المتغيرات المتسارعة التي فاقت التصور، والتي تستوجب الشكر والثناء لله تعالى، وترويض النفس والقيام بواجب التربية والتحذير من عواقب الأمور. اللهم الطف بنا وأدِم علينا نعمة الأمن والأمان.. إنك ولي ذلك والقادر عليه.

(٢٦) سورة يوسف آية (٢٨).

١٤٢٨/٨/٩هـ

(٣٩) بيروقراطية، ورموز ذات أبعاد

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق

تجاوز عقده السابع من عمره وأخذ يخطو بخطى تنوء بأحمالها، وقد أثقلت كاهله هُمُوم الزمن وأعراض المرض.. بعد أن تجاوز قرابة خمسين عاماً قضاها في الخدمة العامة.. مارس خلالها الكثير من أنواع التعاملات، وشاهد كثيراً من المواقف والسلوكيات والطباع المتناقضة، والتي تدعو للتساؤل.

تعهد يوماً بمتابعة معاملة لصديق في إحدى الوزارات بقيت تحت العرض لأكثر من شهرين.. لم يتحرك لها ساكن رغم المراجعات التلفونية والشخصية.

كانت له معرفة بالمسؤول الثاني بهرم الوزارة.. أراد أن يشد إليه الرحال لعله يتعاطف معه ليبعث هذه المعاملة من مرقدها.. فأخذ يُحضِّر لهذه الزيارة برسم خطة تشمل تحديد الزمان والمسار والتهيئة الشخصية من حيث الحلاقة وكي الملابس وتجهيز الحذاء والمسبحة والنظارة.

ذهب في الصباح الباكر لمكتبه الخاص لينطلق منه في الوقت المناسب إلى الوزارة.. وعندما أشارت الساعة للتاسعة صباحاً أخذ

استعداده ووقف أمام المرآة مرتدياً المشلح.. رأى نفسه بصورة بهية تدعو للدهشة شكلاً ومظهراً.. فأحس بالنشوة، ودَاخَلَهُ الغرور.

أنَّبه ضميره وناجى نفسه: كيف تعجبك صورتك وأنت تعاني من الشيخوخة وأثر المرض.. ينتابُك مثل هذا الإعجاب.. أنسيت واقع حالك؟ وما ينبغي أن تكون عليه من تواضع.. فلعله استيقظ ضميره وأراد أن يُعاقب نفسه بعقاب يروضها ويردها إلى رشدها.. الأمر الذي دفعه لترك سيارته الخاصة فركب سيارة الطلبات (وانيت داتسون) ثم ترجل منها أمام بوابة الوزارة الخارجية وسمح لقائدها بالذهاب.. ليعود بسيارة أجرة.

دخل بوابة الوزارة الداخلية فرأى بهواً واسعاً و(كاونتراً) جميلاً.. إلا أنه خَال من موظف الاستقبال.. أخذ يفتش على من يرشده إلى مكتب المسؤول، وبعد جهد أرشده مراجع بأنه في المبنى الثاني المجاور، وبدخوله إلى المبنى الثاني وجد نفس البهو و(الكاونتر).. لكن الذي بداخله ويحتل الكرسي عامل أجنبي يرتدي قميصاً وبنطالاً وقبعة، وبالاستفسار منه لم يجب إلا بإشارة لزميل له ثانٍ خارج الكاونتر الذي تكرم بإشارة إلى المصعد الخلفي.

امتطى المصعد للدور الثاني ليشاهد بوابة مدير المكتب مفتوحة على مصراعيها واستبشر خيراً.. إلا أن مظهره ووقار شيبه لم يشفع له بحسن الاستقبال، تردد في الجلوس منتظراً إشارة لذلك.. سأل مدير المكتب عن المسؤول وعن رغبته في مقابلته.. فكانت الإجابة بأنه في اجتماع خارج المكتب.. فَصَدقَّ لبراءته المعهودة.. ثم طلب من مدير المكتب ورقة ليكتب عليها لذلك المسؤول، وجاءت الورقة بعد تثاقل فدوّن صاحبنا أسباب

زيارته وشفعها بكرته الشخصي، ومرة أخرى طلب من مدير المكتب ظرفاً، والذي أجاب بعدم وجود طلبه، ويكرر الطلب قائلاً من ظروف الوزارة، وحصل على طلبه تاركاً المظروف مغلقاً، وخرج مودعاً.

وفي عودته دخل معه المصعد شاب أسمر ممتلئ الجسم، وسأله: تعمل هنا؟.. أجاب بنعم.. ودفعه الفضول إلى سؤال آخر: ما هي طبيعة عملك؟.. قال: (مراسل وقهوجي).. فكان رد صاحبنا: مراسل فهمنا.. أما قهوجي فلا أظن لأنني لم أر شيئاً من مظاهر الضيافة.. فبلغت شهامة هذا الشاب إلى أن أوقف المصعد ليعيده ليقوم بواجب الضيافة.. فشكره معتذراً.

ذهب إلى المبنى الأول لارتباطه بصداقة قديمة وحميمة بالرجل الثالث في الوزارة بقصد السلام، ولما لم يجد سكرتير المكتب ذهب إلى المكتب المجاور.. ووقف بقامته المديدة مغلقاً فتحة الباب بجسمه الممتلئ.. مبادراً بالسلام على اثنين من الموظفين أحدهما كان على الكرسي يتحدث بالهاتف والثاني كان واقفاً بجواره، ولم يَرُد أي منهما له التحية.. ظل واقفاً حتى فرغ الأول من المكالمة وأخذ يتحدث مع زميله دون أن يُعيراه أي اهتمام.. عاد لمكتب المسؤول الثالث بشحنة من التساؤلات التي كتمت أنفاسه.. ليجد السكرتير قد حضر ويُفيده بعدم حضور المسؤول هذا اليوم.. فدون له على ظهر كرته الشخصي جملة مذكراً بصداقة وتواصل، وضَمَّنها قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [٢٧].. لكن شيئاً من الإجابة لم يحدث ولو بعد حين!!

(٢٧) آل عمران آية (١٥٩).

خرج من الوزارة يجر أذيال الندم مردداً (ما حال هؤلاء القوم).. ثم عاد بعد عشرة أيام قاصداً المسؤول الثاني ووجد مدير المكتب أحسن استقبالاً، واستأذن له، وتمت المقابلة ببشاشة ولطف.. معتذراً عما جرى في الزيارة الأولى، وعمل على إجازة ما جاء بالعرض مشكوراً.

وبعد مضي بضعة أيام.. عاود الزيارة لصديقه الرجل الثالث بالوزارة من أجل تأدية واجب وتجديد التواصل ولم يجده.. فدون له الرسالة التالية:

(ألا ليت شعري، والزمان يجري، وما أسفي إلاّ على ما فات من عمري.. فهل إلى لقاء من سبيل؟

أبا فلان،

إذا جاء هذا الصد منك غَفَرتُه فأفعالك اللائي سررن ألوفُ

أقدر مشاغلكم وما أنتم فيه أعانكم الله.. غير أن الود الذي أُكنه في صدري وما لكم عليَّ من أيادٍ.. يدفعان للمساءلة عن هذا الانقطاع الذي دام لأكثر من ثلاثة أعوام.. فهل يشفع لي الاعتذار؟ ذلك الاعتذار الذي تبرره ظروف المرض.. أجاركم الله وعافاكم.. وما عتبي إذا كانت زياراتي التي تكررت بضع مرات.. إلا حظي العاثر).

وبعد فراغه من تدوين هذه الخاطرة.. فوجئ بحضور المسؤول.. فسُرَّ بهذه الطلعة مبتهجاً بهذا اللقاء، وبعد السلام عليه دخل مكتبه دون أن يعيره شيئاً من المجاملة.. وانتظر الجميع الإذن بالدخول، وكان ذلك على غير عادته معه.. فأخذ يتساءل: لعل من عذر وأنت تلوم.

جاء زميل عزيز على المسؤول.. فاستقبله السكرتير بحرارة وأخذ بيده مصاحباً له بالدخول، ليرحب به المسؤول وعند فراغهما من حديث الصباح أذن للجميع.

بعد الإذن بادره صاحبنا بتحية وأسمعه هذه الخاطرة التي دونها خلال هذه الزيارة والتي لم تحرك فيه ساكناً.. ثم خرج صاحبنا ليتابع موضوعه السابق في مبنى ثالث بعيد.. ليفاجأ بطلبات لم تخطر بباله، وأنه سيُكتب للمنطقة التي هي في مبنى رابع ناءٍ أيضاً، واستعد صاحبنا أن يُحضر طلباتهم مناولة.. ظناً منه أنه سيجد من يتجاوب معه، وصار يجول بأروقة ذلك المبنى الرابع، ويستأذن بالدخول على أحد رؤساء الأقسام ولم تتح له هذه الرغبة.. مما دفعه للذهاب إلى مدير المنطقة، وبعد تقديم اسمه لسكرتير المكتب ورغبته في مواجهة المدير العام.. لم يلق اهتماماً بل تغافل عنه.. وبعد طول انتظار أشار أحد الموظفين (تفضل بالدخول) ويفاجأ أن المدير العام كان محتفظاً بصورته أثناء اجتماع على مناسبة قبل أربع سنوات.. فأخذه بالأحضان وأضفى عليه من كرمه وحسن لقائه.. مما خفف عنه وزاد من امتنانه. زوده بورقة لمدير شؤون الموظفين، الذي أكمل بدوره المطلوب.

بعد إحضاره لهذه الطلبات أُبلغ بأن موضوعه سيكتب عليه لوزارة أخرى.. فأبدى استغرابه وأن هذا الأمر لا يستدعي كل ذلك.. رد عليه الموظف المعني بأنه لا بد لكل ولادة من أن تخرج من عنق زجاجة وإلاّ لزم لها عملية قيصرية.

ترى ما مصير هذا الجهد والوقت والعناء النفسي والمعنوي.. مع زحمة الطرق وقلة في المواقف، ونفاذ أربعة أشهر من الزمن مشحونة بالمراجعة والمتابعة، والشفاعة أحياناً.. تلك هي والله معاناة الكثيرين.

قصة صاحبنا مع هذه الرحلة طويلة وفيها من المشاهد ما يؤلم ويُعكر الصفو.. لكني اختصرها بما ذكرت، وأترك التساؤل وتفاصيل تعامل موظفي القطاع العام مع المراجع لتعليق أرباب الأقلام.. ممن لهم معرفة ودراية بما يدور في أروقة الوزارات والمصالح الحكومية من شريحة هي الأقل نسبةً من منسوبي القطاع العام، وهل من ضوابط عقابية لمعوّقي المعاملات، وهل لقليلي الخبرة من دورات تدريبية وإذا استمر الحال على هذا الشكل فما أحرى الكثيرين بأن يرددوا قول أبي العلاء المعري:

فيا موت زر أن الحياة ذميمةٌ ويا نفس جِدِّي إنَّ دَهْرَكِ هازِلُ

١٤٢٨/٨/٢٩هـ

(٤٠) رسالة إلى أولادي

إذا المرء أعطى نفسه كل ما اشتهت ولم ينهها تاقت إلى كل باطلِ
وساقت إليه الإثم والعار بالذي دعته إليه من حلاوة عاجلِ

تغدو بالمرء أحلام وأوهام وتطلعات.. يكتنفها خمول وغموض وغوص في أعماق بحار من التأملات، وتمر به في غدوه ورواحه حوادث وأحداث، وهواجس ومخاوف، وقرب وارتحال وقلق على أبناء، وألم على مآثر اندثرت وأجيال عن مسارها انحرفت.

تلك هي حاله منشغلاً في ليله ونهاره.. متسائلاً: ماذا عن سلوكيات الأبناء في خضم حياة ملؤها المتناقضات، وما هي تطلعاتهم ونظرتهم لمقوماتها من مكارم الأخلاق، وما تلك إلا شوارد أفكار بين صعود ونزول.. مصحوبة بآمال وخوف ووجلٍ، وهذه سيرة كل إنسان يختزن في مخيلته خطوطاً ورسوماً لمسارات يرجو تحقيقها من خلال التزام وسلوك يُجنبه مخاطر الزلل.

وقديماً قيل: (العافية عشرة أجزاء: تسعة منها في الصمت إلا ذكر الله، وواحدة في ترك مجالسه السفهاء، ومن كثر كلامه كثر خطؤه وقلَّ حياؤه).

بعد صلاة عشاء ذات يوم مليء بقراءات واستماع وأحاديث.. أخذ زاوية من المنزل محاولاً الشروع في إعداد رسالة ما.. يبث من خلالها أشجانه وشكواه.. لكنه لم يحدد أحداً يخاطبه.. مما جعله في حيرة من أمره، وصار يفتش في ذاكرته الملآى بشحن من رصيد إفرازات العصر وملابساته.. لعله يختار موضوعاً من خلاله يُقرر لمن يوجه رسالته هذه، ووجد أنه أمام واقع لا مفر منه.. ألا وهو موضوع الأبناء والأحفاد، وبحكم تجربته من عدم قبول أي إرشاد أو نصيحة لولي أمر بسهولة.. تردد في اختيار صيغة توجيهية قد يكون لها استحسان أو قبول لدى الأبناء.. فتذكر وصية أعرابي لابنه حيث قال:

(أي بني: ابذل المودة الصادقة تستفد إخواناً وتتخذ أعواناً.. فإن العداوة موجودة عتيدة، والصداقة متعذرة بعيدة، ولا تكن عثرة في طريق سُعاة النجاح).. إن الغيرة المنغلقة تُحَوّل صاحبها عدواً لأي نجاح ويصبح منشغلاً في البحث عما يعتقده من أخطاء الآخرين.. متناسياً نفسه وسوء سيرته التي جعلته في مؤخرة الركب، إنك لتعجب ممن يُحرق مدخراته بالنار، وممن يجر نفسه إلى التهلكة، وممن لا يسمع النصيحة التي هي أغلى ما يوهب ويباع، ولا يقبل النقد ولا يصغي له.

فاستعان بالله واستهل رسالته بقوله: أيها الأبناء الأعزاء.. يا من أنتم أكبادنا التي تمشي على الأرض حفظكم الله ورعاكم وحقق ما تصبون إليه من رفعة ورقي. وبعد: إنه من شغف محبة الآباء لأبنائهم وحرصهم على توجيههم.. وجدت نفسي مدفوعاً أن أشير إلى أن لي رحلة طويلة مع نفسي.. ونزعات هذه النفس وميولها صارت إلى

متاهات من الأفكار والرؤى.. محصلتها مسايرة أوضاع كانت سائدة.. وتجاوز عقبات تأتي على غرة، ولهذا فإن تجربة سبعين خريفاً ليست مميزة بمعرفة للأب، أو بوفرة معلومات لديه.. هي في متناول الأبناء في ظل عصر توافرت فيه وسائل الثقافة والمعرفة وأنماطها، وإنما هي حاجة في نفس والد أراد أن يطرحها للتذكير.. معتبراً بقول الله عزَّ شأنه ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٢٨].

ويقول الشاعر:

إذا ما كنت متخذاً خليلاً فلا تأمن خليلك أن يخونا
فإنك لم يخنك أخٌ أمينٌ ولكن قلّما تلقى الأمينا

ومنوهاً إلى أنّ النظرة الفردية أو الفئوية أو الشاملة لواقع المجتمع وضرورة التعايش معه لا تقتضي منا قاسماً مشتركاً أو معادلة عادلة يكون أي منكم أحد أطرافها.. إذ لا بد من الأخذ في الاعتبار معرفة عدد من خصائص البشر ونزعات أنفسهم وما تمليه عليهم رغباتهم وأهواؤهم وتباين أفكارهم، وأخذ الأسباب في العلاج المناسب لكل حالة، وهذا يضفي عبئاً كبيراً وحملاً ثقيلاً على من يرغب في اتخاذ طريق سليم خال من الأشواك ولدغات العقارب.

أبنائي: ما أجمل أن نعتبر بقول حكيم: (ابذل لذوي الفاقة رفدك، وللعامة بِشْرك، ولعدوك عدلك، واستصلح نفسك بعقلك، واجعل نظرك وتفكيرك بمنزلة المرآة فتدرك بها ما التبس عليك).

(٢٨) سورة الذاريات آية (٥٥).

وما أجمل أن نستفيد من أقوال الحكماء، وتجارب العظماء، ونصائح العلماء.

ثمة أمران مهمان ينبغي الحرص عليهما.. خلاصتهما جملة قصيرة وجامعة: (ذِكْرٌ يبقى، وعمل تَلْقَى).

نعم إن سلوك الإنسان وسيرته المحاطة بقيم ومآثر من: سمو الأخلاق والحلم والصبر والتحمل والتنازل والتسامح والبذل والعطاء.. كل هذه فضائل تعطي ثمراً وتترك أثراً محموداً وتاريخاً يروى، والعمل الصالح سلوك والتزام ومحافظة، والقيام بالشعائر الدينية خوفاً من الله ورجاءً لما عنده.. هي حصاد ثمار الدنيا ومدخرات الآخرة.. فهل لنا من إمعان النظر وترويض النفس واغتنام الفرصة بالعمل الجاد واستغلال الوقت واستثماره.

أيها الأبناء الأعزاء: كثيرة هي الأمور التي تشغل البال وتنذر بمخاطر، وما النظرة للأبناء من أب شغوف شفوق إلا من دوافع الخوف عليهم والسعي لسلامة توجيههم، وتحقيق طموحات يرجوها وأمنيات يتطلع إليها.. فهل من خط واضح مُطمئن، وإن كان مسلكه شائكاً ومتعرجاً؟ ثم ما هي النظرة السليمة فيما بينكم كإخوان كباراً وصغاراً، وكيفية المساهمة بتوجيه الأحفاد والسعي للحفاظ على العلاقة الأسرية بل تقويتها.

إن الحمل ثقيل والدرب طويل، وتباين الرؤى وردود الفعل مدعاة للانغلاق والنكران والجحود.. فهل من صمود وصبر ومواصلة للعمل ومواجهة التحديات بثبات ورباطة جأش؟! أرجو ذلك.

العمر زمنه قليل وقد ذهب منه الكثير.. فهل المتعة في أُنس وملذات لأيام محدودة.. أم أن الذكر للإنسان عمر ثان، وأن غِراس الحياة ذكر يبقى وعمل صالح تلقى؟

لقد منحني الله تبارك وتعالى عمراً مديداً.. فله الحمد والشكر والثناء، وقد حَصَلَت لديَّ القناعة والاستعداد للرحيل، وهذا أمر واقع لا مفر منه، وما يشغلني اليوم هو أنتم وأبناؤكم، وماذا ستكون عليه الحال من بعدي، وإني أوصيكم بالمحافظة على طاعة الله وجعلها هدفكم الأول، والسعي في هذه الحياة انضباطاً وسلوكاً والتزاماً، والعمل على صلة ذي القربى مدعومة بمحبة وألفة وتناصح فيما بين الجميع.

أعزائي: أسأل الله عز وجل لكم الصلاح والفلاح والنجاح في جميع أموركم.. محاطين بحفظه ورحمته ورعايته.. إنه سميع مجيب.

فرغ من هذه الرسالة ونفسه تواقة لإضافة المزيد من النصح والإرشاد، وما ذلك إلاّ من دوافع الشفقة، وهذا شأن يمر به الآباء وأُولو الأمر، وما أشد خوفنا ونحن في عصر امتزجت فيه الثقافات، واختلطت فيه المفاهيم والرؤى.. مفرزة الكثير من الانجرافات وشطط القول وسوء السلوك، ومنحدرات من الهبوط.

سأله أحد أبنائه: أراك يا والدي شديد الحرص على أبنائك وينتابك خوف ووجل.. إلى درجة الحذر من بواعث خلاف وشقاق.. فجاء الجواب: إن طَرْقِي لهذا الباب جاء من منطلق مسؤولية موجِّهٍ ومربٍّ له حقوق وعليه واجبات، ولم يأتِ عبر حديث مجالس، وإنما

دونته من واقع تجارب السنين لمن يرغب ويرى من الأبناء وغيرهم أن في ذلك استفادة.. ولعلي بذلك أكون قد أضأت شمعة أمامكم تنير وتبدد الظلمة فيستنير طريق التكاتف والتعاضد والبعد عن الشقاق والخلاف.

اللهم الطف يا الله يا عليم يا خبير.

١٤٢٩/١٢/١٢هـ

(٤١) هي الدنيا لا تستقر على حال

رغب ذات ليلة أن يبيت خارج المدينة على غير عادته في صحراء مربعة.. ليستيقظ من نومه على يوم جميل وسماء ملبدة بالغيوم وصباح مشوق.. يستنشق نسمات منسابة تُحَرِّك أغصان الأشجار بهدوء، وتنعش النفس باستنشاق هواء نديّ مشبع بأكسجين تتعطش له الروح ليزيد من طاقة الجسم نشاطاً حركياً، وصفاء ذهنياً يجعلان الإنسان يسبح بخيال مجنّح يستشعر روعة الروض الأخضر وألوانه الزاهية وأزهاره الشذية، وتغريد أطياره، وتلك حال عشاق عذوبة الأصوات بموسيقاها الشعرية وترنيماتها الأخَّاذة بلحن شجي.. يستحضر ذكريات زمن الطفولة والصبا وريعان الشباب بلهوه ومرحه وسعادته.

بقي صاحبنا كذلك ساعياً ومستقبلاً ضيوفاً ومودعاً أصدقاء ومحبين.. فطاب له المقام واستقرت به الحال.. ممتِّعاً بأنس وسعادة.

وتمضي أيام وشهور على هذا المنوال وهو مستمتع بأيام الربيع ولياليه.. ثم يتحول الوضع وتنقضي تلك الفترة، وتجيء أيام الصيف حاملة قيظاً.. امتزجت فيه حرارة الشمس وسخونة الأرض بلفح الرياح الساخنة التي لا يطيقها.. فيعود إلى المدينة بما فيها من إفرازات عناء النفس وشقاء الروح، ومعايشة واقع مرير من مختلف المفاهيم وشطحات من الرؤى، وحال من الألم والنفور في عالم يموج كتموج البحار، وواجبات أثقلت الكواهل مُخَلِّفةً تراكمات من جراحات القوم وصراعات الذات.

وبعد طول عناء تراءى له أن يعيش حياة البادية رغم معارضة شقيقه الأصغر.. فطاب له شراء عدد من الإبل، وقطيع من الغنم، وعاش في بيت من الشَعْر.. ثم تزوج بفتاة من البادية، وأخذ يتنقل من سهل إلى روض، ومن وادٍ إلى جبل.. مستمتعاً باقتناص شيء من الصيد وقرض بعض الشِعْر.. متابعاً رعاية مواشيه وتنميتها.. مستعذباً متاعب الرعي ومصاعب الموارد ومشقة الترحال من مكان إلى آخر.. وعاش هذه الحياة التي امتدت سنوات لم تخلُ من التفكير في الأبناء والبنات، وفي التربية وضرورة التعليم.. فحار بين خيارين: إما الصبر على حياة البادية وما يعتريها من قلة في الثقافة والوعي الصحي للأبناء، وبُعدٍ عن مسايرة الركب الحضاري، وإما الاستمتاع بمعطيات المدينة ومرافقها والأخذ بشيء من أسباب التعليم والمعرفة والاستفادة من مظاهر الحياة ومنافعها الحضارية.

أثارت هذه المقارنة تفكيره وجعلته ينظر في واقعه وحال مستقبل أبنائه، وما يواجهه من رغبة عارمة لديهم للالتحاق بالمدارس والاستمتاع بمظاهر الحضارة، آخذاً في اعتباره ما يعانيه من تقدُم في السن وشيء من العوارض الصحية.. الأمر الذي دفعه إلى بيع مواشيه والنزول في المدينة والاستقرار بها، وتَحَقَّقَ لأبنائه مرادهم بالالتحاق بالمدارس والوظائف، والاستمتاع برفاهية المدينة.. وسانده شقيقه الذي ساهم في تذليل الكثير من الصعوبات، وتوجيه الأبناء والعناية بهم.. سعياً لإلحاق الكبار بالوظائف والمدارس الليلية، وانتظام الصغار بالمدارس الرسمية.

كانت ظروفه المادية متدنية.. أما شقيقه فكان في حال من اليسر وممارسة التجارة إذ كان وكيلاً لشركات صناعية.. لم يبخل هذا الأخ الكريم النبيل بل قام بتسجيل اسم شقيقه لدى الجهات الرسمية شريكاً له في تجارته وجميع ممتلكاته.

وتمضي سنوات من التحصيل والحصاد.. تزوجن خلالها البنات وحصلن على نصيب وافر من التعليم، وشجع الأبناء في أعمال القطاع الخاص (مصانع وتجارة عامة) تحت إدارة عمهم وتوجيهات والدهم.

هذه الحالة الجميلة النبيلة ذكرتني بحالة مماثلة وهي عندما كُنت في رحلة إلى الكويت في شهر أبريل عام ٢٠٠٨م.. وأثناء مناسبة شاهدت لوحة على مدخل ديوانية الداعي ذلك الرجل ذو الشهرة والتجارة الواسعة.. الذي تجاوزت تجارته الوطن العربي.. هذه اللوحة تحمل اسماً مغايراً لاسم صاحب الديوان، وبالسؤال تبين أن صاحب الاسم رجل متوفى وأنه شقيق لذلك الرجل الذي ما كان منه إلا احتضان شقيقه وقام بتسجيل اسمه شريكاً له في شركاته وممتلكاته من أمواله المنقولة والثابتة وأصبح الأبناء مكان أبيهم عاملين وإداريين ناجحين مع عمهم وأبنائه.. عمل كان عنواناً للوفاء والبذل والعطاء والمحبة والإيثار.

وكان العجب والدَّهشة بما سمعت ورأيت من هذا الرجل العصامي الذي بدأ حياته بداية تجارية بسيطة.. ثم تطورت بتدرج فاق التصور مصحوبة بدراسة ومتابعة وتنقلات مكوكية واتصالات مع شركات كبرى، وتعاملات دولية، ومكانة اجتماعية مرموقة.

لم ينس صلة الرحم والتواصل مع ذوي القربى والمعارف والأصدقاء، وأعمال الخير والبر والبذل والعطاء.. إلى جانب ما يتصف به من حلم وتواضع وطيب معشر.

تذكرت هاتين القصتين المملوءتين نبلاً ووفاءً.. وساورت ذهني حكايات وروايات أدخلتني متاهات من الرؤى المتناقضة إيجاباً وسلباً، وعن قصص تروى وأحداث يندى لها الجبين من شحناء وفرقة وتباعد وقطيعة، وعن حالات يُعايشها الإنسان في حياته، وتذكرت إخوة أشقاء أصبحوا بعد وفاة والدهم متباعدين ومتباغضين، وروّاداً للمحاكم ومكتب الحاكم الإداري.. تجارتهم كسدت، وسمعتهم تَدنَّت، وحالهم آلت إلى فرقة وشتات، وصاروا حديث المجالس للشامتين والحساد، وحسرة بل حسرات للمحبين وذوي القربى والود، ولك أخي القارئ أن تتصور واقع هؤلاء ومآلهم.. فهل من معتبر ومتعظ؟ وهل من آخذٍ بأسباب الفلاح والنجاح والابتعاد عن سَقْط التحاسد والتباغض وما تأمر به النفس الامارة بالسوء؟ ألا ما أجمل التواد وما أحسن التراحم والتواصل والوفاء بل ما أجمل العقل الذي يأمر بذلك.. وما أقبح التفرق والتباغض والتحاسد والتنافر.

١٤٣٠/٢/١هـ

(٤٢) رسالة مشبعة بالدموع إلى والدي

الأبوة شأن عظيم، ورابط وجداني متين، إنها مزيج من الروح والجسد، وظاهرة معنوية، وتطلع لتحقيق أمنيات وأهداف، هي مظلة حنان يتفيّؤها الطفل منذ نعومة أظفاره وفي صباه وحتى في شبابه، وقد شاءت إرادة الله سبحانه أن يختار أبي إلى جواره، فعانيت الفراق والانتقال إلى بلدة الأخوال، وأنا لم أزل في المهد صبياً.. لم أملأ عينيَّ منه.. ولم أنهل من حنانه وعطفه.. ولم أتحاور معه لأستزيد من نصحه وتوجيهه واستفيد من خلاصة تجاربه في الحياة.. فقررت الآن أن أجري معه حواراً.. ولكنه حوار من طرف واحد.. كَمَن يقفز إلى الوراء بقدم واحدة ليقطع مسافة مطوية عبر سبعة عقود مضت من الزمن.

فإليك يا أبي أقول: كيف أُسميه فراقاً ولم تكتحل عينيَّ برؤيتك، ولم أشعر بدفء حنانك وعطفك ولم أفرح بهديتك، ولم أستمتع بأبوتك، ولم أذق لذة مداعبتك وتربيتك.. لغيابك وأنا في السنة الثانية من عمري.. ما هذا، وما الذي سأقوله من بعد عتاباً لك يا والدي.. لأنه ليس بمقدورك ولا بمقدور غيرك أن يحول دون نفاذ مشيئة الله.

لقد تَجَرَّعَتْ والدتي آلام فراقك، وبحضنها ابنتك (منيرة) ذات الأربعين يوماً.. إلى جانب من فقدوك: ثلاثة من الإخوة، واثنتان من

الأخوات.. من أم سبقتك بالرحيل إلى رحمة الله.. أراك تركتهم في ظل متاهات وحال من التحول والإقلال.. كما تركت أمي تُقلب نظرها في السماء وبين يديها (ابن، وبنت) يتيمين لا يدركان ما حل بهما من كارثة.. ثم تذرف غزير الدمع وهي مشدوهة شاردة الذهن غير قادرة على النطق.. تتساءل:

ثلاثة أزواج تخطفهم يد المنون تباعاً ليتركوني أرملة، ويُخلِّفوا لي مزيداً من الأيتام، ثم ترفع يديها ضارعة إلى الله أن يكلأهم بعنايته.. فهل عَلِمْتَ عنّا يا أبتِ وعن بُعدنا ويتمنا وتربيتنا وعوارض مرضنا؟ وهل عَلِمْتَ عن إخوتي والمتاهات التي صارعوها، مع شظف المعيشة وشيء من عناء أجلاف القوم وعجرفة الألسن ونظرات الإقلال.. أين أنت، وهل تابعت رعايتنا وتغذيتنا؟ وهل عرفت عن دراستنا، وعن صحتنا وسقمنا، وعن مجريات الحياة وعوارضها وتقلبات الزمان، وما أفرزه البعد والحرمان؟

وهل سمعت ندائي وبكائي وعويلي، وشكواي التي ما انقطعت، ونداء شقيقتي (يا أُمَّاه، يا أُمَّاه.. أين أبي؟).. ابنة خالي لها أب، وبنت خالتي لها أب، وهما تسألاني أين أبوكِ؟.. ثم تبكي وتبكي.. ويزداد بكاؤها ويشتد حرّ زفيرها، وأزيز صدرها.. ليتك تدري يا أبي كم من المرات تجاذبنا الزفرات وتبادلنا العبرات، وانهمرت دموعنا غزيرة، ومرات أُخرى كنا نحبسها رغم الحرقة والمعاناة، وننادي: أين أنت يا أبي، ألا تسمع، ألا ترد؟.. أسئلة مبعثها الألم والحرقة.. لا العتب ولا التسخط.

لماذا أنا هائم وحدي لستُ مثل أقراني لا سَنَدٌ ولا مُسَانِد.. أُنادي ولا من يسمع.. يا إلهي لا أحد يجيب.. ألا تشفق علينا يا أبي.. أين حنوك وعطفك.. أين أبوتك؟

ألا ترى ثوبي الخلق الممزق.. ألا ترى قَدَمَيَّ الحافيتين.. ألا ترى حالي وبؤسي وغربتي عن أهلي وعوارض مرضي.. ألا ترى عراكي مع أقراني من الأطفال وأثر انهزامي.. ألا ترى ما أواجهه من جفاء وتهميش وانكسار معنوي؟.. ألم تعلم أن أمي تزوجت من بعدك. ألا ترى نظرات ترمقني بأعين كلها شرور ونفور.. ممن يتمتعون بحنان آبائهم وأمهاتهم، ألا ترى إخوة لي منك ليسوا بأفضل حال مني؟ لا شك أن السبب في عدم إجابتك هو غيابك الأبدي إثر مرض عزّ علاجه في وطنك (لزمن غابر) لتبحث عنه في بلد ناءٍ عن الأهل والولد (عليك من الله سبحانه أعظم الرحمات).

وتجري الأيام بشظفها، وتتحول أمور، وتنقضي مراحل من الشقاء، ومن معاناة بناء الذات، ومن صراع ومقارعة خصوم، وعوارض وأعراض لي ولإخوتي، ومفاجآت من الحوادث (وفيات وإعاقة) ومتابعة علاج، وقلق وهموم.. ثم تتجدد ذكرى أحلامي بك، في كل وقت وحتى بعدما تجاوزت السبعين ربيعاً! وها أنا اليوم متعطشٌ لرؤياك ولو كُنتَ تحت الثرى.

حينما كُنتُ في رحلة إلى الكويت في شهر أبريل عام (٢٠٠٨م).. تراءى لي طيفك يا أبي بقوامك المتوسط، وجسمك الممشوق، ولحيتك التي خضبها الشيب، وعباءتك البنية الداكنة، وعصاك التي كنت

تتوكأ عليها وتهش بها.. ترمقني بنظراتك وتتفحصني من قمة رأسي إلى أخمص قدمي، وأنا أبادلك النظرات والعبرات ويخيم علينا صمت رهيب، وأنا بين مصدق ومُكَذِّب، وكلانا يخالطه وجل من صاحبه، فأفيق ويختفي الحلم وتجيء اليقظة، وأجدني وحدي مذهولاً، ويزداد حبي وشوقي وولعي لرؤيتك وسماع صوتك.

وتغدو بي أحلامي وأفكاري إلى عقود من الزمن وما ينم إلى الفقر والاحتقار وشيء من الاعتساف، وتلك السنين العجاف التي احتفرت أخاديد من الذكريات المرعبة، وأُردد قول الشاعر:

ورُبَّ بعيد عنك أحلى من المنى وُربَّ قريب الدار غير قريب

وصرت في الكويت أفتش وأواصل البحث عن مقبرة (المرقاب) التي يرقد جثمانك المرحوم بإذن الله فيها، فوجدت المقبرة قد أصبحت داخل المدينة.. وبعد ما عثرت عليها بعد جهد جهيد.. انتابتني تيارات جارفة من المشاعر والأحاسيس المتباينة المختلطة.. حتى وصلت إلى قربك داخل المقبرة، وكان موقفاً رهيباً وحالة من الذهول مدهشة.. رغم أنني لم أُعاين موقع الجثمان، ولم أحدد مكانه، ولعلك شاهدتني وأنا أجول بنظري موجع القلب شارد الذهن حول مقابر متناثرة هنا وهناك وعيناي مغرورقتان بالدموع.. ثم أجهش بالبكاء وأنا قريب من رفاتك، مع أني لم أقف على مرقدك بين عدد من المقابر.

كنت أرهف سمعي وأحاول أن أخفف من نحيبي لعلك ترأف بحالي واسمع صوتك تناديني.. لأبثُّك أشجاني، وأقصُّ عليك رحلة عمر مليئة بالمتناقضات والتجني، وتقلبات الأحوال، ولعلي أظفر منك بتوجيه أو

نصيحة أو نظرة حنان.. لكن شيئاً من ذلك لم يكن.. ليمضي المحروم في تساؤلاته، وهل يتاح للأحياء أن يسمعوا أصوات موتاهم، وأقول شعراً:

هذا الثرى بيني وبينك مانعاً أبتي.. وهل للموتى أن يتكلموا
يبكيني من نظرَ الوقوف بقبركم يترحمون الله، وهو الأرحمُ

وقوف صامت مخيف وحال من الشرود الذهني، وخواطر وذكريات سنوات خلت.. لازمتني مرارتها.. مخلفة من الأوجاع التي استنهضها وأثارها هذا الموقف المهيب.

رحمك الله يا أبي رحمة واسعة وأسكنك فسيح جناته.. إنني حائر أُصارع بجهد المقل تيارات من عناء النفس وشجنها.. إنها خواطر مفعمة بحوادث وأحداث، وآمال وآلام، وأفراح وأتراح، وحل وارتحال، وتراكمات من الذكريات، وإفرازات الزمن ولوك اللسان ودفع الحسام، وتطلعات أحملها بين جنبيَّ تتقاذفها أمواج أكاد أخفي شطآنها، وحسبي الله.. هو نعم المولى ونعم الوكيل.

قلت يا والدي ما قلت وأنا على يقين من أنه لو أبقاك الله حياً لما بخلت علينا بشيء، ولبذلت في سبيلنا كل التضحيات، ولجدت علينا حتى بالذات، ولَكُنتَ قدمت لنا كل عافية وكل جهد وكل اهتمام.. هي استجاشة وجدان ابن عَجَزَ عن بِرَّ أبيه لأمر شاءه الله.. فإلى أن نلتقي في الدار الآخرة في ظل مغفرة الباري وفي ظل عفوه الكريم.. أكرر الدعاء إلى الله العلي القدير أن يتغمدك بواسع الرحمة والغفران وأن يُحسن الخاتمة إنه جواد كريم وهو على كل شيء قدير.

٤/٢/١٤٣٠هـ

(٤٣) مواقف وعِبر لرجال من النوادر

الحديث عن المروءات والقيم والمواقف، وعن الندرة من الرجال.. شيق وذو شجون، يشد السامع وينمي روح التفاعل مع سبل الخير ورواده.

ذات يوم كنت في مجلس الخال عبدالكريم بن عبدالمحسن بن عبدالله بن عبدالكريم عميد أسرة آل عبدالكريم، وراق لي أن أشيد بشخص معروف وأكثرت من الثناء عليه.. فرد عليّ (رحمه الله) مستكثراً كلامي بقوله: الرجال الطيبون كُثر.. أما النوادر فقلة قليلة.. فسألته أن يذكر لي أحداً من هؤلاء النوادر فقال قول مليئاً بالتحفظ: (على حد معرفتي بحاضرة نجد يوجد ثلاثة هم: فهد العلي الرشودي في بريدة، وعبدالله بن إبراهيم العسكر في المجمعة، ومحمد بن عبدالعزيز بن ماضي في روضة سدير).

شُدهتُ لهذا الجواب المقتضب والمليء بالتحفظ.. ثم بدأ الخال بإعطاء نبذة عن كل منهم:

١- الشيخ: فهد العلي الرشودي (رحمه الله): ذو شهرة واسعة ومكانة اجتماعية رائدة في منطقة القصيم.

لم يكن ذا إمارة ذات مسؤوليات تنفيذية، ولا قاضياً له سلطة تشريعية.. بقدر ما كان رجلاً في مقدمة أعيان منطقة القصيم.. معروفاً بسداد الرأي والحكمة وتحليل الأمور واستقراء الأحداث،

وتفادي الكثير من الإشكاليات.. في زمن مليء بالأحداث والحوادث، وقد أصبح مسموع الكلمة محمود الرأي، وله مواقف مشرفة مع جلالة الملك عبدالعزيز بصفته لسان حال أهالي منطقة القصيم في زمنه، ومحل وتقدير القيادة.

٢- الأمير: عبدالله بن إبراهيم العسكر أمير المجمعة (رحمه الله).

نشأ في خضم صراعات قبلية وأحداث محلية.. متزامناً مع انطلاقة جهاد الملك عبدالعزيز.. تولى الإمارة خلفاً لوالده (رحمهما الله) وكان خير خلف لخير سلف.. ساير هذه الأحداث وتعايش معها وتجاوزها بما عُرف عنه من حصافة وقدرة إدارية وحنكة سياسية وسداد رأي، وقام بمعالجة لكثير من القضايا بدراية ودهاء وعقلانية، وقد صار له دور بارز إبان توحيد المملكة، وكُلف بإمارة منطقة عسير وأفاد وأجاد، والحديث عن مواقف الأمير عبدالله العسكر وسجاياه ومآثره يحلو ويطول.

٣- الأمير: محمد بن عبدالعزيز بن ماضي (التميمي) أمير روضة سدير.. تولى الإمارة على صغر بعد وفاة والده (رحمهما الله).. عُرف بكرمه وحسن إدارته ومعالجته لكثير من القضايا وإصلاح ذات البين، وقد شغل عدة مناصب حكومية منها إمارات مناطق.

استحسن إيراد القصة التالية لموقف من المواقف التي تروى عنه، وهذه مع ابن عمه تركي بن محمد بن ماضي (رحمهما الله) حول خلاف دب بينهما على ملك (أرض)، وكلاهما متميز شهرةً ومكانةً، ومحل ثقة ولي الأمر.

شكل الملك عبدالعزيز (رحمه الله) هيئة برئاسة الشيخ: محمد بن بتال للنظر في دعواهما، وعند وصول أفراد الهيئة إلى الروضة نزلوا في ضيافة الأمير محمد، ولما حان موعد تناول الطعام لدى أمير الروضة محمد نادى على الضيوف وقال: (تفضلوا)، أمسك بيد تركي وقال: أنا وأخوي تركي سوف نكون مع (التالين).. يقصد الندوة الثانية للجلوس على المائدة، ولما خلا المكان.. قال محمد لتركي: أنا وأنت كثيراً ما نُصلح بين الناس ونعجز أن نُصلح ما بيننا.. رد تركي: هذا من شأنك.. فكان جواب محمد: الأرض التي أوجدت هذه المشكلة أنا متنازل عنها لك، وكان بجوار بيت محمد بيت لتركي سبق أن امتنع عن بيعه إلى محمد.. فقال له تركي: وهذا البيت أيضاً لك يا محمد.. وتصافحا متصالحين، وبعدما جلس الضيوف لتناول الشاي بدأ الشيخ محمد بن بتال بمقدمة حديث طيب ليدخل منه إلى لب موضوع الخلاف.. فقاطعه محمد: ماذا تقصد من هذه المقدمة؟.. قال: الخلاف الذي بينك وبين تركي، قال: تقصد أخوي تركي؟.. قال: نعم.. وهنا التفت محمد إلى تركي وسأله: هل بيني وبينك خلاف على شيء؟ فقال تركي: لا ليس بيننا إلا الود والمحبة والأخوة، فقال ابن بتال: جئنا هيئة مكلفة من الملك عبدالعزيز لننظر في قضيتكما.. فإذاً لا قضية ولا خلاف والحمد لله، وطالما أنكما تنفيان وجود أية مشكلة أقول: كفى الله المؤمنين القتال، وقفل راجعاً مع هيئته مثنياً عليهما ومشيداً بهما وبموقفهما النبيل.

بعد سماعي الحديث عن نوادر الرجال من الخال عبدالكريم.. أحببت أن أورد القصتين التاليتين:

أ- مروءة:

مع قسوة الحياة في نجد في العصور الغابرة.. كانت هناك العديد من المروءات والقيم والتضحيات.

في مطلع الستينيات من القرن الهجري الماضي بحفر الباطن.. جاء أحد أبناء عشيرة الكويكبي من قبيلة عنزة على راحلته متسوقاً، وابتاع من صاحب دكان مؤونة لأهله وأبنائه المتنقلين في الصحراء طلباً للكلأ والمرعى، ولم يكن مع المشتري نقوداً يدفعها لصاحب الدكان فطلب الإمهال، وقال إنه سيأتي بثمن الأغراض قريباً.. فرفض صاحب المحل قائلاً: الدفع الآن أو اترك البضاعة.. وكان هذا المشهد بحضور: محمد بن فيحان الحميداني الذي تَشَفَّع لدى البائع لإمهال المشتري.. لكن دون جدوى.. فما كان من الحميداني إلا أن دفع المبلغ وقدره (٦٣) ثلاثة وستون ريالاً.. وقال للكويكبي: خذ مشترياتك واذهب في أمان الله، وهنا أصرّ الكويكبي على معرفة الحميداني وأخذ اسمه كاملاً، وعند وصوله إلى أهله أشهد على شاة من الضأن بأنها ملك للحميداني، ثم مضت سنون على هذا الموقف، ساءت خلالها أحوال الحميداني وتدّنت إلى ضائقة كأداء.. كان الحميداني يسمع عن كرم الأمير محمد بن أحمد السديري أمير عرعر في السبعينات الهجرية واحتوائه لرؤوس القوم.. فما كان منه إلا الانتقال بأهله وبيته على ظهر لوري، وقام بنصب بيته على مقربة من قصر السديري.. وبعد الظهيرة حضر الأمير محمد السديري قادماً من مكتبه وتساءل: من صاحب بيت الشَعْر هذا، فأُخبر باسمه ودُعي للغداء، وفي اليوم الثاني كانت هناك مناسبة على شرف الأمير دُعي إليها الحميداني، وخلال اللقاء عرض

الحميداني على الأمير العشاء غداً في بيته هو، لكنه كان على يقين بأنه سوف يعتذر.. وللمفاجأة حدث أن أحد الحضور تدخل متشفعاً لدى الأمير طالباً تلبية دعوة الحميداني لأنه رجل معروف وشيخ عرب، فوافق الأمير.. فوقعت موافقة الأمير وقوع صاعقة قصمت ظهر الحميداني، وأخذت به همومه وأفكاره تصعد وتهبط، وزوجته تُهدئ من روعه، وفي الصباح الباكر أخذ يمشي على الموارد لشراء ثلاث نعاج بالآجل لذبحها لضيفه لكنه لم يجد من يلبي طلبه، وشاهد عن بعد صاحب غنم فذهب إليه يسأله ابتياع ثلاث شياه فأجابه بأنه لا يملكها ولا يعرف صاحبها.. فتعجب من قوله وأصَرَّ علىمعرفة صاحبها، وكانت الإجابة أن هذه غنم (محمد بن فيحان الحميداني) فبادره الحميداني بكلمة زجر: (يهيب) فجاء الرد بمثله.. فأخذ يستوضح الأمر فَتَبَّين له أن هذه (عدولة)[٢٩] لدى الكويكبي لمحمد الحميداني.. فقال له: أنا محمد الحميداني، وبعد تثبّته من شخصيته سلمها له، فأقام لضيوفه وليمة كبرى وأخذ من الكويكبي باقي القطيع فتحسنت أحواله نتيجة لمروءة فعلها ونسيها ولكن الله حفظها له وطرح البركة في فعلته النبيلة.

يقول الحطيئة:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

(وإذا علم الله بحال كفى وستر وأنعم وتفضل).

---

(٢٩) (العدولة) أن تودع شاة من الضأن لدى أحد أبناء البادية يرعاها ويستنتجها، وله منها اللبن والصوف.

ب- الأولاد إن كانوا عشرة يكفي منهم واحد:

بتاريخ ١٤٠١/٨/٢٥هـ توفي العم/ عبدالمحسن بن أحمد الماضي (رحمه الله).. وفي اليوم التالي حضر الشيخ: إبراهيم بن جبير معزّياً وكانت لي معه علاقة تواصل، وعند خروجه سبقته إلى سيارته لأفتح له الباب فأكبر هذا الموقف، وأخذ يسأل: كم الأولاد؟.. فقلت له كثر.. قال: الأولاد إن كانوا عشرة يكفي منهم واحد، وهَمَّ بركوب السيارة فاستوقفته ليخبرني عن قصده.. فكان الجواب قوله: إن دُعائي لواحد من أبنائي يُنسيني الآخرين.. قلت: كيف؟ قال: والله إن أحدهم لا يتصرف بخصوصياته إلا بمشورتي ما عدا عمله في الديوان[٣٠]، وأنه ما غادر البيت قط إلا ينتظرني لأخرج من غرفتي لكي يودعني، وأنني لم أهم بالخروج من مكان يجمعنا إلا يسبقني ليعدل نعلي، وأنه عند دخولي لدورة المياه بحضوره يقف والمنشفة على يده ينتظرني حتى أخرج.

ولك أخي القارئ أن تتصور هذه المواقف البسيطة وأثرها في نفوس الآباء ورضاهم ومقدار ما سيجنيه الأبناء من مكاسب دنيوية وأخروية.

الشيخ: إبراهيم بن جبير (رحمه الله) منفتح ومُتَحَضِّر وكثير الأسفار، ومحافظ على لياقته البدنية بمزاولة الرياضة والتمارين، ومن طرائفه:

يقال أنه ذات يوم كان ضيفاً على أحد الجماعة.. وفي الصباح جاء صاحب البيت للديوانية التي كان يبيت الشيخ فيها، وإذا به يراه وهو يزاول تمارينه الصباحية.. فرجع صاحب المنزل لأهله ليخبرهم أن ابن جبير (جُنّ) لأنه رآه يقفز إلى الأعلى يرفع قدماً وينزل أخرى.

(٣٠) يعني ولده الشيخ: محمد الذي كان رئيساً لديوان المظالم.

١٤٣٠/٣/١هـ

(٤٤) ضجيج من رغاء الإبل

كان قدَرَهُ أن ولد في البراري أمثال بني قومه وأبناء جلدته.. تلفح جسده الشمس والرياح الهوج صيفاً والباردة شتاءً.. حتى ترعرع وكبر وصار يُساهم برعي ماشية وورود مياه، وروحة وجيئة، ونزول وارتحال.

أخذته أيامه ولياليه في دوامة من العمل المضني.. شأنه في ذلك شأن أقرانه، وما تفرضه ظروف الحياة المعيشية آنذاك.. المعتمدة على الرعي والحرث والري، والحِرف اليدوية والمتابعة المتواصلة تحت وطأة رقابة شديدة وسلطة عنيفة، وهكذا كان ديدنه بين عشيرته وقومه.

وبعد يوم عمل مضنٍ حافل بتعب جسدي وعناء وقلق ذهني.. أَوى إلى فراشه ليلاً منهك القوى طلباً للراحة والاسترخاء، وسرعان ما أخذه النعاس وسرحت به أحلامه وأوهامه في متاهات ما بين غياب وحضور.. ليستيقظ من نومه على صوت مُنادٍ، وضجيج من رُغاء الإبل.. الساري في ظلام الليل، وما ذلك إلا طيف من خيال.. يُطلق صيحاتٍ هي نداء صاحب إبل.. يرتاد لها مصادر المياه في ظل معترك تَسَابق حشود من قطعان الإبل والرعاة.. شَاقَهُ صوت المنادي بألحانه الترنيمية.. فأخذ يُردد النداء بلحن شجي.. أعاد له ذكريات الموارد وتزاحم الإبل على المشارب، وتنافس الأقران.. الذي عادة ما يتولد عنه شجار وعراك، واستعراض لقوى، وتغنٍ بثأر موروث.

إنها خاطرة من جملة خواطر تتوارد في المخيلة.. من رؤى ورغبات وأمنيات، وتطلعات لمستقبل واعد وحياة أفضل.. كلها تتصارع مفرزة موجاتٍ من الأفكار ونسيجاً من تراكمات الأيام.. تدفع بالإنسان لتدوين مآثر ومرْوِيَّاتٍ وحِكَم ومشاهدات.. خصوصاً ممن يعشقون ترك أثر يروى للأبناء والأحفاد، ويُعطي صوراً وانطباعاتٍ لمن هم امتداده من أبناء وأحفاد.

وهذا ما صار لي في سلوك هذا الطريق المتباين في فصوله ومعانيه.. الذي اخترته والذي من خلاله أعرض بضاعة مزجاة قلَّ طلابها.. لعلها تجد قبولاً لنتاجٍ بَذَلت فيه ساعات وساعات، وما هذا إلا جهد المقل الساعي لإفراغ ما بجعبته من أزهار وأشواك، ولآلئ وأصداف إن وجدت.

بعد فراغي من إعداد جملة من هذه الخواطر وأحاديث للأبناء، والتي كانت بدايات إعدادها (دردشة مسافر).. راق لي نشرها مع إضافة نصائح للأبناء.. فما كان من رؤاي لكي اتخذ قراراً بذلك.. إلا انفرادي مختلياً لأضرب أخماساً بأسداس.. لعلي أستنهض قواي بإقرار طباعتها.. لأُدشّنها بإهداءات لأقارب ومحبين.. وتساءلت عن مدى قبولها ورُقيها إلى مستوى النشر، وما سوف تجره من نقد وتعليق.

ولعل طلائع النقد الموضوعي هو مصدر ترحيبي الذي سيبرز جوانب خفيت أو ملاحظات فات ذكرها.. لكي أُضيف لحصيلتي معلومات جديدة.. وما ذاك إلا دفع للمضي بأي محاولة مفيدة قد تخطر على بال. ملتمساً العذر من القارئ الكريم، وراجياً أن تروق لعدد من المحبين.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

١٤٣٠/٠٧/٠٢هـ

(٤٥) مشاهد مؤلمة

شهور ودهور، وأزمنة وعصور، وكثير من عجائب الأمور، ولكل حادثة مسلك وعبور.

تبرز في كثير من المجتمعات شطحات من الشوارد النافرة الشاذة التي لا يحكمها زمان، ولا يحدها مكان.. محدثة تساؤلاً واستغراباً، ولأن الأيام ليست تجري على حال.. فلا تنشغل بأمر غير ذي بال، وما أكثر إفرازات الأدران التي لا تُغير من مياه مجرى النهر.. فطب نفساً أيها الإنسان مُمَتِعاً سمعك وبصرك بجوانب من إضاءات الحياة وجمالها في ضوئها الساطع.. حاملاً متجملاً.. صابراً متحملاً لتلك الإفرازات من طيش السهام التي تأتي تباعاً.. لا لسبب إلا لأن باعث السهام وراشقها شقيق في النسب أو جار في البلد أو شريك في الصناعة.. يلومك لا لشيء إلا لحاجةً في نفسه -ولم تلمه- ويهاجمك بقبيح الشتم والقدح -ولم تُجبه، ويصبُّ جام غضبه عليك بِشِّدة وتعسِّف - وأنت تعطف عليه وترحمه، يعزف عن التواصل وينكر العطاء، ويتناسى حنوّك وحبك له وأنت تلتمس له العذر وتصفح وتسامح لكنه يتمادى ويتعالى فلا يسعك إلا أن تردد قول الشاعر:

إذا كان الطباع طباع سوء فلا أدب يُفيدُ ولا أديب

تكسرت مجاديفه وضاعَت حِيلُهُ، وصار يهذي ويخبط خبط عشواء سابحاً عكس التيار، وبات في عزلة يصارع نفسه بنفسه ويُتْبِعها هواها، وكثيراً ما يبدي التشكي رغم سعيه في التشفي.

يُلقي نقده على عواهنه.. لا يعي قولاً ولا يفهم معنى.. سارحاً في غوغائيته حتى فاته الركب.. غير آبه في اللحاق بالقافلة.. مُشغلاً نفسه في تتبع هفوات قومه ولُحَمَته.. مفتقداً لأدب الاختلاف، بعيداً عن لغة الحوار بالحسنى والجدال بالتي هي أحسن.. سالكاً نهجاً من أساليب الاستفزاز من قول: البهتان والافتراء، والسخط والجفاء.. تَغْلِب عليه الحِدَّة والإقصاء والاستصغار للمخالفين له.

ساء قومه انشغاله في النقد والتجريح، وسفاسف الأمور والقول القبيح.. لا يقبل مشورة، ولا تردعه نصيحة.. مدعياً كمال المعرفة، وسوء ظنه غالب على فكره ولذلك تجده يقابل الآخرين بسفاهة وحماقة.

أَشْفَقَ عليه صاحبه ورثى لحاله، وآلمه ما هو عليه من مسار، وما تلك إلا بثور تعتري الأجساد، وضمور فكر إنسان، وأمراض استعصى علاجها.. وقديماً قيل:

- إن سماع المنتقد المغرض وعدم الرد عليه والارتفاع فوق القبائح: نبل وسمو.
- وإن النقد غير الموضوعي والانسياق وراء سلبيات النفس من (غَيْرَةٍ وحسد): كل ذلك يقتل صاحبه ويجهز عليه.
- النقد البناء جميل ومقبول، لكن النقد الآثم الهدام دليل على سلامة المنقود وبراءته من البهتان والافتراء فما أجمل السمو بالدعاء لمثل هؤلاء الهامشيين بالهداية لعلهم يثوبون إلى رشد أو يرجعون إلى صواب.

والله المستعان على ما يصفون، وما للمبتلى إلا الصبر والاحتساب.

١٤٣١/١٠/١هـ

(٤٦) خاطرة ذات مشاعر

المناسبات الاجتماعية كثيرة ففي الأعياد وحفلات الزواج أفراح.. يقابلها مناسبات أتراح وتعازٍ وهذه وتلك ينشأ عنهما لقاءات، وتعارفات، وتجديد وتواصل يستمر حيناً وينقطع أحياناً وهذه هي الحياة.

عاد لمنزله يوم عيد مثقل ومتعب من كثرة الزيارات.. ينشد الراحة والاسترخاء.. تُناجيه زوجته بعد ما قطعا من العمر معاً عقوداً من الزمن.. تسأله عن مسار يوم عيده ولقاءاته، ويتشعب الحديث هنا وهناك، ويمتد لذكريات الصغر وريعان الشباب، وما آلت إليه حال الشيخوخة.. مثيرة ذكريات لازمته من سرور وثبور، وصعود وهبوط، وعقبات وكبوات ونجاحات وفرحات، ويستطرد النقاش إلى ذكر شخصيات وأُسر كان لها حضورها ومقامها ومكانتها الاجتماعية والتاريخية.. تبدل حالها من مكانة مرموقة إلى هبوط وغياب فأصبحت في عالم النسيان.. كان لها من الأهمية ما جعلها ذات شأن ومقام، وها هي اليوم نزلت من مهامها وتحولت أحوالها وانفض الناس عنها، وملأ الساحة غيرها فلا تسمع من أفرادها إلا الأسى والبكاء على من أخذوا المكان وارتفعوا بعد هبوط وهم يرددون قول الشاعر الشعبي:

يـوم دوركـم وحنـا صـابـرينـا وش مجزعك من دورنا يوم جانا

ويتجدد الحديث متشعباً سلباً وإيجاباً، وينتابه بواعث أشجان يُغالبها حيناً، وتغلبه أحياناً مثيرة له شيئاً من الشَّجَن والذكريات المشبعة بمواقف وإفرازات القوم، وشطحات الأقران، ومشاعر مستمع لا يُدرك أبعاد ما يدور في مخيلة صاحبه من أوجاع وآلام.

تلك هي حال رب الأبناء والأحفاد، ومن هو متطلع لشأن أسري ووضع اجتماعي.. تغدو به أحلامه وأمانيه محلّقة في الآفاق.. ثم تروح عوداً إلى قواعدها.. كمن يراوح في مكانه، ومن هنا تأتي إثارة لكوامن أوجاع وآلام.. ينعصر منها قلبه ويرتجف لها جسده، وتعتريه اغماءة يفيق بعدها مصاباً بدوار وأشجان تتصارع في ذهنه.

وما هذه.. إلا خاطرة جعلته يُعيد النظر في حساباته ومسار تعامله، ويُروِّض النفس كما هي عادته عند المصادمات ونشوء العوائق.. عسى أن يقود السفينة إلى مرساها وبَرِّ أمانها، ويتساءل: هل تحقق له مراده أمام ما يواجهه من إفرازات عصره، ومستجدات العولمة وثورة التقنية، ومتغيرات السلوك والتعاملات وعوائق التربية؟

هنا تتعثر الإجابة وتختلط المفاهيم وتنعدم الرؤية.. ليأتي دور الاستعانة بصاحبه وصديق عمره.. ليجده هو الآخر غارقاً في متاهات من تجاذبات وقته ومفاجآت يومه وغده.. ليصبح كل منهما يشكو دهره لصاحبه.

إن معايشة شيوخ هذا العصر، وما مر بهم من تبدلات وتناقضات، وذكريات لماضٍ مشبع بالمروءات والقيم، والسعي لحسن توجيه وتربية، ونهج كان قائماً، وإن اعترى ذلك الزمن شيء من الشح والإقلال

ونقص من المقومات الحديثة الثقافية والصحية والاقتصادية.. إلاَّ أنه كان حريٌّ بالطهارة والنقاء.. رغم ما اعتراه من مشاحنات وصراعات.

لا أحد يُنكر معطيات هذا الزمن وما أفاء الله به من نعم على مجتمعنا.. إلاَّ أن ضريبة هذه النعم موجعة ومقلقة لتأثيرها السلبي على الناشئة، والتي تُعزى أسبابها لقصور في وسائل التوجيه والتربية، وتراخي وانشغال أولياء الأمور، وعدم القدرة على مقاومة مغريات ومستجدات العصر، وقد يُلقي متسائل باللائمة على البيت والمدرسة والمؤسسات المعنية بالناشئة، ولا شك أن المسؤولية مشتركة.. لكن المسؤولية الأولى والمتابعة الثانية هما من واجب الوالدين.. فهل وعينا هذه المسؤولية.. وهل لدينا كأولياء أمور من المقومات الفكرية ووسائل التربية والاستطاعة ما يُمَكِّن من القيام بمثل هذا الواجب.. ليأتي دور وزارتي التربية والتعليم، والثقافة والإعلام، ودور الرئاسة العامة لرعاية الشباب.

إذا كانت الدولة قد أوجدت هذه المؤسسات وأنفقت عليها الأموال الطائلة.. فقد بقي تفعيل الواجب والمتابعة والمحاسبة من كل الأطراف، وإن كنا ولله الحمد نعيش حياة البحبوحة والسعة فإن منَّا أناس مقلّون لكنهم ماضون في التحصيل العلمي ومساهمون في بناء الوطن عبر الوسائل المختلفة كل بقدر طاقته وحجمه.

ولعل من الجائز في هذا المقام الاستشهاد بموقف ابن طموح مع والد شغوف.. الملازم: تركي رسلان يناجي والده بأبيات من الشعر الشعبي.. منها بيت جميل ومؤثر:

تَبْكِي غرام الحب ناس مهابيل وأبكي طريق المجد حتى ولو طال

ويُعارضه الشاعر: سالم بن جهبل بأبيات واسطة عِقدها:

خطو الولد يصبر على كل شِدَّة وخطو الولد يحب كبر الوسادة

ويقول الحكيم:

غفلنا فلم يغفل الدهر عنا، ولم نتعظ بغيرنا حتى اتعظ غيرنا بنا.. فقد أدركت السعادة من تنبه، وأدركت الشقاوة من غفل، وكفى بالتجربة واعظاً.

ومن هنا نقول للشباب إن الزمن يجري والوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك، وأنَّ علينا جميعاً آباء وأبناء وأسر وجماعات اغتنام الفرص وعدم ضياع الوقت.. وبذل الغالي والنفيس في التحصيل العلمي والسعي إلى محاسن الأمور وأشرافها والبعد عن سفسافها.

والله ولي التوفيق.

١٤٣١/١١/٢٢هـ

(٤٧) التقاعد واستثماره، والمرض وقبوله

إثر صدور كتاب «خواطر وأحاديث للأبناء» اتصل بي الخال المهندس: أحمد بن محمد العبدالكريم.. مهنئاً ومباركاً ومقترحاً إضافة مقالين لهذا الكتاب أحدهما عن تجربة التقاعد، والآخر عن عوارض المرض وهما أمران عشتهما برحابة صدر ولله الحمد.

أنها فكرة نيِّرة لم تخطر ببالي، وقد أصاب سعادته بتذكيري بهما وفقه الله، وسأورد فيما يلي بعض وصف وبعض رؤى أملاً في فائدة تجنى.

أ-التقاعد:

التقاعد وما أدراك ما التقاعد.. ذلك المنعرج الحادّ في حياة الموظف، أنه شبح مخيف يهدد الشريحة العظمى من الموظفين (المدنيين والعسكريين)، وإذا وجد من يُبادر بطلب الإحالة على التقاعد المبكر فتلك فئة قليلة هدفها في الغالب أن تحقق كسباً معنوياً أو مردوداً مادياً أفضل، ولئن تباينت الآراء حول هذه المرحلة.. فهي واقع حتمي لا جدال فيه.. يستلزم الاستعداد النفسي والتهيؤ المالي للتعايش مع هذا الواقع الجديد، ومن أجل هذا وضع المفكرون في الشرق والغرب برامج لحياة الموظف وركزوا على مرحلة التقاعد واقترحوا المقترحات العملية لهذه المرحلة حفزاً وتشجيعاً للموظف ليتبنى خطة ما.. تعينه بعد التقاعد.

لهذا أقول إن مرحلة التقاعد منعطف حاد في حياة الموظف، وإذا ما نظرنا إلى أن الموظف قد مرَّ في حياته بفترات من الطفولة والصبا والشباب.. تحت رعاية وتربية والديه، ثمّ سعي في التحصيل العلمي والمعرفي.. استعداداً لتحمل مسؤولية العمل وكسب الرزق، وتبعات الزواج والإنجاب والرعاية والتربية، وما يواجهه من صراعات وكفاح لعقود من الزمن حافلة بعوارض الحياة وتقلباتها.. فإن مرحلة التقاعد هي الشيخوخة وفترة الاسترخاء والتأمل والعبادة، والنشاط الروحي.. باعتبارها المحطة المستجدة في حياته.. علماً أنها «سلاح ذو حدين».. فإذا ما أسيئ استثمارها بتقوقع المتقاعد في منزله، وانعزاله عن المجتمع، أو اتخاذه مسلك إضاعة الوقت مع الشِّلَلْ.. فإن ذلك مدعاة لتهميشه ونسيانه، وتعرضه لنوازع من الفشل والإحباط، وتلك خسارة شاملة لفترة مهمة من حياته، وهذا هو الجانب السلبي والضار في التقاعد.

لكن إذا أحسن المتقاعد استثماره لهذه المرحلة بإشغاله الفراغ بعمل مُدِرّ مُساند لراتبه التقاعدي، أو بسلوك متميز وحضور اجتماعي، واستحضار للذاكرة ومخزونها، وسعي للتدوين والتسجيل لشيء من التجارب والمواقف والشواهد والعبر التي تُنير الطريق وتُغذي الفكر، أو المشاركة في المسؤولية المجتمعية.. تربوية أو صحية أو اجتماعية.. لخدمة المجتمع القائم، والأجيال القادمة المتعطشة لمستقبل زاهر واعد.. فإن ذلك مدعاة للشكر والتقدير والعرفان بالجميل والدعاء له بالأجر والمثوبة التي لا تضيع عند الله، وبذلك يكون قد حقق (ذكراً يبقى وعملاً يلقى).

وما من شك أن هناك تغييراً في مسار حياة المتقاعد.. لكنه تغيير مختلف.. فأما انتكاسة على عقب، ونكوص إلى الوراء والعياذ بالله، وأما نهوض وتقدم نحو الأفضل، والثاني لا يكون إلا بحسن التخطيط، والمرء حيث يضع نفسه موظفاً عاملاً كان أو متقاعداً.. فالتخطيط أولاً.

ب-عارض المرض:

المرض عارض كوني يصيب الكبار والصغار والنساء والشيوخ والأطفال.. يكاد لا ينجو منه حي من بني آدم، وهو عامل من عوامل الفناء التي وضعها الخالق سبحانه في هذا الإنسان عندما كتب عليه الموت للانتقال من الدنيا الفانية إلى الآخرة الباقية.

وقديماً قال شاعر:

من لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد

وأنواع المرض منها الخفيف ومنها الخطير وبينهما عوارض أخرى، وقد تعرضت كغيري لكثير منها أثناء الطفولة والصبا والكهولة والشيخوخة، وكان أخطرها مرض اللمفومة الذي أُصبت به مؤخراً.. حيث لازمني أربعة أعوام، قاسيت فيها أشد المعاناة من آثار العلاج وقد أعانني الله على تحمُّله ومعايشته.

وبالرغم من نذر الخطورة.. إلا أنه ولله الحمد والمنَّة لم ينتابني قلق ولا خوف من المرض، ولم أتوقف عن مزاولة نشاطي اليومي وحضوري الاجتماعي.. بل كنت راضياً متفائلاً ومؤمناً بقضاء الله، وقد مَنَّ الله عليَّ بالشفاء ولله الحمد.

ولقد عشت عقوداً من الزمن صار لي فيها شيء من التجارب وفقدان إخوة وخلان وصحب وزملاء.. وقد أعطتني هذه التجارب شيئاً من القبول والرضى بالواقع، وما هي إلا طمأنينة ورحمة من الباري عزَّ وجل، ولعل من أسباب تفاعل العلاج وثمرة نجاحه ما قد قيل طبياً من أن ارتفاع الحالة المعنوية للمريض تُسهم بنسبة (٥٠٪) في الشفاء بإذن الله، وهذا ما لمسته وأحمد الله عليه.. إن المعنويات العالية للمريض تبعد عنه الفزع وتنفى عنه الخوف من المرض وعقابيله.. ذلك لأن المريض فوّض أمره لبارئه وتوكل عليه واستسلم لقضائه وقدره فنزلت عليه السكينة وأطمأنَّ لمآله.

جـ-العلاج:

يقول المثل العامي (احزم يدك واعرضها على الأطباء).. يحدد العامة لهذا المثل أنوعاً من الوصفات الشعبية والتجارب والاستشهاد بمختلف الحالات.. والاستئناس برأي زيد أو عمرو، وهذا قد يؤثر سلباً على المريض نفسياً وصحياً فيتضاعف مرضه.

وفي ظل هذا الزخم من التطور الحضاري والتقدم العلمي والتقني.. لم يعد هناك مبرر للأخذ بآراء الآخرين من غير الأطباء وذوي الاختصاص، ولم يعد للمشعوذين والدجالين مجال، ولم تعد ثمة حاجة للخلط بين وصفات طبية ومستحضرات شعبية.. تضاعف المرض أو تضيف للمريض معاناة ومقاساة.

وبالنسبة للرقية بالقرآن الكريم وبصحيح الأحاديث للاستشفاء.. فُيستحسن أن تتم بواسطة المريض نفسه أو بواسطة أقرب الناس

إليه.. (كالوالد والوالدة والأخ والابن والزوجة أو بمن يثق ثقة كاملة بإيمانه من الصالحين).. أما ما عداهم فيُخْشَى أن يكون الأمر مدعاة للاستغلال وإن قيل أن الراقي لا يطلب شيئاً.. فربما ينتظر ذلك الشيء، وهذه نصيحة أسديها للقارئ العزيز.

أمَّا ظاهرة العلاج خارج الوطن فقد أصبحت عادة متبعة عند كثيرين رغم التطور الطبي والعلاجي الشامل في مملكتنا الغالية حيث المهارات الطبية والأجهزة الحديثة والمعدات المتطورة، والتواصل مع العالم الخارجي في تبادل الاستشارات والمعلومات ومستجداتها.

والبعد كل البعد عن الدجالين والمشعوذين والله الهادي إلى سواء السبيل.

١٤٣١/١٢/٠٢هـ

(٤٨) رسالة جوابية إلى أخ عزيز

وأحسن الحالات حال امرئ تطيب بعد الموت أخباره
يفنى ويبقى ذكره بعده إذا خلت من شخصه داره

عزيزي: تلقيت خطابك المميز في أسلوبه وطرحه، وقد شدني ما أنت فيه من علو الهمة وصفاء السريرة، وبِتّ أغبطك على هذه السمات.. زادك الله من فضله، وأنني إذ أواسيك على ما أنت فيه من ضيق وأذى ومعاناة، وقد استشعرت ما ابتُليتَ به، وأقول لك ما هذا إلا محنة من رب العباد، وامتحان لمسار اتخذته نهجاً وسلوكاً، وما ذلك أيضاً إلا ضريبة تؤديها لقاء ما وهبك الله من جزيل النعم.

أخي الكريم: إن نعجب فالعجب من التعجب، وإن نركن للواقع فذا أمر لا مفرّ منه، ولو عشنا كثيراً لرأينا الأكثر مما يُزرى.. لا نقول خذلان وجحود، ونكران وفضول.. فهذا أمر مألوف وواقع مشهود لذلك لا تَعَجُّب ولا استغراب.

إنها صفات وطباع.. منها المكتسب ومنها الموروث، وهذا ما جُبلت عليه الأنفس السيئة من تغليب غرائز الشر على نوازع الخير، لكن إذا قيل أعوان الشر كُثر.. فأعوان الخير أكثر.

فهل لنا أن نروض أنفسنا على قبول ما يُوجَّه إلينا من انتقادات غير مبررة، وسخط الحساد من ذوي الضغائن الممقوتة، ونرأف

بحالهم ونواسي أحزانهم–شفقةً وتعاطفاً– ونلتمس لهم العذر لواقع حالهم وما يعيشونه من حسد يسري في عروقهم ويعوقهم عن مُسايرة الركب والسعي في مناكبها.. فانقلبوا ذئاباً مسعورة وتبنوا أسلوباً تهكمياً يُجَهِّل مخالفيهم ويلبسهم ثياب الغباء والبلادة، ويقذفونهم بعبارات تُنفِّر ولا تُبشِّر، وتُفَرِّق ولا تُجَمِّع.

إن الصفات الجميلة يسعى لها ذوو النفوس الكبار الدالة على كرم النفس، وسعة الأفق، وطيب المنبت، وحسن الوفاء وأحمد الله أنك من كبار النفوس.

إن أسرع الخير ثواباً.. البر والصلة، وأسرع الشر عقوبة.. البغي والقطيعة.

لقد عُرِفْتَ وعُرِفتْ عنك مناقب حميدة.. لقد أوجعك ما جاءك من ساقط القول والجفاء، ومن ظاهر الفعل وما خفي.. لكن هذا مرجح لميزان حسناتك إن شاء الله، وباقٍ لذكراك وذخراً لآخرتك.

ودمت محروساً موفقاً،،،

محبك

١٤٣٢/٢/٢٠هـ

(٤٩) شجون

(سيرة طفولة ومسيرة حياة لشيخ مسن يسبح في العقد الثامن بعد أن تجاوز محطات وعقبات).

(لا يسأم الإنسانُ من دعاءِ الخيرِ وإن مَسَّهُ الشر فَيَئوسٌ قَنُوطٌ)[٣١]

نحمد الله على سَرَّائِها وضَرَّائِها، وغدوها ورواحها، وحِلِّها وارتحالها، ونشكره ونثني عليه أن منَّ علينا برغد العيش وبنعمة الإسلام والأمن والأمان ونسأله أن يجعلنا هداة مهتدين.

مسار البشر في هذه الحياة: سلوكيات وطباع، وسعي وكفاح، وتباين في سداد الرأي وميول النفس وهواها.. تحفزه جوانب، وتُسخطه أخرى ، يتعطش لمقام، ويحذر من سهام.

وصاحبنا أحد هؤلاء البشر.. ممن يسوؤهم زمان ويسرهم آخر، وكل بحسب وضع كان يعيشه وتطلعات يرنو إليها.

لقد كانت له مواقف من الحزم حيناً، ولين في مواطن أخرى.. فُسِّرت الأولى بالشِّدة، والثانية بالضَّعف، ولَعَلَّ سنوات تَصَرَّمَ عودها كانت خير شاهد على مسار ارتضاه لنفسه.. دَوَّنها وأثبتها نخبةٌ من الأفاضل، وما بوادر الشيخوخة والعجز والهزال بالتي تأخذه على

(٣١) سورة فصلت آية (٤٩).

غير عادته.. بل بمقابلة ما يجده من الصلف والتجافي بلين الجانب والتلطف والتنازل في مجمل أوقاته.. رغم ما يراه بين الفينة والأخرى من تهاون وتطاول وتجاوز، وشعور متنام بخذلان وانحسار ممن يُعَوِّل عليهم.. كيف لا وهذا ديدنه، وماذا تراهُ سيفعل؟.. تلك صفات تتباين بين قوم وقوم، وخلٍ وخليلة.

يقول الشاعر:

أنـــا.. لـــولا أن لي مـــن أمـتـي خـــاذلاً.. مـا بـتُّ أشـكـو الـنُّـوبـا
أمـــــة.. قـد فَـــتَّ في سـاعـدهـا بغضـهـا.. الأهـل وحـب الغـربا

وجَدْتُه منعزلاً في حال من الضَّجَر والنَّصَب.. منكباً على مصحفه يتدبر سورة من القرآن الكريم ومتجهاً لبارئه، ومحاجر عيناه الغائرتان تشحذان بللاً يُرَطِّبهما من أثر الجفاف، وقد شَحَّتَا بأدنى القليل من إفراز دمع عَصِي.. مما قد يُساعد على إفراغ شيء من خلجات صدره.. فلا تلمه.

تـكـاثـرت الـضـبـاع عـلـى خـراش فما يـدري خـراش مـاذا يتقي؟!!

فلعلك تتساءل ماذا جرى؟!! أهي مواقف سخط ونذر شؤم وقذائف قوم.. أم هي أفكار متناثرة، وأمنيات تصطدم بحواجز وسدود.. فأقول: إنها نماذج من إفرازات الأنفس.. تتباين وتتعارض حسب أمزجة متعاطيها..لا يحصرها مكان ولا يحدها زمان.. فَهَلاَّ شكر، وغفر، وصبر؟ وهذا والله واقعه، وما هي إلاَّ أيام وشهور.. ثم أزف رحيل، ويصير فراق، وتنقضي آجال، ولم يبق إلاَّ حصاد ما زُرع، وجني ما اُدّخر، وذكر يبقى، وخبر يُروى.

أخذته مشاهداته إلى مرويات وأحاديث ومقارنات ومواقف من النبل والسؤدد، وأوجاع من اللؤم والتجريح، ونكران وجحود، وفتور وصدود، وما ذلك إلا امتداد لِسِيَر وطباع وأحاديث بمتناقضاتها.. إيجاباً وسلباً تتوارثها الأجيال.

وماذا بقي له أن يقول من وصف وذكر وقد سبقه فضلاء أصحاب أقلام.. تُقَيِّم وتحلِّل وتُشيد من خلال رسائل، وكتابات صحفية، وأحاديث شتى، وحال من وضع النقاط على الحروف، وتلك سنن كونية لا مناص من مواجهتها.

ومن هنا يطيب له أن يقول: إن خير ما يجنيه المرء الاستفادة من خبرات وتجارب المتميزين من خيار الأمة ونبلائها، وذلك بحسن التعامل وتحمل الأخطاء بصبر ولطف والتماس عذر، وإن كلف ذلك عناء نفسي ومسايرة وعطاء.. فإن محصلة العقبى ستكون بإذن الله نجاحاً في الدارين، وهذا والله خير ما يجنيه الإنسان.

١٤٣٢/١٠/٨هـ

(٥٠) تأملات

مع تقدم السن للمرء تجيش معه خواطر وتكثر أحاسيس بآمال وأوجاع.. تصحبهما تطلعات وعوامل اهتمام بصغائر الأمور وجسامها، ويكثر معها التفكير بالقادم الزمني، وتأخذه أحلامه يمنة ويسرة ليجعل من نفسه مُنظِّراً وموجهاً بدءاً بأولاده، وتتسع الرقعة لتشمل شأناً أسرياً ومجتمعاً ووطناً، ويبلغ منه الاهتمام ذروته كأنه المعني بأمانة الجميع.. ليملي تطلعاته للآخرين ويُدونها خطة استراتيجية.. يتأمل ويتطلع أن يأخذ بها أبناؤه.

رأيته خارجاً من مسجده متباطئاً بخطوات مثقلة يُعزي نفسه بعدم استخدامه للعصا التي يتوكأ عليها رغم حاجته إليها.

استوقفته محيياً ومباركاً له بشبابه، وعارضاً عليه إجراء سباق بطول الشارع الممتد قرابة ربع كيلو متر، وأخذ بمحزم ثوبه وصار يبحث عن حُصيَّات ليجعلها في (محثله) لترسي ثباته على الأرض خشية أن تنهض به الريح.

ومع إكباري لروحه المعنوية وتجلُّده.. رأفت بحاله ومآله وآثار الشيخوخة البادية على محياه والتي أخذت منه مأخذها.

شعر بتعاطفي نحوه، وقال: يا بني من قُدِّر له مزيداً من العمر لا بد أن يمر بحالة من الهبوط ليستقر مكانه حتى يومه الموعود.. لكن هل ترغب في هدية دون ثمن وهي أغلى ما يُهدى ويباع.. ألا وهي النصيحة.. قلت: شرف لي أن أسمعها من شيخ وقور في مقام والدي.

قال: (اجعل لك في هذه الدنيا بصمة تُبقي لك أثراً يُذكر.. وذنباً يُغفر).

وبتّ أفكر بهذه الجملة اللطيفة الموجزة، وكلما تعمقت في تفسيرها دخلت في دهاليز وممرات مؤثرة وباعثة للاهتمام بالقادم المجهول من الأيام، وماذا عساي أن أفعل؟ وهل من يقظة واستدراك لبواطن الأمور.. إنها الغفلة والسباق المحموم على مفاتن هذه الدنيا الزائلة، وقى الله الجميع بوائقها ورزقنا حسن الختام إنه جواد كريم.

(٥١) نصائح للأبناء

تمهيد:

يمر الإنسان منذ طفولته بأحلام، وتطلعات، وطموحات.. تتفاوت مقاييسها بين شخص وآخر، وقد يتحقق شيء من ذلك أو أكثر أو أدنى، ومن هذه الطموحات ما يخص الأبناء الذين هم: امتداد لتاريخه وأمله ديناً ودنيا. ما أشد خوف الأب، وعطفه على أبنائه، وسعيه إلى حسن تربيتهم، وتعليمهم، ورفعتهم ورقيهم.

ولأن المرء يتعرض في حياته اليومية إلى مواقف ومشاهد وعبر، ويعتريه شيء من القلق والخوف من بواعث المستقبل، والصورة التي سيكون عليها أبناؤه من بعده، فإنه يتطلع لتحسين صورتهم وسيرتهم وتحصيلهم العلمي والفكري، من خلال ما يبذله من عطاء، وما يصرفه لهم من وقت وجهد ومتابعه.. وتربية.

وصدق من قال:

وَإِنَّـــما أَوْلادنـــــا بَـيْـنَـــنَا أَكْـبـادُنـا تَمْشِـي عَـلَـى الأَرْضِ
لَـوْ هـبَّـتِ الـريـحُ عـلـى بَعْضِـهم لامـتـنـعـت عـيـنـي مـن الـغَـمْـضِ

كما أن الأحنف بن قيس أصاب عندما قال: (الأبناء ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا، ونحن لهم أرض ذليلة، وسماء ظليلة، فإن طلبوا فأعطهم، وإن غضبوا فأرضهم، يمنحوك ودهم، ويحبوك جهدهم، ولا تكن ثقيلاً فيملوا حياتك ويحبوا وفاتك).

وصايا:

كونوا جميعاً يا بَنيّ إذا اعترى خَطْبٌ ولا تتفرقوا آحادا
تأبى الرماح إذا اجتمعنَ تكسّراً وإذا افترقنَ تكسّرت أفرادا

كثيرة هي الوصايا والنصائح التي يُسديها الأب لأبنائه مدفوعاً برغبته لشحن أذهانهم بكل أمر رشيد، وعمل مفيد، ورأي سديد.. ساعياً لحسن تربية وتحصيل علمي وسلوك سوي، وما هي إلا مساعٍ حميدة، وتطلعات لمكانة اجتماعية مرموقة.

ولعلي ممن بذل جهده، وجاد بوقته، وسعى لرسم خطط.. حتى تجاوز ما ينبغي من عطاء، والآن وقد وهن العظم مني، ودنت شيخوخة، وتداعت أفكار ورؤى وأصبحت أنظر بأمل وحذر لمستقبل مليء بالمتناقضات والمفاجآت.. راق لي أن أكون مرشداً إلى الأخذ بأسباب النصائح التالية:

إن شغف الأب بأبنائه يدفعه لتقديم النصح لهم من وقت لآخر.. لما يراه حقيقة أو وهماً بأن ما لديه من خبرة وتجربة أفضل مما لديهم، وما هي إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها، ولهذا أوصي أبنائي وأترابهم من الشباب بما يلي:

- رجال الأمن، ورجال الحسبة.. أصحاب سلطة، ورُعاة أمن.. يجب التعامل معهم بلطف ولين، وإن غَلُظوا.
- أعط المرور حقه، وراع أمثالك من سالكي الطريق، وتنازل عن الأفضلية المتاحة لك، ولا تجادل أوتُعَبِّس، وأظهر كل المرونة.

- إيّاك أن تحمل الحقد والضغينة.. لا لقريب ولا لبعيد.
- ألن جانبك لقومك.. وتواضع لهم.. وابسط لهم وجهك.. ولا تستأثر عليهم بشيء.
- كن متسامحاً.. فممارسة التسامح والتنازل، والتماس العذر للآخرين من أنبل الأخلاق.
- خذ الحذر، فالحذر من الحزم، وكن الفطن المتغابي.
- لا تبخل بجاهك.. فالبخيل من بخل بجاهه.
- لا تَقتَرِض، ولا تُحرج الآخرين بطلب كفالتك، ولا تُقرِض ولا تكفل أحداً أبداً، إلا في الظروف النادرة جداً، وإن كان ولابد فقدم المساعدة المادية والمعنوية ما استطعت ذلك.. فمن أضطر إلى الإقراض أو الاقتراض فليكتب وليثبت دينه ببيّنة.. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾[٣٢].

يقول الشاعر:

إذا استثقلت أو أبغضت خَلْقاً وسَـرَّكَ بُعـدَهُ حتى التَّنَـادِ
فَشَـرِّدْهُ بقـرض دُريهمـات فـإنَّ القرض داعِيـة الفَسَـادِ

- اعتمد على الله ثم على نفسك في السعي لطلب الرزق وكن منضبطاً.
- طور ذاتك دراسةً وثقافةً وتدريباً ومجالسةً، ووسع علاقاتك.

(٣٢) سورة البقرة آية (٢٨٢).

- كن شريفاً، وتجنَّب مواطن الزلل وأماكن الشبهات.
- فكر وفكر وفكر.. ثم ضع الأمور في نصابها.. واستقرىء الأحداث، وارسم خططك على الورق.. ثم تابع عملك.
- كافئ الآخرين على القيام بواجباتهم، ولا تلم أحداً ابداً.. أعط ولا تنتظر العطاء من الآخرين.
- تقول الحكمة: ليجتمع في قلبك الافتقار إلى الناس والاستغناء عنهم، وليكن افتقارك إليهم في لين كلمتك لهم، وحسن بِشْرِكَ بهم، وليكن استغناؤك عنهم في نزاهة عرضك وبقاء عزك.
- وطِّن نفسك على تَقَبُّل أي حدث، وقل: لن يُصيبنا إلا ما كتب الله لنا.. فالمصائب تبدأ كبيرة ثم تصغر حتى تضمحل.

يقول الشاعر:

كن حليماً إذا بليت بغيظ وصبوراً إذا أتتك مصيبة
فالليالي من الزمان حبالى مثقلات يلدن كل عجيبة

- حقوق الوالدين والزوجة والأبناء مسؤولية وأمانة، وحق الإخوان والأقارب واجب حتمي.
- الوسط والوسطية.. منهج ديني إسلامي، وتجاوزه في أي من الاتجاهين يُعتبر تطرفاً. عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ثلاث من حُرِمَهُنَّ فقد حُرِمَ خيري الدنيا والآخرة: عقل يداري به الناس، وحلم يرد به على سفيه، وورع يحجره عن المحارم.

- إحذر الشعراء الهجّائين وألسنة الناس.. فَأَشَرُّ الناس من يتقيه الناس لفحش لسانه.
- صُن عرضك ولسانك، والزم شعائرك الدينية، واتق الله في السر والعلن.
- عاشر الجميع بالحسنى، وخاصةً ذوي القربى (الكبير منهم والصغير).
- تعلّم أسلوب الحديث وحسن الإلقاء والتؤدة، وضبط المعنى والبشاشة والترحيب والصبر والاحتمال.. ما أمكنك ذلك.
- أصدق مع نفسك والآخرين، وابتعد عن الشك والرياء وسماع أقوال سعاة الشر.
- أقلل المزاح، واختصر الكلام.
- أصغ لمحدثك، وأحسن الإنصات وإن لم يعجبك قوله.
- أفضل الأعمال ما أكرهت نفسك عليه.

أربع كلمات صدرت عن أربعة ملوك في فضل الصمت:

- لم أندم على ما لم أقل، وندمت على ما قلت مراراً.
- أنا على رد ما لم أقل.. أقدر مني على رد ما قلت.
- إذا تكلمت بالكلمة ملكتني، وإذا لم أتكلم بها ملكتها.
- عجبت ممن يتكلم بالكلمة.. إن رفعت ضرته وإن لم ترفع لم تنفعه.

يقول حكيم:

إلزم الصمت تَغدُ في عقلك فاضلاً، وفي جهلك عاقلاً، وفي قدرتك حكيماً، وفي عجزك حليماً، وإياك وفضول الكلام.. فإنها تُظهر من عيوبك ما بطن، وتُحرك من عدوك ما سكن.

كلام المرء بيان فضله، وترجمان عقله، فاقصره على الجميل، واقتصر منه على القليل، فكلٌ يعرف بقوله، ويوصف بفعله.. فقل سديداً، وأفعل حميداً.

ولربما ابتسم الكريم من الأذى وفؤاده من حرِّه يتأوَّه

ومن قول أحد الحكماء شعراً:

كم غبي بجهله يتذاكى وذكي من التغابي يسودُ
كم غبطنا الذكي وهو شقي ونقدنا الغبي وهو الرشيدُ
يا ذاكياً.. وما أخذت بشيء كن غبياً.. وجد بفعل يجودُ

التغاضي والتغافل من أخلاق الأكابر والعظماء:

ليس الغبيُّ بسيّد في قومه لكنَّ سيِّد قومِه المتغابي

ويقول ربيع ابن هيثم:

لنفسي أبكي لست أبكي لغيرها لنفسي من نفسي عن الناس شاغل

وقال آخر:

كن حذراً من الكريم إذا أهنته، ومن اللئيم إن أكرمته، ومن الفاجر إن عاشرته، ومن الأحمق إن مازحته.

صلة وتواصل:

ما أجمل مقابلة السيئة بالحسنة، والسفاهة والبذاءة بالحكمة من القول، وما أقبح مقابلة الجاهل المعاند.. بجهالة كجهالته.

يقول الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً﴾[٣٣]، وقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[٣٤].

(الجاهل يظلم من خالطه، ويتطاول على من فوقه، ويعتدي على من دونه، ويتكلم من غير تمييز، وإن رأى حسنة تجافى عنها، وأن رأى عثرة تشدق بها).

وقال الشافعي رحمه الله: (تَرْكُ السفيه وعدم جوابه أشد عليه من الجواب).

وقديماً قيل: (سلاح اللئام قبيح الكلام).

وقيل: إن السفاهة والسخرية من هواجس النقص لدى اللئام وبواعث طباعهم وسماتهم الدنيئة.

يقول الشاعر العربي:

قالو سكتَّ وقد خوصمت قلت لهم ... إن الجواب لباب الشر مفتاح
فالصمت عن جاهل أو أحمق كرم ... أيضاً وفيه لصون العرض إصلاح
أما ترى الأُسْدَ تُخشى وهي صامتة ... والكلب يَخشى لعمري وهو نبَّاح

(٣٣) سورة الفرقان الآية (٦٣).
(٣٤) سورة الأعراف الآية (١٩٩).

إن الترفع عن قبيح الكلام، وإن الصمت أحياناً.. يبقيان الباب مفتوحاً للصلح والتواصل مستقبلاً.

ويقول حكيم:

عليك بصلة الرحم وإن قطعوك.

وفيها يقول الشاعر:

إني ليمنعني من قطع ذي رحم رأي أصيل وعقل غير ذي وصمِ
إن لان لنت وإن دبت عقاربه ملأت كفيه من صفح ومن كرمِ

وقال:

فإن كان حلم القادرين مذلةً فإني ذليل غير أني مكرم

وقال آخر:

لن يدرك المجد أقوام وإن كرموا حتى يذلوا وإن عزوا لأقوام
ويُشتموا فترى الألوان كاسفة لا ذل عجز ولكن.. ذل أحلام

وآخر يقول:

إذا كبرت نفس الفتى قل عقله وأمسى وأضحى ساخطاً متعتبا
وإن جاء يستقضي من الناس حاجةً يرى أنها حقٌ عليهم مرتبا

ويقول آخر:

إني شقي باللئام ولا أرى شقياً بهم إلا كريم الشمائل

إذا اعتذر إليك أحد من قول بلغك عنه أو سمعته منه.. فاقبل معذرته ولا تقطع صلته.

وقد قيل في ذلك:

إذا ما إمرؤٌ من ذنبه جاء تائباً إليك ولم تغفر له فلك الذنب

❖❖❖❖❖❖❖

ومن لم يُغَمِّضْ عينه عن صديقه وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتب

❖❖❖❖❖❖❖

ما دمت حياً فَدارِ الناس كلهم فإنما أنت في دار المداراة

والقول الآخر:

لا تحملن ضغينة لقرابة إن الضغينة للقرابة تقطعُ
لا تحَسِبنَّ الحلم منك مذلَّة إن الحليم هو الأعَزُّ الأمنعُ
فلا أدفع ابن العم يمشي على شفا وإن بلغتني من أذاه الجنادع
ولكن أواسيه وأنسى ذنوبه لترجعه يوماً إليَّ الرواجع

ومن قصيدة شعبية للشيخ سليمان السديري وصية لأبنه:

اعزم وشم واصعد من المجد مرقاب واطلب لابوك أنه يخفف عذابه
وعليك باخوانك وربعك والأقراب حقي عليك مواصلك للقرابه
ومن بينكم لا ينقل الهرج سباب ترى دمار الدار نقل السبابه

وقال آخر من الشعر الشعبي كذلك:

أوصيك زلات الرفيق إن عثا فيك مادام يغطاها الشعر فاحتمل ذاك
راعه ولو ما شفت إنه يراعيك عساك تكسر نيته عن معاداك

وقيل في الاقتداء:

إن كنت تطمع أن تَحِلّ محلّه
في المجد والشرفِ الأشّمِ الأرفعِ
فاصدق، وعفّ، وبُرّ، وانْصف، واحْتَمِلْ
واحْلُم، ودارِ، وكافِ، واصبر، واخشعِ
والطف، ولِن، وتأنّ، وارفق، واتَّئد
واحْزِم، وجِدّ، وحَام، واحْمِلْ، وادفَعِ

المقصود من هذا السرد كله المحافظة على الصلات والتواصل الدائم وعدم القطيعة مع الأقارب والأهل والأصدقاء وكل من له حق رحم.

الصفح والعفو.. فضيلة:

قال الشاعر:

إذا عولج الشر القبيح بمثله تَكَوَّن شرٌ ثالثٌ وتجددا
وأمست دواعي الشر ذات تسلسلٍ مديد وصار الشر في الناس سرمدا

وقال آخر:

فأقسِمُ لا أجزِيكَ بالشر مثله كفى بالذي جَازَيتني لك جازيا

وقال ثالث:

لمّا عفوتُ ولم أحقد على أحد أرحت نفسي من هم العداوات
إني أُحَيّي عدوي عند رؤيته لأدفع الشر عني بالتحيات

إن تماسك المجتمع أفراداً وأسراً وجماعات وقبائل، لا يتأتى إلا بالعمل الجاد والحرص على نشر بذور المحبة والألفة والتسامح والتوسط في محاسبة الآخرين، وعدم الإفراط والغلو في المطالبة، وقديماً قيل:

إذا كنت في كل الأمور معاتباً صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه

وقال رابع:

ولست بمسْتبقٍ أخاً لا تلمُّه على شعثٍ، أي الرجال المهذَّبَ؟

وخامس يقول:

إذا أنا جازيت الجهول بطيشه فهل أنا إلا مثله إذْ أحاورهْ
ولكن إذا ما طاش بالجهل طائش عليَّ فإني بالتحلم قاهرهْ

لماذا لا يعذر أحدنا الآخر إذا صدرت منه زلة أو خطأ أو حتى خطيئة.. إننا بشر نُصيب ونخطئ، ومعرضون لأهواء ورغبات فكرية وتنافسية، ولهذا فإن الصفاء لا يتحقق إلا بشيئين:

- الأول: أن يؤدي الواحد منا ما عليه من واجبات بقدر استطاعته.
- والآخر: أن نكف عن مطالبة الآخرين بحقوقنا الاجتماعية. بمعنى أن نعطي ولا نطلب، نبذل ولا نتطلع إلى عطاء الآخرين.. نضحي ولا ننتظر المكافأة.. وألا نُقابل أي تقصير بعتب أو غضب أو سخط، وأن نترفع عن سفاسف الأمور ونتطلع إلى أشرفها ومعاليها.

إن الرفق بمن تربطنا بهم علاقة قرابة أو صداقة ومجاورة، والحفاظ على مودة الناس ومحبتهم.. أمران يسموان بالمرء ويرفعان من شأنه، ولا تظن أن العطاء والتضحية كافيان وحدهما.. إذ لا بد من الاحتمال والصبر على أذى الأقارب والأصدقاء والمعارف.

يقول أبو الطيب:

إِنَّـا لفي زمـنٍ تَـرْكُ القبيح به من أكثر الناس.. إحسانٌ وإجمالُ

وقال آخر:

إني وجـدتُ وفي الأيـام تجربة للصبر عاقبة محمودة الأثـري
وقَـلَّ مـن جَـدَّ في أمـر يحاوله واستعمل الصبر إلا فاز بالظفري

وفي قبول المعذرة.. قيل:

إقبل معاذير من يأتيك معتذراً إن بَرَّ عندك في ما قالَ أو فجرا
فقد أطاعك من يرضيك ظاهره وقد أجَلَّكَ من يعصيك مستترا
وَأحْكَمْ عن الناس إذا كنت مقتدراً فالسّيّد الحُر من يعفو إذا قدرا

قيل للحسن بن علي:

(لمَ تعطي من يقول البهتان ويعصي الرحمن.. فقال: إن خير ما بذلت من مالك.. ما وقَيْت به عِرضَكَ، ومن ابتغى الخير اتقى الشر).

أسباب العداء ودوافعه:

- الوقوع في خطأ غير متعمد.
- ارتكاب مخالفة بدوافع الطمع أو إشباع غرائز.
- الغيرة والحسد.. يتبعها النقد والتجريح والهجران والصدود.
- خلاف في وجهات النظر يتبعها مجادلة ونفور.
- مشاركة مادية، وإرث.. ينشأ عنهما انشقاق.

النقد:

- تقبل النقد والإنصات للمنتقد وعدم الرد عليه بالتقليل من شأنه، والتغافل عن كل ما أورده من ملاحظات.
- قبول النقد بالتأني وتمحيص الرد قبل إبدائه.
- البعض نقده غير موضوعي وانصياعه للسلبية المترسخة في نفسه من غيرة وحسد.
- هناك من يتظاهر بنقده لمن هم فوقه ليؤكد قدرته على منافستهم.

- النقد الآثم دليل واضح على عظمة المنقود وما أجمل أن تتغافل وتجعله يعوم في الهامش.

ومما قيل في ذلك شعراً:

قلت ابتسم لم يقصدوك بذمهم لو لم تكن منهم أجلَّ وأعظمَ
لا يخلو المرء من الضد وإن حاول العزلة في رأس الجبل
عُدايّ لهم فضل عليّ ومنّةً فلا أبعد الرحمن عني الأعاديا
هموا بحثوا عن زلتي فاجتنبتها وهم نافسوني فأكتسبت المعاليا
كمال المرؤة صدق الحديث وستر القبيح عن الشامتينا

قواعد السعادة (٧):

- لا تكره أحداً مهما أخطأ في حقك.
- ارتبط بالله ولا تقلق أبداً.
- عش في بساطة مهما علا شأنك.
- توقع خيراً مهما كثر البلاء.
- أعط كثيراً ولو حرمت.
- ابتسم ولو القلب يقطر دماً.
- لا تقطع دعاءك لأخيك بظهر الغيب.

القطيعة بعد الصلة:

ما أقبح القطيعة بعد الصلة، والجفاء بعد اللطف، والعداوة بعد الود، ومع هذا فالكثيرون لن يَكُفُّوا عن فعل الأذى، فالشر نزعة في بعض الناس والنفس أمّارة بالسوء.

الكرام: يتعاملون بالثقة، ويتواصلون بحسن الظن، ويتوادون بالإغضاء عن الهفوات.

العقلاء: مطالبون بالترفع والتسامح والصفح الجميل، وأن يُتبِعوا السيئة الحسنة.. إن الرفق بالجاني عتاب وربما عقاب.

المجتمع الذي يدعو إلى التسامح والصفح والعفو والترفع والسمو فوق الأخطاء.. لا يغفل واقع الناس، ولا يسقط الحقائق من حساباته.. بل يُصغي لكل التساؤلات ويعيها ويجيب عليها.

وقد يتساءل متسائل: كيف نسامح من يفاجئوننا بالكراهية والحقد والحسد، ونحن نحمل لهم المحبة والمودة، ونبذل المعروف ونتمنى لهم كل خير؟! والجواب بسيط:

﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً ﴾[٣٥].

ويقول قائل: كيف نسامح من يطعنوننا في الظهر.. بعد أن ضحينا في سبيلهم، وبذلنا الغالي والنفيس من أجل راحتهم؟.. كيف نسامح من يفسرون ترفعنا وسمونا ضعفاً وخضوعاً؟.. تُجيب الحكمة: بأن التسامح شجاعة وبراءة وطهارة، وصدق الله سبحانه:

﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾[٣٦].

وهذا لا يعني أن التسامح بحال من الأحوال تذلل للأشرار ومداراتهم.. بل يقضي التسامح أحيانا إسقاط الأشرار من تفكيرنا

(٣٥) سورة الفرقان آية (٦٣).

(٣٦) سورة فصلت آية (٣٤).

ونسيانهم.. على أن احتمال أذى القريب والصديق، ما أمكن أمر مطلوب، وعلينا أن نعتدل ولا نغلو في العتاب، ولا نقسو على الأحباب، وأن نبقى على حرارة علاقتنا، ونبقى متماسكين أقوياء شرفاء.

صلة الرحم:

صلة الرحم قرابةٌ ومصاهرةٌ.. ذات شأن عظيم، وكثيراً ما تكون القطيعة بأسباب خلاف بين زوجين أساسه تدخل الأهل والأقارب فيوقد الأهل النار ويرفضون الصلح والوئام، وتقع القطيعة وتتأجج العداوة.

إن الترفع عن ذكر الأخطاء، والابتعاد عن الاصطياد في الماء العكر، والعمل على مقابلة الإساءة بالحسنى، وعدم الرد بالمثل بمزايدات لا تجلب إلا شراً وفرقة.. كل ذلك سلوك سوي ونهج إنساني، ومهما كانت النتيجة بين طرفين غير مرضية.. فإن المحافظة على الود وصلة الرحم شأن مطلوب وأمر مرغوب.

قبيح أن تُظهر عيباً في الزوجة أو والديها وإخوانها، أو تشيع عيباً في الزوج وأقاربه، وإن جاء مثل ذلك من طرف فإن الطرف الآخر حري به أن يسمو ويرتفع ويلتمس الأعذار.

لا ينظر أي من الزوجين في عيوب الآخر.. بل يجب عليه أن يركز على النواحي الإيجابية.. الجميلة شكلاً ومظهراً وسلوكاً وتعاملاً، وأن يتولى كل منهما حل مشاكله داخل منزلهما دون تدخل من أحد.

إن الكلمة الطيبة من أي منهما تُعيد الابتسامة والسعادة وتقضي على شُقَّة الخلاف، ويجب الحذر كل الحذر من تدخل الأهل أو أي أطراف أخرى.. لأن ذلك مدعاة للنفور وتزايد الإشكاليات وتطور الخلافات وربما تأجيجها.

نصيحة للأزواج

ابني العزيز: المرأة أمانة في عنق الرجل، وقد جعل الله الولاية في يدك.. فعلك أن تُحسن الرعاية وألا تدقق في كل صغيرة وكبيرة، وأن تلتمس العذر لشريكة حياتك ولا تنس الفضل بينكما وما لصلة الرحم من شأن عظيم ليس مع الزوجة فحسب بل مع والديها وإخوتها وأسرتها.. فهم أخوال أبنائك وشركاؤك في السراء والضراء.

وعندما يقع خلاف لا سمح الله لا تُصعِّد الأمور، وإن واجهك شيء من ذلك فعليك التروي والصبر ومعالجة الخلاف بالتنازل والتسامح، وستكون أنت الرابح في كلتا الحالتين.

نصيحة للزوجات

ابنتي العزيزة: على المرأة أن تُراعي الروابط الزوجية وما بينهما من مشاركة.. وفوق هذا عليها أن تعالج انفعال الزوج وثوراته بحكمة، وأن تحتفظ بهدوئها، ولا داعي لذرف الدموع أو الرد بكلمات مضادة.. لأن ذلك سيزيد من شراسة الرجل وحدة انفعاله.

واجهيه بهدوء وثبات، اجعليه يفرغ كل ما في جعبته من نقد، وتلك هي أفضل وسيلة لكي يتمالك نفسه ويهدأ.. ثم ابدأي نقاشك معه بليونة، وفندي آراءه وردي عليه بموضوعية مع الابتعاد عن الألفاظ المستكرهة أو الجارحة.. فمن المهم أن تتصافى النفوس أولاً بأول، وأن تتخذي من التنازل والتسامح ما يمتص غضبه ويجعلكِ صاحبة المبادرة لكل فضيلة وأمر مروم.

مختارات.. كلمات جميلة وحكم رفيعة:

- إذا كنت مريضاً فلا تجعل مرضك حديثاً لكل أحد بل اختصره لطبيبك.
- لا تجعل أمر ترقيتك ومشاكل عملك قضية عامة تعرضها على الناس.
- لاتُشر في حديثك إلى الآخرين ما توحي به عن: نشاطك في عملك وقدراتك، أو معرفتك وإطلاعك، أو وضع معين لك ولآبائك وأجدادك.. إلا ما تفضي به منفرداً لأخ أو صديق أو ذو شأن لمعالجة حدث ما.
- مجالسة العارفين بالله تنقلك من الشك إلى اليقين، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الرغبة في الدنيا إلى الرغبة في الآخرة، ومن الكِبْرِ إلى التواضع، ومن سوء النية إلى النصيحة.

الأيام ثلاثة: يوم مضى لا ترجوه، ويوم أنت فيه اغتنمه، ويوم يأتيك لا تأمنه..فأمس واعظ، واليوم غنيمة، وغداً لا تدري ما حكمه.

ومن الحكم:

- من حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر، ومن نظر في عواقب الأمور نجا، ومن أطاع هواه ضلّ، ومن حلِم غنم، ومن خاف سلم، ومن اعتبر أبصر.
- لا يسود المرء حتى تكون فيه خصلتان: اليأس مما في أيدي الناس، والتغافل عما يكون منهم.

- الكذوب لا حيلة له، والحسود لا راحة له، والبخيل لا مروءة له، والملول لا وفاء له، ولا يسود سيئ الأخلاق.
- لا يجد العجول فرحاً، ولا الغضوب سروراً، ولا الملول صديقاً، اللسان سيف قاطع لا يؤمن حَدُّه، والكلام سهم نافذ لا يمكن رده، المرء بفضيلته، وبكماله لا بجماله، وبآدابه لا بثيابه.
- المتعب ينام على وسادة من حجر ليستريح، أما الكسول فلن يجد الراحة فوق وسادة من الريش، ولعل الأعرابي أصاب حينما قال:

يطول ما وسَّدت رأسي نكادة

من خوفةٍ يعتاد لين الوسايد

شعر:

ما دمت حياً فدارِ الناس كلهم فإنما أنت في دار المداراةِ

❖❖❖❖❖❖❖

لا تشرهن فإن الذل في الشَرَهِ والعزَّ في الحلم لا في الطيش والسَفَهِ

❖❖❖❖❖❖❖

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتق الشتم يُشتم

قال الرسول صلى الله عليه وسلم: ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار، ولا أفتقر من أقتصد، وقال: من أُعجب برأيه ضل، ومن استغنى بعقله زل.

وقيل: لا تقل في غير تفكير، ولا تعمل بغير تدبير، لا مال أوفر من العقل، ولا فقر أعظم من الجهل، ولا ظهر أقوى من المشوره.

يقول الشاعر:

واخو الجهالة يستبد برأيه فتراه يعتسف الأمور مخاطراً

- أربعة تحتاج إلى أربعة: الحسب إلى الأدب، والسرور إلى الأمن، والقرابة إلى المودة، والعقل إلى التجربة. تجنب ارتجال الكلام، ولا تشره على مستبد برأية، ولا على متلون، ولا على لحوح.
- إن تجرُع النصيحة مرة لا يقبلها إلا أولو العزم، ودَّكَ من نصحك، وقَلاكَ من مشى في هواك.

فلا تمنحن الرأي من ليس أهله فلا أنت محمود ولا الرأي نافعه

والله الهادي إلى سواء السبيل.

من أقوال غازي القصيبي:

- إذا كان ثمن الفشل باهظاً.. فللنجاح ثمنه المرتفع.
- لا يخلو العالم من المنكودين المعذبين بسعادة الآخرين.. يعزى السبب إلى نزعة فطرية في نفوس البشر... إن التميز هو أسرع وسيلة للحصول على عداء غير المتميزين.
- أصدقاؤك يستطيعون التعايش مع فشلك، ولا يستطيعون التعايش مع نجاحك.
- الصديق صامد في وفائه، ثابت في ولائه، عرفك صغيراً فلم يزدرك، وعرفك كبيراً فلم يتملقك، رآك فقيراً فلم يتأثر، وأبصرك غنياً فلم يتغيّر.
- الذين لا يعملون يؤذي نفوسهم أن يعمل الناس.
- الذين يعرفون فرحة الوصول إلى أعلى السلم.. هم الذين بدأوا من أسفله، والذين بدأوا من أعلى السلم لن يكون أمامهم إلا النزول.
- القرار كثيراً ما يكون من صنع الموظف الصغير الذي أعده.. لا المسؤول الذي وقعه.
- أود أن يعرف القراء الذين لم يسمعوا بي إلا مسؤولا كبيراً أنني بدأت حياتي العملية بدون مكتب وبدون طاولة.. إن عجبي لا ينتهي من أولئك الموظفين الذين يصرون على مكتب فخم في يومهم الوظيفي الأول.
- إنني أفخر بالفترة الطويلة التي قضيتها بدون طاولة، وأفخر كثيراً أنني لم أضيع دقيقة واحده من الدوام.. وبعد أن جاءت الطاولة جاءت معها مهمة لصق صور الطلاب على استمارات الامتحانات.

من أقوال ميكيافيلي:

- لا تدفع رئيسك إلى الظل.. فيجب أن يشعر من هو فوقك أنه الأعلى، وإن التمعت مواهبك أكثر من اللازم.. حصلت على عكس المقصود، إنك توقظ مخاوفهم والشعور بعدم الأمان.
- لا تثق بالأصدقاء جداً، وابن جسراً مع الأعداء، لأن العدو يحب أن يثبت لك دوماً أنه ليس بعدو.. أما الصديق فقد ينقلب عليك ويخون على شكل مدمر، وفولتير كان يقول: (اللهم احفظني من أصدقائي.. أما أعدائي فأنا كفيل بهم).
- (تكلم أقل من اللازم) لا تحاول إقناع الناس بكثرة الكلام.. فكثرة الكلام يُنسي بعضه بعضاً، وكل كلام فوق الكلام يخفض مستوى تأثيره، والرجال العظام تركوا أثرهم بالقليل من الكلمات، وكل زيادة في الثرثرة تجلب لنفسك الحماقة أضعافاً مضاعفة.
- يعيش الإنسان على سمعته.. فاحمها بكل وسيله ممكنة، والسمعة النظيفة أحد أعمدة القوة، وبخسارتها تصبح قابلاً للنيل منك ومعرضاً للهجوم من كل جانب، اجعل من سمعتك قوة غير قابلة للسحق، وانتبه لكل احتمالات الطعن، وعالجها فوراً وفي مكانها.
- تجنب العدوى من التعساء وغير المحظوظين، وقل لي من تخالط.. أقل لك من أنت.
- الأفعال هي التي تُعد وليس الجدل.
- جرد خصمك من سلاحه بشرف وكرم.
- لا تحم نفسك بالتحصينات فالعزلة خطيرة.

إرشادات الحياة الصغيرة

«جاكسون براون» هو أب مثل كل الآباء الذين يرون أن أبناءهم يحتاجون دائماً للنصح والإرشاد حتى بعد زواجهم وإنجابهم.. وفي ليلة لم يستطع فيها النوم ذهب إلى مكتبه وجلس يدون إرشادات صغيرة لأبنائه لتعينهم في حياتهم الزوجية والعملية.. في البداية كان يتصور أنه سيكتب ورقة أو ورقتين ولكنه استرسل وكتب ١٥٦٠ نصيحة وإرشاد نشرها في كتيب صغير أسماه «إرشادات الحياة الصغيرة» (Life`s Little Instructions)، ومن أبرزها:

- احذر من عروض البنوك مهما كانت مغرية!
- لا تترك منزلك دون جهاز لكشف الحريق!
- توكل على الله ولكن أغلق بابك جيداً!
- لا تيأس أبداً واحتفظ بخط للرجعة!
- لا تتخذ قراراً وأنت غاضب!
- اقلب أعداءك لأصدقاء بفعل شيء جميل ومفاجئ لهم!
- قد لا يتطلب الأمر أكثر من شخص واحد لقلب حياتك رأساً على عقب!
- لا تنخدع بمظهر الشيطان مهما بَدَّل ثيابه!
- لا تكن منشغلاً لدرجة عدم التعرف على أشخاص جدد!
- ابتعد عن الأماكن المشبوهة؛ فالأحداث السيئة لا تحدث إلا هناك!
- لا تفقد أعصابك، أو ثقتك بنفسك، أو مفاتيح سيارتك!

- لا تقل لرجل أنه أصبح أصلعَ أو أشيبَ، فهو يعرف ذلك مسبقاً!
- لا تحرم الآخرين من الأمل فقد يكون هذا كل ما يملكونه!
- كن لطيفاً أكثر من الحقيقة، ولكن لا تسمح لأحد باستغلالك!
- ابتسم فهذا لن يكلفك شيئاً ولكنه لا يقدر بالمال!
- أعط الناس أكثر مما يتوقعون!
- تعلم الإسعافات الأولية فجميعنا يمر بظروف يندم عليها!
- أحضر لزوجتك هدية ثم فكر بالسبب لاحقاً!
- حين تصادف كتاباً جيداً اشتره حتى لو لم تقرأه!
- احرص على أن تمارس تمارين البطن ٥٠ مرة في الصباح و ٥٠ في المساء!
- لا تصدق كل ما تسمع، ولا تنفق كل ما تملك، ولا تنم قدر ما ترغب.
- اعتن بسمعتك جيداً فستثبت لك الأيام أنها أغلى ما تملك!
- لا تخش العقبات الكبيرة .. فخلفها تقع الفرص العظيمة!
- اختر رفيقة حياتك بحرص؛ فهو قرار سيشكل ٩٠٪ من سعادتك أو بؤسك!
- احكم على نجاحك من خلال قدرتك على العطاء وليس الأخذ!
- اقض مع أطفالك ضعف وقتك المعتاد وامنحهم نصف المال المعتاد!
- الفاشل في إنفاق ماله فاشل في كل شيء في حياته!

- سافر وشاهد أماكن جديدة بعقل مفتوح!
- كل شخص تقابله يملك شيئاً مميزاً، حاول تعلمه!
- لا تستثمر في الأسهم ما لا تتحمل خسارته لاحقاً!
- لا تشارك رجلاً فشل ثلاث مرات!
- لا تستعمل بطاقات الائتمان للشراء بالتقسيط!
- شجع أبناءك على العمل في أوقات فراغهم حالما يبلغون السادسة عشرة.
- ركز على جعل الأشياء أفضل وليس أكبر أو أعظم!
- كن سعيداً بما تملك، واعمل لامتلاك ما تريد!
- فاجئ صديقاً قديماً باتصال مباغت!
- حين تشتري عقاراً انتبه لثلاثة شروط مهمة: الموقع ثم الموقع ثم الموقع!
- اكتب ١٠ أشياء تريد إنجازها في حياتك ثم ضع الورقة في محفظتك!
- ادخر دائماً ١٠٪ من دخلك!

ولي إضافة على هذه المختارات:

- في مرحلة شبابك ومطلع رجولتك.. تجنب اقتناء السيارة الفارهة والمسكن المميز ولو كنت مقتدراً!
- وفي كل الأحوال: المظاهر البراقة والكماليات الزائفة.. مدعاة لنكران شكر النعم ورغد العيش ومجلبة لنقد الآخرين.

اللهم اجعلنا من الشاكرين الذاكرين.

الأمـانــة والاستقامة والاعتدال:

الأمانة والاستقامة والاعتدال، والمساعي الخيّرة.. مطلب إنساني، وتوجيه رباني، وعلى المرء أن يأخذ بأسباب النجاح والفلاح.

يقول الشاعر:

إنمـا المـرء حـديـث بـعـده فلتكن أنت حديث من وعى

نحمد الله أنْ منّ علينا بنعمة الإسلام وجعلنا هداة مهتدين، ورسم لنا منهجاً يحث على مكارم الأخلاق، والتناصح، والتسامح، والبذل والعطاء، وغفران الزلات والأخطاء.

وقديماً قيل: اليد العليا خير من اليد السفلى، ويقال: اعمل لآخرتك كأنك تموت غداً، واعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً. لقد أفاء الله علينا بأمن وأمان ورغدٍ في العيش والرفاه.. مما يقتضي الشكر له والعرفان بفضله وجوده، فهل لنا أن نتساءل عما قدمناه إزاء هذه النعم؟

- أين القيام بالشعائر الدينية.. أصُولاً وفروعاً وآداباً؟
- أين تربية النشء الدينية والثقافية والتعليمية.. توجيهاً وسلوكاً؟ (نعم قد يبذل المرء قصارى جهده في تربية وحسن توجيه، ولا يتحقق له مراده.. بل علينا السعي والأخذ بالأسباب وعلى الله تحقيق المقاصد).
- أين الاحتشام والالتزام وحسن الرعاية؟
- من منا يُقدم التضحية ويؤثِر الآخرين، ويرق ويلين لهم ويخدمهم في حدود إمكاناته؟

- من منا يحاسب نفسه قبل أن يحاسب الآخرين؟
- من منا يعف لسانه عن الغيبة والنميمة والكيد للآخرين؟
- من منا يسعى جاهداً لتطهير يده وبدنه والترفع عن صغائر الأمور؟

وقفة تأمل

آية كريمة: ﴿ذَالك بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّروا مَا بِأَنفُسِهِمْ وأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٣٧).

تقول الحكمة:

ليس سقوط المرء فشلاً .. إنما الفشل أن يبقى حيث سقط.

ويقول آخر:

إذا انشغل مناوؤن في البحث عن عيوبك .. فاشغل نفسك بإصلاح ذاتك.

ويقول شاعر:

إني شكرتُ لظالمي ظُلمي ... وغفرت ذاك له على علم
رأيته أسدى إليَّ يداً ... لما أبان بجهله.. حلمي
رجعت إساءته عليه ... فعاد مضاعف الجرمِ
وغَدَوتُ ذا أجرٍ ومحمدةٍ ... وغدا بكسب الظلم والإثمِ
فكأنما الإحسان كان له ... وأنا المسيء إليه في الحكمِ
مازال يظلمني وأرحمه ... حتى بكيتُ له من الظلمِ

(٣٧) سورة الأنفال الآية (٥٣).

من محفوظات أحد الأخوان (بتصرف)

من السفه أن تبادر عدُّواً أو حسوداً بالمخاصمة وإنما ينبغي- إن عَرَفْتَ حاله- أن تُظهر له ما يوجب السلامة بينكما.. إن اعتذر قبلت عذره، وإن أخذ في الخصومة صَفَحْتَ وأرَيْته أن الأمر بسيط.. ثم تُبطِن الحذر منه.. فلا تثق به في حال، وأن تتجافاه باطناً.. مع إظهار المخالطة في الظاهر.. فإذا أردت أن تؤدبه فأول ما تُؤدبه به إصلاحك لنفسك، واجتهادك في علاج ما يَعْرِفُكَ به، ومن أعظم العقوبات له العفو عنه لله.

ولعل خير ما يستشهد به المرء ويروض به النفس في هذا الشأن.. الآيات التالية من الذكر الحكيم:

﴿ ادْعُ إِلِىَ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكمَةَ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِين ﴾[٣٨] .

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾[٣٩] .

﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِم وَلاَتَكُ فِي ضِيقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾[٤٠] .

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ إِتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾[٤١] .

(٣٨) سورة النحل الآية (١٢٥).

(٣٩) سورة النحل الآية (١٢٦).

(٤٠) سورة النحل الآية (١٢٧).

(٤١) سورة النحل الآية (١٢٨).

الخاتمة

نهارك يا مغرور سهوٌ وغفلةٌ ... وليلكَ نورٌ والأسى لكَ لازمُ
تُسَرُّ بما يفنى وتفرح بالمنى ... كما سُرَّ باللذات في النوم حالمُ
وسعيك فيما سوف تكره غِبَّه ... كذلك في الدنيا تعيش البهائمُ

حِلٌ وارتحال، وقادم ومغادر، وسنوات تترى، وأجيال تتتابع، وهكذا مسار الحياة، وما يعتريها من تقلبات الزمن.. من حوادث وجوائح وكوارث، وتبدلات إلى حال أفضل من أمن ورغد واستقرار.

لقد صار لي في مجرياتها عبرة واعتبار، وتعايش لفترة ترسخت العبرة في وجداني ومشاعري، ولازلت أتذكرها وأذكرها بما فيها من مرارة وحلاوة.. حتى أصبحت محل استمتاع عند روايتها.

شاءت قدرة الله أن تكون رؤيتي للنور عام (١٣٥٥هـ) (١٩٣٦م) امتداداً لأزمان من الثراء ومقام محمود، وبعد عامين في سنة (١٣٥٧هـ) (١٩٣٨م) عانيت مرحلة من اليتم الأبوي، وفراق الأم، وانحسار موارد، وتجافٍ، ودخول نفق مظلم محجوب الرؤية تتقاذفني فيه الأمواج.

مسار طفولتي وصباي حُفَّ بشظف وخشونة وبُعد، ونقص شديد لأبسط مقومات الحياة.. من تعليم وعناية صحية.. في عصر شهد شح الموارد والخشونة والكفاف لدى سكان المنطقة كافة.. وقد أعان الله على تجاوز كل ذلك والحمد لله.

أعقب تلك المرحلة أدوار من القسوة والشدة، والمراهقة والعتمة، والسعي في مناكبها.. مروراً بعمل مضنٍ وكفاح مرير.. صاحبهما عوائق وكبوات ومعاناة وظيفية، وعوارض صحية وأخرى اجتماعية.. إلخ.

وقد تمخّض عن ذلك تدوين سيرة ذاتية.. أطلقت عليها اسم (ذاكرة من الزمن...) تناولتُ فيها مسيرة حياة وأحداثاً ومواقف ومحطات وشيئاً من التوثيق.. بعد أن حَجَبْتُ واختزلتُ الشيء الكثير منها مراعاة لأنفس ومداراة لخواطر، وتحاشياً للاصطياد في الماء العكر.. إلى جانب ما شَحَّت به الذاكرة المتآكلة.

كانت نتائجها جميلة ومبهجة للنفس.. استقيت ذلك من خلال عدد من الرسائل المشيدة والمليئة بالثناء ولله الحمد، وهذا ما شجعني على إزاحة الستار عن (خواطر وأحاديث للأبناء) صار لي سعي في تدوينها خلال أيام مضت.. تحكي وصفاً ورؤى، وأحداثاً شاملةً لأقوام وجماعات وأفراد.. قصدت منها استحضاراً وتذكيراً بمواقف نبل وسؤدد، وأخرى إيضاح لحال من المنحدرات والهبوط، وهكذا من الحالات العامة التي يُستحسن التذكير بها.. للعبرة والاتعاظ.

وأجزم أن فيها من العثرات والسياق الأدبي الجاف ما يجعلها عُرضة للنقد الموضوعي، وهذا شأن تمر به كل مطبوعة.. لتكون عرضة للتصحيح وتقويم المسار.

وعذري في ذلك أنني لست من أرباب القلم، وصوَّاغ الكتابة، والمجادلة الأدبية، وإنما مشارك يسعى جاهداً أن يُقدم شيئاً من تجاربه وخبرته المكتسبة، وإسهاماً فيما قد يُرى فيه إفادة.. شأني في ذلك شأن كل متطلع لتحقيق نتاج أفضل يرقى لذوق الناقد ويروي عطش القارئ.

ولَعَل ناقداً للذات قَبْلَ نقده لكتاب (ذاكرة من الزمن...) قد أصاب حينما أجهد نفسه لقراءة ما بين السطور.. لينبش ويُحلل رُفات مدفونة بين قبور سوّاها الدهر بالأرض، وقد أرشدني مشكوراً لإعادة النظر في حساباتي ومراجعة لجميع مدوناتي، وإضافة شيء من الحذر.. إلى جانب ما لديَّ من حرص سابق.. جزاه الله عني خير الجزاء.

وما ذلك إلا دفع معنوي للمضي في مسار ارتضيته لنفسي، ومؤكداً رغبتي في تنويري، والتشجيع من إخوة أحبة.. لهم من الرؤى النقية والخبرة الزكية ما يُنير لي الطريق.

وقديماً قيل: إن الشجاعة تقع بين معادلتين:

(الإقدام.. تهور)، و(الإحجام.. جبن)، وما بينهما طريق العقلاء، وأن لكل عمل إيجابي ضريبتان:

الأولى: الضريبة الثمينة: توجيه عاقل، وإرشاد ناصح، وهما مصدر قبول وترحيب..

الثانية: الضريبة الخاسرة: نقد لاذع، وسهام ناقم (لذات صاحب العمل.. لا لنتاجه) وتلك من عوامل الرفض والصدود.

وصدق من قال:

وكَمْ على الأرض من خضراء مورقة ... وليس يُرجم إلاَّ من به ثمرُ

وما ذلك إلا حال من شطحات الرؤى.. التي تمليها العواطف، ورغبات النفس وميولها.. الداعية للركون للكسل والتجافي عن العمل.

نعم: من لا يعمل لا يرضيه أن يعمل الآخرون، وتلك حال فئة من بثور المجتمع ونتوءاته.. ممن انشغلوا عن النقد الموضوعي المُشيد بخصائص المنقود، وبالتنويه لتصحيح معلومة ما.. إلى البحث في عيوب الخلق الذاتية، متناسين وضعاً هم يعيشونه، وتلك حال لا يخلو منها مجتمع، وما ذلك إلا شأن عام عاشه ويعيشه الكثيرون.

وقد قال حكيم: ليس لثلاثة حِيل:

فقر يخالطه كسل، وخصومة يداخلها حسد، ومرض يمازجه هرم.

أرجو أن أكون قد وفقت في سرد جهد المقل بهذه المطبوعة صياغةً ومعنىً، وأن تجد قبولاً واستحساناً من قارئها الكريم.. رعى الله الجميع.

أمدنا الله بعفوه وإحسانه، وأدام علينا نعمة الأمن والأمان.

والحمد لله رب العالمين.

الفهرس

تقديـم ٩
تمهيد ١٣
مقدمة.. خواطر، وأحاديث للأبناء ١٧
(١) خاطرة أم.. وفراق أحبة ٢١
(٢) المجهول يعود بالذاكرة ٢٥
(٣) شوارد الذهـن ٢٩
(٤) نفوس أضناها الشقاء ٣٣
(٥) هيـوستـن ٣٧
(٦) حيرة وإبحار ٤١
(٧) هـواية وهـوى ٤٥
(٨) عناء الطفولة، ومتاعب الشيخوخة ٤٩
(٩) سيرة ومسيرة ٥٥
(١٠) شـــكوى ٥٩
(١١) نكران وجحود ٦٣
(١٢) الغيرة والحسد ٦٧
(١٣) عصامية تحقق أهدافاً ٧٣
(١٤) ركـوب حمـار كان أُمنية ٧٧
(١٥) رسـالة ذات شجون ٨١

(١٦) عاطفة الأبوة ٨٥
(١٧) هـمـوم وأفكار ٨٩
(١٨) تجربة مُرَّة.. ورؤى ثاقبة لشيخ وقور..... ٩٣
(١٩) شيء من النجاح.. يقابله مقت واستهجان ٩٩
(٢٠) نجابة ابن.. وتجارب أب ١٠٣
(٢١) طغيان.. ونكران..... ١٠٧
(٢٢) صراع الموارد ١١١
(٢٣) نساء.. طامحات شامخات..... ١١٥
(٢٤) نعم: هناك شيخوخة بائسة ١١٩
(٢٥) ندرة من النساء ١٢٣
(٢٦) متى يصحو الغافل ١٢٧
(٢٧) نُبلٌ ينفي الخَبث..... ١٣١
(٢٨) نحو تماسك أسري ١٣٥
(٢٩) نقد موضوعي.. وآخر!!؟ ١٣٩
(٣٠) خلق كريم يجسّد قيماً ١٤٣
(٣١) كسـل وسخـط.. وحِيلٌ وتحايل..... ١٤٩
(٣٢) الدعوة والدعاة..... ١٥٥
(٣٣) ضربـــة حـــظ ١٥٩
(٣٤) احتمال لرجال كالجمال ١٦٣

(٣٥) زواج مسيار ١٦٩
(٣٦) إعمال الفكر..... ١٧٥
(٣٧) جامعة في ذات شيخ ١٨١
(٣٨) فرحة يتيم ١٨٥
(٣٩) بيروقراطية، ورموز ذات أبعاد ١٨٩
(٤٠) رسالة إلى أولادي ١٩٥
(٤١) هي الدنيا لا تستقر على حال..... ٢٠١
(٤٢) رسالة مشبعة بالدموع إلى والدي..... ٢٠٥
(٤٣) مواقف وعِبر لرجال من النوادر ٢١١
(٤٤) ضجيج من رغاء الإبل..... ٢١٧
(٤٥) مشاهد مؤلمة ٢١٩
(٤٦) خاطرة ذات مشاعر..... ٢٢١
(٤٧) التقاعد واستثماره، والمرض وقبوله ٢٢٥
(٤٨) رسالة جوابية إلى أخ عزيز..... ٢٣١
(٤٩) شجون..... ٢٣٣
(٥٠) تأملات..... ٢٣٧
(٥١) نصائح للأبناء ٢٣٩
الخاتمة ٢٦٨

ملاحظات:

الحياة

الحياة: بهمومها، ولهوها، وآمالها، وآلامهـا.. بأفراحهـا وأتراحهـا.. وتكالب القوم وتنافسهم.. القاصي منهم والـداني، وتقلبـات الأحوال ومواجهتها.. أمـور ذات أشجان.. مـاذا أعددنا لها من سلاح ووسائل مقاومة تتماشى مع عصرنا الحاضر، وما نوع هذا السلاح؟

إنـه "العمـل على تطويـر الذات".. نعـم للذات شـأن.. التزاماً وسلوكاً، وهو سلاح محمود وأمر منشود.. لم أر معه صعوبة، ولا يقتضـي أثره عقوبة.. جمال وزينة للنفـس، وتاريخ يبقى ومثوبة من الله تلقى.

ما أيسره على المتطلع لعلو شأن ورفعة مقام،

وما أهونه على المقدام، وأصعبه على المتثاقل الكسلان.

فهل من يقظة وإرادة صلبة؟! أرجو ذلك.

ردمك: ٨-٣٦٧٣-٠٠-٦٠٣-٩٧٨